

إعداد
إيهاب كمال

الحرية للنشر والتوزيع
٢ ميدان عرابى وسط البلد القاهرة
ت/ ٥٧٤٥٦٧٩ ـ ٠١٢٢٣٨٧٧٩٢١ ـ ٢٦١٥٦٤٦



الطرق الصوفية

عقيدة أصلية .. أم بدعة دخيلة

اسم الكتاب : الطرق الصوفية

تأليـــف : ايهاب كمال

الناشـــر : الحرية للنشر والتوزيع

٣ ميدان عرابى وسط البلد - القاهرة

ت : ٢٦١٥٦٤٦ ـ ٥٧٤٥٦٧٩ ـ ٦٠٩٣٢٧٠ ـ ٠١٢٢٣٨٧٧٩٢١

رقم الإيـــداع : ٢٣٥ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : ٢ - ١٢ - ٢٠ - ٢٣ - ٩١٥

مقدمة

إختلف الناس قديماً وحديثاً إختلافاً بعيد المدى، واسع الصدى فى معنى «التصوف». وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين أنه درس خمسة وستين تعريفاً «للتصوف» فلم يجد معنىً عاماً منها مشتركاً بينها إشتراكاً يجمع خصائصها ويوحد حقيقتها.

والذى ينظر فى كتب «التصوف» ويطيل النظر، يجد أنه أمام مئات من التعريفات «للتصوف» وكل تعريف منها ينحو إلى نحو خاص.

وشاهد ذلك نجده قريباً بين أيدينا فى كتاب الحلية لأبى نعيم. وهو كتاب مشهور من أجمع ما كتب فى «التصوف» رجالاً ونعوتاً وأقوالاً وحكماً وتعريفات وحسب القارىء أن يعلم أن هذا الإمام ترجم لأكثر من ثمانمئة شخصية صوفية من رجال ونساء ترجمة تختلف إختلافاً بيناً فى الإيجاز و الإسهاب. وهو يذكر فى كل ترجمة معنى أو أكثر من معنى التصوف، يختلف عما يذكره قبلاً أو بعداً.

والذى نراه فى تأويل هذا أن التصوف أحوال وأذواق ومقامات تتفاوت فيما بينها بتفاوت أحوال ومقامات ومشارب أصحابها.

ويمكن أن يقال: إن كل سالك فى الطريق إلى الله تعالى له حال أو أحوال. وله ذوق ومشرب.

وكما إختلف الناس فى معنى التصوف إختلفوا فى تحقيق هل «التصوف» علم من علوم الإسلام الأصلية النابعة من الحقيقة الإسلامية المنزلة فى كتاب الله على خاتم النبيين محمد (ﷺ) والماثلة فى سنته المطهرة علماً وعملاً.

أو هو علم من العلوم الطارئة فى تاريخ الإسلام نتيجة التفاعل والمزج بين عقائد الأمم التى إستظلت بظل الإسلام. وأخلاقها وأفكارها وسلوكها؟

كل هذه الأسئلة وغيرها سيجد القارىء الكريم إجاباتها فى هذا الكتاب.



معنى التصوف

من حقك أن تتعرف إلى رفقاء الطريق حتى تأنس بهم.. ولا تسيء الظن بهم.. لانهم غالبا ما يقعون ضحية سوء فهمهم، وعجز غيرهم عن ادراك أسرار اللغة التي يتعاملون بها، ومن حقك أن تعرف كيف نشأت هذه الطائفة في تاريخ الاسلام، وكيف شقت لنفسها طريقا اساسه الذوق الراقي، والحس المرهف والقلب العاشق والوجدان اليقظ.

ستدهش اذا عرفت أن كل من كتبوا عن الصوفية فشلوا في وضع تعريف محدد لها، ولكن ستزول دهشتك اذا عرفت السبب.. فكيف السبيل الى تحديد واضح لهذا العالم المغرق في الغموض والإبهام.. فالصوفية أنفسهم لا يكشفون عن أسرارهم، ولا يفهم هذه الرموز الا من تكلم لغتهم وخاض معهم بحار الحقيقة، وذاق من النبع الذى ينهلون منه.. لذا ندعهم يقدمون أنفسهم بأنفسهم، فذلك أدعى الى الدقة والانصاف.

* لقد ذهب معروف الكرخي الى ان التصوف هو الاخذ بالحقائق واليأس مما في ايدى الناس.
* وقال أبو سليمان الدراني: التصوف هو أن تجرى على الصوفي أعمال لا يعلمها الا الحق، وأن يكون دائماً مع الحق على حال لا يعلمها الا هو.
* وذهب بشر الحافي الى أن الصوفي من صفا قلبه لله.
* وقال ذو النون المصري: الصوفي هو من اذا نطق، كان كلامه عين حاله، فهو لا ينطق بشيء الا اذا كان هو ذلك الشيء، واذا أمسك عن الكلام عبرت معاملته عن حاله، وكانت

ناطقة بقطع العلائق الدنيوية عن حاله.

أما أبو التراب النخشى فقد قال: الصوفى لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء.

* وذهب السرى السقطى إلى أن التصوف اسم لثلاثة معان: الذى لا يطفيء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك استار محارم الله.

* وقال سهل بن عبد الله التسترى: أن الصوفى من يرى دمه هدراً وملكه مباحاً وقال ايضا أن الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر. وقال: التصوف قلة الطعام، والسكون إلى الله والفرار من الناس.

* قال سمنون المحب: أن تكون متصوفا معناه ألا تملك شيئا، ولا يملكك شيء.

* وذهب أو الحسن النورى إلى أن أخص خصائص الصوفى: السكون عند العدم والايثار عند الوجود، وقال أيضاً ان الصوفية قوم صفت قلوبهم من كوارث البشرية وآفات النفوس وتحرروا حتى صاروا فى الصف الاول والدرجة العليا مع الحق، فلما تركوا كا ما سوى الحق.. صاروا لا مالكين ولا مملوكين.

*أما الجنيد فقال: التصوف هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به، وقال أيضاً: التصوف هو أن تكون مع الله بلا علاقة، وقال: الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح، وقال: الصوفية قائمون بالا يعلمهم إلا هو. وقال: التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس، ومفازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم الحقيقة، وعمل ما هو خير إلى الأبد والنصح الخالص إلى جميع الأمة، والاخلاص فى مراعاة الحقيقة واتباع النبى ﷺ فى الشريعة.

* وذهب أبو محمد رويم إلى أن التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد، والتمسك بالفقر والتحقق بالذل والايثار، وترك التعرض والاختيار.

* اما الحسين الحلاج فقال: الصوفى وحدانى الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحداً.

* وقال ابو عمر الدمشقى: التصوف رؤية الكون بعين النقص، بل غض الطرف عن كل

ناقص بمشاهدة من هو منزه عن كل نقص.

* وقال أبو بكر الشبلي: التصوف الجلوس مع الله بلا هم. ووصف الصوفي بأنه منقطع عن الخلق متصل بالحق كقوله تعالى: «واصطنعتك لنفسي» فقطعه عن كل غير، ثم قال: «لن تراني».

* وذهب أبو الحسين الحصري إلى أن الصوفي من إذ فنى عن آفات الدنيا لم يرجع إليها، ومن إذا ولى وجهه نحو الحق لم يتحول عنه، وليس للحوادث أثر فيه بحال. وقال: الصوفي من هو لا راحة له ولا سلوى له في الدنيا إلا بالله، ومن سلم جميع أمره إلى ربه الذي يعلم ما قدره له. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟.

مذكره تفسيرية
لتعريفات الصوفية

من المؤكد أن هذه التعريفات تحتاج إلى مذكرة تفسيرية توضح غموضها ولذلك سنلجأ إلى أحد الخبراء فى الدراسات الصوفية ليلقى الضوء على معنى التصوف وأبعاده ومراميه، وخبيرنا هو الدكتور فيصل بدير أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة عين شمس انه يرى أن القول بأن التصوف هو أن تجرى على الصوفى أعمال لا يعلمها إلا الحق- يعبر عن المرحلة القصوى التى يصل اليها الصوفى، وبالذات: حالتى الفناء والبقاء، وهما حالان يتمنى كل صوفى حصولهما له.

** وما معنى أن تجرى على الصوفى أعمال لا يعلمها إلا الحق؟

- معناه أن الصوفى قد مات، وفنى عن نفسه باعتباره بشراً.. لقد ماتت الصفات البشرية الفانية فيه، فغاب عن نفسه، لكنه يوجد ويحيا بالله، ففى فنائه بقاؤه.. فقد فنى عن نفسه وبقى بالله وفى الله.. ومن أجل هذا فهو لا يدرى لماذا يفعل ما يفعل.. وكيف يفعل.. وفى هذه الحالة قد توحد مع الله بحيث أضحى هو الله الذى يفعل من خلاله ما يشاء، فإذا تحدث.. فإن المحدث هو الله نفسه.. وفى هذه الحالة لا يقال الصوفى «أنا» لأن الأنا تعبير عن الارادة والوعى والتمييز وهو قد فقد فى حالة الفناء إرادته ووعيه وتمييزه واتحد مع حبيبه، أن «الأنا» هنا قد فنى فى الذات الإلهية وبات من العبث أن تبحث هنا عن ثنائية: حبيب ومحبوب.. لأن الحبيب أضحى هو المحبوب، وأضحى المحبوب حبيباً.

** وماذا عن التعريف الذى يصف الصوفى بأنه من صفا قلبه لله؟

هذا التعريف بسيط لأن الصوفى لابد له وقبل كل شىء أن يطهر نفسه حتى يصير ربانياً.. والتطهير يتم بالمجاهدة فى اتجاهين: التغلب على شهوات البدن من جهة، والتغلب على قوى النفس الامارة بالسوء من جهة أخرى وفى كلتا الحالتين فإن النفس لن تستطيع ذلك إلا من خلال المعرفة والرجوع إلى الذات، حينئذ يدرك المرء انه جزء من كل، وأن ما بداخله من نور إنما هو قبس من النور الالهى الأعظم، ولذا فإن الواجب على المرء أن يصفى نفسه من كل ما هو فان متناه محدود. لكى تصفو نفسه فلا تشتغل بغير الذات الالهية.

** وما معنى أن يكون الصوفى هو من إذا نطق كان كلامه عين حاله، وإذا أمسك عن الكلام عبرت معاملته عن حاله.

هذا التعريف يشير إلى أكثر من ناحية من نواحى التصوف، فهو أولا يشير إلى أن الصوفية لا يهتمون بالظاهر، بل يهتمون بالباطن، وهم فى ذلك يختلفون عن الفقهاء لا يهتمون بالظاهر، بل يهتمون بالباطن، وهم فى ذلك يختلفون عن الفقهاء حراس الشريعة، أى أن الصوفى يحاول إدراك الحقيقة الكامنة فى هذا العالم التى هى أخفى من الخفاء، وأظهر من كل ظاهر، ولكن البعض يعجز عن إدراكها لعدم صفاء نفسه. ويشير كذلك إلى أن عقيدة الصوفى ليست عقيدة نظرية، فهو لا يهتم بالنظر بل بالعمل، ولا يهتم بالعقل والحس بل بالقلب والسريرة، إن نفسه مشغولة بالجلالة الالهية مما يجعل نفسه فى طاعة عمياء لله، وهذه الطاعة تتجلى على الصوفى سواء تكلم أو صمت، فهو ان تكلم فبلسان الحق، وإن صمت فان جوارحه تنطق وتكشف عن حالته، فمن السهولة بمكان ان يدرك المرء حالته وما هو عليه من حب لله وانشغال به.

** فكيف تفهم المعنى الذى يقول ان الصوفى لا يطفى نور معرفته أو روعة ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله؟

هذا التعريف فى غاية الاهمية من حيث انه يشير إلى أن الحياة الباطنية للصوفى سر من أسرار الله لا ينبغى أن يطلع عليه أحدا، ولا ينبغى للصوفى البتة أن يكشف عما يحدث له، أو ما يمكن ان يحدثه هو تجاه الآخرين، والصوفى إذا فنى عن نفسه وانمحى فى الذات الالهية يستطيع ان يفعل أشياء خارجة عن المألوف وهو ما يسمى بالكرامات، هنا يحذرنا السرى السقطى من إظهار الكرامات على ايدى بعض الصوفية، لأن معرفة الصوفى لله واتحاده به وفنائه فيه لا ينبغى ان تدفع المرء الى الافصاح عنها من خلال

بعض الاحداث التى تبهر الناس، لان ذلك من شأنه ان يتنافى أولا مع الفكرة القائلة بأن الطبيعة ثابتة ثبات خالقها، ثانياً لان فعل الصوفى لهذه الافعال يجعل الناس يلتفون حوله ويضعونه وموضع التقديس وينسون خالقهم وخالقه، لذا لا ينبغى أن يطفىء نور المعرفة نور الورع والتقوى وخشية الله، كذلك لاينبغى أن يطرح الصوفى كتاب الله وسنة نبيه جانبا بحجة أن ما ورد فيها يخص عامة الناس لا خواصهم، بل أن عليه أن يقيم شعائر الدين كما يفعل سائر الناس، اما علاقته الخاصة مع الله، فهذه مسألة لا يستطيع احد ان يتدخل فيها.

** ما معنى القول بان «السكون عند العدم» و «الايثار عند الوجود» من أخص خصائص الصوفى؟

هذا التعريف يكشف عن ناحية أساسية فى التصوف أجمع عليها الصوفية وهى الإيمان بقضاء الله وقدره والتوكل عليه فى كل شأن من شئونهم، وأن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وما أصابنا لم يكن ليخطئنا.. وأننا فى تدبيرنا لشئوننا فإنما نحن فى الحقيقة ننفذ الإرادة الإلهية، فقد نخضع خضوعاً لعلم الله الذى لا يتبدل ولا يتغير ولا يخطىء.. وعلى ضوء ذلك ينبغى على الصوفى إذا فقد مالاً أو ولداً أو جاها، أو أصيب بمرض.. ان لا يشكو بأله وحزنه لأحد.. بل يظل ثابتاً مؤمناً بقضاء الله وقدره، راضياً كل الرضا عن قرار حبيبه.. وهذا هو معنى، السكون عند العدم.

أما «الايثار عند الوجود» فمعناه أن على الصوفى إذا رزق بمتعة من متع الدنيا ألا يبخل بشىء منها على أهله وعشيرته ووطنه، إذا عليه أن يؤثر الآخرين على نفسه وأن يجود بكل ما تكرم به الله عليه لأن الرزق كله من الله. وهو فى ذلك لا يخشى الفقر. فكيف يخشاه وهو الغنى بالله..! إن عليه أن يضحى بكل ذلك حتى لا يشغل به ولكيلا يكون عبداً لما يحرص عليه.

** وما معنى قول الحلاج بأن الصوفى وحدانى بالذات لا يقبله احد ولا يقبل أحداً..؟

هذا التعريف يعبر عن تصوف الحلاج تعبيراً دقيقاً، وهو التصوف الذى يقول بوحدة الوجود واتحاد اللاهوت بالناسوت بحيث يصير الانسان والله شيئاً واحداً كما حدث بالنسبة للمسيح عليه السلام، فالحلاج وقد وصل إلى الفناء فى الذات الالهية يرى أنه أصبح واحدا لا يوجد إلا إله واحد فهو فى هذه الناحية وحدانى بالذات لايقبل احداً، أى أنه يرفض الثنائية رفضاً قاطعاً، ومن ناحية أخرى فإن الصوفى يسلك سلوكاً خاصاً لا

يقره الناس عليه ولا يقبلونه منه، وهو ينكر عليهم أفعالهم.. ولذلك لا يقبل أحداً ولا أحد يقبله.

عسى أن تكون هذه التفسيرات قد نجحت فى كشف حقيقة التصوف وألقت بعض الضوء على هذه الطائفة الغريبة التى لعبت فى تاريخ الاسلام-ولاتزال-دوراً حيوياً- واكسبته مسحة روحانية اجتنبت الزاهدين فى متاع الحياة الدنيا والراغبين فى كسب الجولة الأخيرة.. والأخيرة خير وأبقى.

كيف تكون صوفياً؟
ألم تفكر يوماً فى أن تكون صوفياً..؟

ألم تحدثك نفسك بتحقير المعارك الصغيرة التى تخوضها من أجل منصب أو درجة أو علاوة أو تحصيل منفعة؟ ألم تتمرد على نفسك وهى تقودك إلى شهوة تذهب لذتها وتبقى تبعتها..؟ ألا تشعر أحياناً بأصوات خفية تنبعث من أعماقك تدعوك إلى السمو والارتقاء فوق الحاجة والرغبات؟ ألم تشعر ذات يوم برغبة فى الاختلاء بنفسك بعيداً عن صخب الناس وضجيجهم. تراجع نفسك وتقف امام ضميرك ليحاسبك على ما فرطت فى جنب الله؟

إذا كان الامر كذلك- وانه كذلك- فانت تحمل فى أعماقك بذور التصوف، وكل انسان- من حيث هو انسان- يحمل هذه البذور، فاذا استمعت الى صوت ضميرك وبدأت تتأمل نفسك ذاتيا فقد وضعت قدمك على أولى عتبات التصوف.

والتصوف ليس معناه ان تلبس الخرقة والمرقعة وتمشى فى الاسواق تهذى بكلام غير مفهوم وتتلقى صدقات المحسنين.. فتلك صفات المجانيب الذين اساءوا الى التصوف والمتصوفين، كذلك لن تكون صوفيا ولو قرأت الف كتاب عن التصوف. فالتصوف تجربة ذاتية لا تتحقق بالقراءة والدرس، ولكن بالمعاناة والمجاهدة والصبر، حتى تتكشف لك عوالم جديدة خاصة وليس شيئا مشتركا بين الناس جميعا.. انه شىء قريب من الفن.. وهو نتيجة خبرة ذاتية تعتمد على الاستبطان.. والذوق.. ومن طريف ما يروى عن الذوق الصوفى ان تلميذا للصوفى المشهور محيى الدين بن عربى جاءه يوما فقال له: ان الناس ينكرون علينا علومنا «التصوف» ويطالبون بالدليل عليها.. فقال له ابن عربى ناصحا: اذا طالبك احد بالدليل عليها.. والبرهان على علوم الاسرار الإلهية، فقل له: وما الدليل على حلاوة العسل؟ فلابد ان يقول لك: هذا علم لا يحصل عليه الا بالذوق.. فقل له: هذا مثل ذاك.

وهذه الاجابة من ابن عربى يصفها الدكتور ابو الوفا التفتازانى استاذ الفلسفة

الاسلامية وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بأنها تدل على عمق تحليله لاحوال التصوف فهو يريد ان يقرر ان التصوف يتعلق بمجال العواطف الانسانية وهو مجال لا يخضع- بلغة علماء النفس المحدثين- للقياس الكمي، وسبيل معرفته هو المعاناة ولا شيء غيرها، كما انه لا يخضع ايضا لمنطق العقل واستدلالاته.

ومعنى هذا انك إذا أردت أن تكون صوفيا فعليك أن تطرح جانبا البراهين العقلية لأنها لن توصلك الى الحقيقة الإلهية التى يسعى الصوفية الى بلوغها. وهم بالغوها عن طريق الذوق والكشف، وليس عن طريق الحواس المعروفة، وليس عن طريق العقل.

ولقد أوضح العلامة ابن خلدون سبيل الصوفية الى المعرفة الإلهية عن طريق المجاهدة وما يتبعها من خلوة وذكر، يتبعها كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها.. والروح من تلك العوالم.. عندئذ يقترب الصوفى من درجة الكشف.

ثم يقول ابن خلدون: ان الروح اذا رجعت عن الحس الظاهر الى الباطن، ضعفت احوال الحس، وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجددت نشوته، وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال فى نمو وتزايد الى ان يصير «شهودا» بعد ان كان «علما»، وتكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذى لها من ذاتها، وهو عين الادراك، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهى، وتقرب ذاته من الافق الاعلى.. أفق الملائكة.. فإذا كان أهل الحق مختصين بسلوك معين أضحوا كذلك مختصين بمصدر خاص يدركون منه علمهم.. هذا المصدر هو النفس البشرية.

كيف تحصل على العلم الباطنى؟

نحن إذن بازاء علم خاص-باطنى- لانحصل عليه بالمدركات الحسية «البصر والسمع واللمس والشم» ولا نحصل عليه بالبراهين العقلية.. وانما هو علم خاص.. سمه «علم الحقيقة» ان شئت.. أو علم الباطن أو الكشف أو الذوق.. أو ما شئت من مسميات.. ومحل الباطن عند الصوفية هو القلب.. فهو أداة المعرفة ومعراج الوصول.. والقلب المقصود ليس تلك العضلة المكونة من اللحم والدم التى تقع فى الجانب الايسر من صدر الانسان.. وانما هو اللطيفة الربانية الروحية التى هى حقيقة الانسان.

ويوضح الامام الغزالى مهمة القلب فى تحصيل العلوم الربانية فيقول ان القلب

كالمرآة، والعلم هو انطباع صور الحقائق فى هذه المرآة، فإذا كانت مرآة القلب غير مجلوة فانها لا تستطيع ان تعكس حقائق العلوم، والذى يجعل مرآة القلب تصدأ هو شهوات البدن، اما الاقبال على طاعة الله والاعراض عن الشهوات فهو الذى يجلو القلب ويصفيه، والمعرفة بالله فطرية وهى مركوزة فى القلب، فكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لانه امر ربانى شريف، وهو حمل الامانة التى حملها الله له. والامانة هى المعرفة والتوحيد.

ويرى الامام الغزالى ان الفناء فى التوحيد هو ثمرة المعرفة الصوفية، ومع ذلك فالغزالى يعترف بأنها من الامور التى عجز بعض الناس على فهمها وادراكها بسبب قصوره قدرة العلماء عن ايضاحها وبيانها بعبارات مفهومة، وهو يرى ان التعبير عن حقائق التوحيد التى تكشف للصوفى فى حالة الفناء بألفاظ اللغة، ويوقع صاحبه فى اشكالات لا حصر لها، ولذلك فالغزالى ينصح بالامساك عن الخوض فيها.. ويرى ان علم المكاشفة لا ينبغى ايداعه فى الكتب، لان التعبير عن حقائق التوحيد صعب للغاية، ولا تصلح له اللغة العادية، ولذلك يضطر الصوفى الى استخدام الرمز للتعبير ويستدل على ذلك بأن الانبياء لم يتكلموا مع الخلق الا فى طريق العلم والارشاد اليه «يعنى الشريعة وتعاليمها» اما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه بالرموز والايماء على سبيل التمثيل والاجمال علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال.

ويرى الامام الغزالى أن علم المكاشفة علم خفى لا يعلمه الااهل العلم بالله، ولذلك يستخدم الصوفية رموزا خاصة، لا ينبغى التحدث فيه خارج نطاق اهله، ولا يجوز لمن تيسر له علم المكاشفة ان يبوح به لمن لم ينكشف له.

فالصوفية فى نظر الغزالى انكشف لهم الامر، وفاض على صدره النور، ليس بالتعليم والدراسة وقراءة الكتب، ولكن بالزهد فى الدنيا، وتفريغ القلب عن شواهدها، والاقبال على الله تعالى، والمواظبة على العبادة.. ويصف الغزالى الكشف بالنور.. نور يقذفه الله فى الصدر هو مفتاح المعارف.

وهنا.. قد يخطر ببالك خاطر: هل هذا الكشف الصوفى الذى ينبثق فى القلب، شبيه بالوحى الذى يتنزل على الانبياء؟

وعندئذ يحذرنا الغزالى من الخلط بين هذا وذاك.. فالاول يسمى إلهاما ونفثا فى الروع، ويختص به الاولياء والاصفياء..

والثانى يسمى وحيا.. ويختص به الانبياء.



الجزء الأول

المقامات والأحوال

السفر إلى الله لا يحتاج إلى جواز مرور، ولا تذكرة طائرة، ولا تأشيرة دخول، يحتاج فقط إلى إرادة قوية، ونية خالصة، وإدراك بحقيقة الرحلة التى ستقطعها، ومعرفة دقيقة بالمحطات التى ستتوقف عندها، والمعابر التى يجب عليك أن تجتازها حتى تصل إلى المحطة الأخيرة: محطة الرؤية السعيدة لترى مالا عين رأت.. ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر.

وليس من شروط السفر أن تكون عابداً متبتلا.. يكفى أن تكون صادق الرغبة فى الوصال.. مشتاقاً إلى الله.. فإذا كنت ممن أثقلت الخطايا ظهورهم، فلن يحول ذلك دون انضمامك إلى الركب.. فباب التوبة لا يوصد أبداً.. فهو مفتوح بالليل ليدخله مسىء النهار.. ومفتوح بالنهار ليدخله عصاة الليل.. والذنوب التى تحملها فوق ظهرك سوف تتساقط شيئاً فشيئاً.. فى كل محطة يتساقط ذنب.. وتذوب معه معصية، فإذا بك فى نهاية الطريق عبداً ربانياً طاهراً كماء المطر.. شفافاً كالثلج.. نقياً كالفجر الوليد.

إياك أن تيأس من روح الله وتقول أين أنا من هؤلاء الأفذاذ الذين عرفوا الله فانكشفت لهم الحجب..! لقد كانوا خطائين – مثلى ومثلك – ولكنهم وضعوا أقدامهم على أول الطريق.. ووقفوا بالباب ينتظرون.. حتى دُعوا وأتاهم المفتاح.. ومنهم من كان غارقاً فى المعاصى إلى أذنيه.. ولكنه وسعته رحمة الله التى تسع العصاة وتمسح ذنوب التائبين.. فإذا هم من المقبولين.

هذا الفضيل بن عياض.. أحد أعلام الصوفية فى عصر هارون الرشيد.. كان فى شبابه لصاً يقطع الطريق على قوافل المسافرين ويسلبهم متاعهم، وكان يحب جارية يتسلل إليها إذا جن الليل ومعه ما جنت يداه من مال حرام.. وذات ليلة بينما يتسلق إليها الجدار سمع هاتفاً من السماء يقول:

«ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله» وتوقف اللص عن الصعود إلى مكمن المعشوقة.

ووجد نفسه يرد على الهاتف: بلى يا رب.. قد آن.

ثم هبط ليمضى بقية الليلة فى خرابة كان يأوى إليها بعض الرحالة، فسمعهم يتكلمون.. فقال بعضهم: لنرحل الآن.. ورد آخرون: لننتظر حتى الصباح فالفضيل على الطريق يقطع علينا.

يروى الفضيل هذه اللحظة الفاصلة من حياته.. فيقول: تفكرت.. فقلت لنفسى: أنا أسعى بالليل فى المعاصى.. وقوم من المسلمين يخافوننى ها هنا.. وما أرى الله سائقى إليهم إلا لأرتدع.. اللهم أنى قد تبت إليك.. وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام.

ويعلق الشيخ عبدالحليم محمود على رواية الفضيل بقوله: لقد سمع الرجل النداء الالهى يدوى فى أعماق نفسه، وسمعه متجاوباً مع التالى للقرآن الكريم.. بل ربما لم يكن هناك تال.. وإنما هو التطلع الكامن فى نفس الفضيل إلى حياة التقوى والفضيلة والطهر النفسى والوجدانى.. وتاب الفضيل توبة خالصة لوجه الله، ولكنه لم يذهب إلى مكة مباشرة، وربما كان ذلك هيبة من البيت الحرام أن يدخله ولم يتأهب لدخوله بعد.. فآثر أن يذهب إلى البيت وهو متسلح – مع الطهر – بالتوبة والعلم، فذهب ليتعلم، ولتكون توبته قائمة على أساس من المعرفة الصادقة، كما هى قائمة على أساس من الشعور النفسى الصادق.

وهل نسيت (رابعة).. الغانية التى كانت تبيع الهوى فى حانات البصرة؟.. فما الذى جعلها رائدة الحب الإلهى فى موكب المسافرين إلى الله؟

إنه النور الذى ينبثق فى قلب العبد كالنبع الطاهر فى الأرض القاحلة.. أو البذرة التى تنبت فى الأرض الخصبة فإذا هى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.. إنه الجوهر المكنون فى قلب الإنسان.. يسعى دائماً إلى العالم الأسمى.. ويحن إلى العالم النورانى ليعود من حيث أتى..

«نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء».

فإذا كنت قد أزمعت الرحيل.. فلا تتردد..

ستسأل من أين يبدأ الطريق؟

وما هى المحطات التى سوف تتوقف عندها؟ والحواجز التى سوف تعبرها؟ والأحوال التى سوف تشعر بها كلما أوغلت فى المسير.

فأعلم يا صاحبى أن الطريق: منهج وسلوك.. والمحطات مقامات تنهل من كل منها زاداً يعينك على الوصول إلى المحطة التالية.. وفى كل محطة سوف تتخلص من أثقال الدنيا وتصبح مؤهلاء للوصول.. وأعلم أن محطة التوبة هى نقطة الانطلاق التى سوف يتحرك منها ركب المسافرين إلى الله.. فلتتزود منها فهى خير زاد.

وإذا كانت التوبة فى عرف الناس هى الاقلاع عن الذنوب والندم عليها، فإنها فى عرف المسافرين إلى الله مراتب تبدأ بالندم على فعل الذنوب، ثم تمضى إلى مرتبة (الانابة) أى الطمع فى ثواب الله وعطائه الفياض الذى يختص به عباده التائبين، ثم ترتقى فى معراج التوبة إلى مرتبة (الأوبة) وهى الحالة التى يبغى فيها المسافر رضاء الله وحبه.. ونصب عينيه قول الله تبارك وتعالى: «وجاء بقلب منيب» وقوله تعالى: «نعم العبد إنه أواب».

ومن شروط التوبة عند الصوفية أن تبتعد فى الحال عن المعاصى وتتجنب المحارم التى حرمها الله ورسوله ثم تصمم بإرادة حرة راسخة وقلب من حديد على ألا تعود إلى هذه المعاصى أبداً.. ولقد فهم الصوفية (التوبة) على أنها صراع داخل النفس البشرية، يحاسب فيها المرء نفسه، فيندم على كل سيئة ارتكبها ويتمنى لو أنها كانت حسنة.. وهذه الدرجة من الوعى تتطلب قلباً صاحياً وضميراً يقظاً، لأن التوبة لا تأتى من خارج الإنسان ولكن تنبعث من داخله، وكل المسافرين إلى الله قالوا إن توبتهم كانت بناء على هاجس داخلى.. كالهاتف الذى سمعه الفضيل بن عياض، وهو يتسلق الجدار، والتوبة بهذا المفهوم هبة من الله، وعطاء يجود به على عبده المؤمن عندما تتراءى له آفاق الطهر، ولهذا قالت رابعة لرجل سألها: هل إذا تبت تاب الله علىّ؟ فقالت له: بل لو تاب الله عليك لتبت.

مقام الورع.. له مراتب

فإذا نجحت في اجتياز هذا المقام، وانطلقت في موكب التائبين النادمين فسوف تتوقف عند المقام الثاني: مقام الورع ويتطلب منك أن تكون دائم الخوف، من الله، تشعر بأنه معك أينما كنت يراقب أفعالك ويحاسبك على كل صغيرة وكبيرة.

والصوفية يحبون المكوث طويلاً في مقام الورع، حتى أنهم يحرمون على أنفسهم كل فعل أو قول أو مأكل أو ملبس يرون فيه شبهة الحرام، ويعملون بتوجيهات الحديث الشريف: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» وكان بعضهم يتورع أن يركب دابته بعد أن رعت في أرض غير أرضه، ويستدلون بورع عمر بن عبدالعزيز حين كان يطفيء السراج (الحكومي) بعد أن يفرغ من النظر في شئون الدولة، ثم يشعل السراج الخصوصي عندما يتفرغ لشئون بيته.. ولهم في الورع أقاصيص وحكايات تمتليء بها كتبهم.. منها أن الحارث المحاسبي كان على طرف أصبعه الوسطى عرق ينبض إذا كان في الطعام شبهة الحرام، ولا تنسى أن المحاسبي[1] (وهو الحارث بن أسد) سمي بهذا الاسم لشدة حسابه لنفسه، ومنها ما يروى عن بشر الحافي الذي دعي إلى حفل، فلما وضعوا أمامه الطعام عجزت يده عن الوصول إليه ثلاث مرات، فقال رجل كان يعرفه: أن يده لا تمتد إلى طعام حرام أو فيه شبهة! ما كان أغنى صاحب الدار أن يدعو هذا الرجل إلى بيته، ويقال عن إبراهيم بن أدهم أنه رفض أن يشرب من بئر زمزم لأنه لم يكن يملك دلوا يشرب منه.

ويصف بعض مؤرخي الصوفية[2] هذا النوع من الورع بأنه يعتمد على القلب، وكأن فيه نوراً فطرياً يهدي صاحبه إلى الحلال ويصده عن الحرام، وهذا الورع لابد أن يسبقه مشوار طويل على طريق التصوف يجاهد فيه الإنسان نفسه وأهواءه وميوله متقرباً إلى الصالحين المقربين ومؤدياً حق الله وواجباته كاملة. وهناك مرتبة من الورع لا يصل إليها سوى العارفين الواجدين الذين يذهبون إلى أن أهل الحق ينبغي أن يبتعدوا كلية عن كل مشاغل الدنيا وهمومها وأن ينتبهوا وينشغلوا فقط بالله وحده، وترى هذه الفئة أن كل شيء يشغل المرء عن ربه محرم عليه فلا ينبغي أن يكون في فكرنا غير الله، وكما يقول أبوبكر الشبلي[3]: الورع أن تتورع ولا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين.

---

(١) فريد زمانه علماً وورعاً وسمي بالمحاسبي لشدة محاسبته لنفسه - بصري الأهل مات سنة ٢٤٣هـ.

(٢) أنظر كتاب دراسات في التصوف الإسلامي والفلسفة للدكتور فيصل بدير عون.

(٣) أبوبكر بن جحور الشبلي كان شيخ بغدادي المولد عاش ٨٧ سنة ومات سنة ٣٣٤هـ.

مقام الزهد

أما المحطة الثالثة فى مقامات الصوفية فهى: الزهد وهو الأب الشرعى للتصوف، وبدونه لا يكون التصوف، وقد قال السراج فى بيان أهمية الزهد أنه أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية وهو أول القاصدين إلى الله عز وجل، فمن لم يكن أساسه فى الزهد، لم يصبح له شيء مما بعده لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة.

وقد توسع الصوفية فى ترسيخ معنى الزهد حتى أصبح حجر الأساس فى الحركة الصوفية، وارتبط بالفقر والانقطاع عن الدنيا وأصبح شبيهاً بحركة الرهبنة التى ظهرت فى المسيحية.. لذلك نجد الباحثين المحدثين يضعون للزهد مفاهيم محددة على أسس إسلامية.. فيقول الدكتور أبوالوفا التفتازانى[1] «للإسلام مفهوم خاص للزهد، فهو ليس رهبانية أو انقطاعاً عن الدنيا، وإنما هو معنى يتحقق به الإنسان، أى يجعله صاحب نظرة خاصة للحياة الدنيا يعمل فيها ويكد ولكنه لا يجعل لها سلطاناً على قلبه، ولا يدعها تصرفه عن طاعة ربه، ولذلك ليس من شرط الزهد فى الإسلام أن يكون مقترناً بالفقر، بل قد يتفق للإنسان الغنى والزهد معاً، وكان عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف من كبار الأثرياء، ولكنهما كان زاهدين فيما يملكان ولم يتوان أى منهما فى الاتفاق على مصالح المسلمين». أما الزهد الصوفى فهو «أن تكون معرضاً عما تملك، لا أن تكون معرضاً عما لا تملك» فإن من لا يملك شيئاً فيم يكون زاهدا؟!

فالزهد فى الإسلام معناه ارتفاع الإنسان فوق شهواته، وهذا معناه أن يتحرر تماماً من كل ما يعوق حركته، وقد قيل لإبراهيم بن أدهم أن اللحم قد غلا سعره، فقال: أرخصوه أى لا تشتروه وأنشد:

إذا غـــلا شيء علىّ تركـــتـــه

فـــيكون أرخص مـــا يكون إذا غـــلا

ويستمد الزهد الإسلامى الصحيح منابعه من السنة فلم يكن الزهد عن النبى وصحابته يعنى انصرافاً تاماً عن الدنيا، وإنما كان الاعتدال أو التوسط فى الأخذ بأسبابها وملذاتها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامي.

تنس نصيبك من الدنيا» وكان الصحابة - نتيجة الزهد أقوياء - فلم يفتتنوا بمال أو جاه، ومن أمثلة ذلك ما يروى عن عمر بن الخطاب من أنه لما حملت إليه كنوز كسرى، نظر إليها وقال: اللهم إنى أعلم أنك تقول فى كتابك الكريم: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» وأمر بوضعها فى بيت المال.

الزهد فى الإسلام - كما يحدد الدكتور التفتازانى - منهج فى الحياة قوامه التقلل من ملذات الحياة والانصراف إلى الجاد من أمورها، فتتحقق بذلك حرية الإنسان المتمثلة فى ارتفاعه فوق شهواته وأهوائه بمحض إرادته، مع قدرته فى نفس الوقت على تحقيق تلك الشهوات، والسير وراء هذه الأهواء، ولكن يمنعه من ذلك إيمان قوى بالله.

وللصوفية أقوال فى الزهد تجرى مجرى الحكم، من ذلك قول الجنيد[1]: الزهد خلو القلب عما خلت فى اليد وقول الشبلى: الزهد غفلة، لان الدنيا لا شىء والزهد فى لا شىء غفلة، ويقول يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.

والزهد عند أقطاب الصوفية مراتب أرقاها زهد العارفين حيث يزهد الزاهد فى زهده، لأنه لو شعر انه زاهد لكان معناه إنه منشغل بشىء غير الحق سبحانه وتعالى، وهذا معنى قول الشبلى فى الفقرة السابقة.

---

(١) أبوالقاسم الجنيد بن محمد أمام الصوفية في القرن الثالث مات ببغداد سنة ٢٩٨هـ.

لا تطلب.. ولا تسأل.. ولا تأخذ

والفقر هو المحطة السريعة فى الطريق: وهو على ثلاث مراتب نسقها اقطاب التصوف على النحو التالى الاولى: ألا تملك شيئا ولا تطلب من أحد شيئا ولا تنتظر من احد شيئا وإن أعطاك أحد شيئا لا تأخذه وهذا مقام المقربين، والثانية: ألا تملك ولا تسأل ولا تطلب ولا تعرض وإن أعطيت شيئا من غير سؤال أخذته، والثالثة: لا مانع من أن تسأل بعض إخوانك ممن تعلم أن ذلك يسره ويفرحه.

وفلسفة الفقر عند الصوفية أساسها أن الله يملك كل شيء وأن العبد لا يملك شيئا فلا ينبغى أن تسأل الناس شيئا لأنهم فى الحقيقة أفقر منك، واذا سألت فلا تسأل الا الله، بل لا ينبغى ان تسأل الله لانه عليم بحالك، وعلمه بالحال يغنى عن السؤال.

وما دامت قد عبرت مقامات التوبة والزهد بنجاح، وتحملت تضحياتها بنفس راضية فقد أصبحت صابرا، والصبر هو المقام الخامس الذى يصل إليه الصوفى بجهده وجلده، وقد وصف ابن عطاء الله السكندرى الصبر بأنه: الفناء فى البلوى بلا ظهور شكوى، وقال بعضهم: الصبر هو الثبات مع الله وتلقى بلاءه بالرحب والدعة.

أما الجنيد فقال: الصبر حمل المؤمن لله تعالى حتى تنقبض أوقات المكروه، ومعنى الصبر عند الصوفية أن تتحمل حكم القضاء والقدر دون تبرم أو شكوى، فلا تسب الدهر ولا تحزن على وقوع المكروه، فكل ما يقع انما يحدث وفق حكمه إلهية لا تعرف الخطأ.

ستقول أن الصبر موقف سلبى يقفه الصوفية من الحياة فيردون عليك بأن المقام السادس على الطريق يعالج هذه السلبية ويعادلها، وهم يعنون مقام التوكل حيث أنه يتضمن الفعل، والاخذ بالاسباب والاعتماد على رضاء الله وتأييده فى نفس الوقت.

وقد تباينت أقوال الصوفية فى معنى التوكل، فقد عرفه بعضهم بانه طرح البدن فى

العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية: فإن أعطى شكر، وإن منع صبر راضيا موافقا القدر، ووصف ذو النون المصرى التوكل بانه: ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة. ويقول آخر: التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد.

والصوفية يفهمون التوكل على أن يكون العبد بين يدى الخالق كالدمية التى لا تملك لنفسها شيئا ولا تتحرك من ذاتها بل تتوقف حركتها على من يحركها فيقول التسترى[1]: ان مقام التوكل عند الصوفية هو ذلك الذى يكون فيه العبد بين يدى الله كالميت فى يد الغاسل يقلبه كيف شاء، بحيث لا تكون له حركة أو يكون له تدبير من نفسه، والتوكل بهذا المعنى هو عدم الاهتمام بشىء البتة، إنه لا مبالاة خالصة بالعالم الأرضى.

على أن هناك من الصوفية من ذهب إلى أن التوكل على الله ينفى سعى الصوفى الى تحصيل رزقه فقد ذكر الامام القشيرى:[2] «ان التوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد ان التقدير من قبل الله تعالى، إن تعسر شىء فبتقديره فبتيسيره» والرسول نصح الرجل الذى ترك دابته وتوكل على الله، فقال له: «اعقلها وتوكل»، أى أن الرسول يدعونا إلى الأخذ بالأسباب والسعى إلى الاجتهاد مع الاعتماد على الله وطلب التوفيق منه.

أما المقام الأخير من مقامات الصوفية فهو مقام الرضا وهو المقام الذى يبدى فيه العبد رضاه على قضاء الله وقدره من غير تكلف أو قنوط.. وقد وصفه الصوفية بأنه «سرور القلب بمر القضاء». وتقول رابعة: ان العبد يكون راضيا اذا سرته المصيبة كما سرته النعمة» وقال ابن رويم: الرضا استقبال الاحكام بالفرح. وقال المحاسبى: الرضا سكون القلب تحت مجارى الاحكام، وهى أقوال تشير إلى قبول العطاء الإلهى أيا كانت صور هذا العطاء، وقبول المنع الالهى أيا كانت صور المنع.

(١) أبومحمد سهل بن عبدالله التسترى أحد أعلام الصوفية فى القرن الثالث الهجرى، حفظ القرآن وسنه سبع سنين، لقى ذا النون المصرى فى الحج. توفى سنة ٢٨٣هـ.

(٢) الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم عبدالكريم القشيرى وهى المرجع الأساسى فى تاريخ أعلام الصوفية الأوائل.. ووضع كتابه سنة ٤٣٧هـ.

الفناء فى الله.. المحطة الاخيرة

هذا هو الطريق الذى يسلكه المسافرون إلى الله، وهو طريق-كما رأيت- يستخدم منهج الترقى الاخلاقى، وتصفية النفس من أجل الوصول إلى تحقيق قيم اخلاقية رفيعة مما يستتبع مجاهدات بدنية ورياضيات نفسية تمثلت فى تلك المقامات التى ينبغى على سالك الطريق أن يسلكها حتى يصل الى المرتبة النهائية.. أو المحطة الأخيرة.. وهى الفناء.

والفناء من الأمور التى تشغل جزءا كبيرا من الفكر الصوفى، وكانت سببا فى اثارة الغبار من حولهم والتشكيك فى سلامة عقائدهم، وأدت إلى الحكم بقتل بعضهم واضطهاد البعض الآخر.. وليكن واضحا من البداية أن كل مؤرخى الصوفية أجمعوا على أن (الفناء) هو الغاية النهائية لكل من سلك سبيل التصوف. وإن اختلفت التفاسير حول معنى الفناء بحسب تطور الحركة الصوفية وتأثرها بالمؤثرات الخارجية.

ولكى يزداد الأمر وضوحاً نقول إن تعبير الفناء مرتبط بتعبير آخر هو البقاء[1].

فالصوفى فى عبوره طريق التصوف لابد أن ينتهى إلى الفناء والبقاء معاً. والمقصود بالفناء:

* ان يفنى العبد، أى يتخلص من صفاته الفانية الذميمة التى ترتبط بالبدن وتخضع له أن عليه أن يتخلص من ناسوتيته.

* وبعد أن يفنى عن صفاته المذمومة فإن عليه أن يفنى فى الذات الالهية ويتوحد معها لأنه قد فنى عن الحجب التى كانت تمنعه من هذا الفناء.. وهذا الفناء لا يتم إلا من خلال البقاء.

---

(١) دراسات فى النصوص الإسلامى والفلسفة - المرجع السابق ص١٣٠.

والبقاء له أيضاً معنيان:

* أن يبقى الصوفى على الصفات والخصال الحميدة التى تمكنه من الوصول والاتصال، وهذه الصفات ترتبط بالنفس المطمئنة.

* والمعنى الثانى: هو أن يسعى الصوفى - بعد أن فنى فى الذات الالهية - إلى البقاء فيها وبها وأن يحيا فيها وبها وألا يفارقها البتة.

وتلك غاية الغايات عند الصوفى:

ولتأكيد مشروعية (الفناء) واستخراج سند لها من القرآن الكريم، يسدتل القشيرى بقصة النسوة اللائى قطعن أيديهن لما شهدن جمال سيدنا يوسف لقد فقدت كل منهن احساسها بما حولها ولم تشعر بالسكين وهى تقطع يدها.

«فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن» فلم تشعر بالألم «وقلن حاش لله ما هذا بشرا» ولقد كان يوسف عليه السلام بشراً، وقلن: «إن هذا إلا ملك كريم» ولم يكن ملكاً، ثم يقول القشيرى: فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق، فما ظنك بمن تكاشف بشهود الحق عز وجل، فلو تغافل عن احساسه بنفسه وبأبناء جنسه.. فأى أعجوبة فى ذلك؟!

ويحاول الدكتور التفتازانى أن يقرب معنى الفناء فى أذهاننا بلغة علم النفس الحديث فيقول إن حالة الفناء هى الحالة الوجدانية التى يفقد فيها الشخص مؤقتاً شعوره بالأنا - أى ذهاب الحس والوعى - فلا يعود الصوفى يحس بشىء من جوارحه ولا بنفسه ولا بالعالم الخارجى.

وكيف يتفق هذا الغياب مع ضرورة بقاء الوعى حتى لا يتنصل الصوفى من أداء التكاليف الشرعية من صوم وصلاة وحج؟

هنا يتنبه الصوفية فيقولون إن الفناء حال عارض لا يدوم للصوفى.. لأنه لو دام لتعارض مع أداء الفروض، ومع ذلك فإن بعض الصوفية لا يلتزمون بهذا التحذير وإنما يتطرفون فى حالة الفناء حتى تزل أقدامهم ويخرجوا بآراء تخالف العقيدة الإسلامية تعرف فى تاريخ التصوف باسم (الشطح) ومن هؤلاء أبويزيد البسطامى والحسين الحلاج.

ومن الصوفية الذين قالوا بالفناء دون أن يشتطوا أو تزل أقدامهم.. أبوالقاسم الجنيد الذى تكلم عن الفناء كلاماً لا يخرج عن مقتضى الكتاب والسنة. فهو القائل: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق

الخيرات كلها مفتوحة عليه، والتوحيد الحقيقى عند الجنيد: ثمرة الفناء عن كل ما سوى الله، فيقول: التوحيد الذى انفرد به الصوفية هو إفراد القدم عن الحدث، والخروج عن الأوطان، وقطع المحاب (أى ما يحبه الإنسان) وترك ما علم وجهل. وأن يكون الحق سبحانه مكان الجميع.

وهذا التوحيد عن الجنيد هو توحيد الخاصة ويصفه بأنه «يكون العبد شبحاً بين يدى الله عز وجل تجرى عليه تصاريف تدابيره، وهذا لا يكون إلا بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له. بذهاب حسه وحركته لقيام الحق له فيما أراد منه، وبهذا الفناء فى التوحيد يتحقق للصوفى الخروج من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية».

هؤلاء الذين شطحوا

والصوفية الذين غلبت عليهم أحوال السكر والفقد والفناء والذين شطحوا بعبارات متطرفة اختلفوا حول وسيلة الفناء، فالبسطامى اتخذ سبيل (الاتحاد) بالله والحلاج اتخذ سبيل (الحلول) أى حلول الذات الإلهية فيه.

ويقدم لنا العلامة الإنجليزى نيكلسون بعض العبارات التى نسبت إلى البسطامى والتى تكشف عن مذهبه فى الفناء مثل:

* للخلق أحوال، ولا حال للعارف - لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره - وغيبت آثاره بآثار غيره.
* خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فى: يا من أنت أنا، فقد تحققت بمقام الفناء فى الله.
* منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتى، فصرت اليوم مرآة نفسى، لأننى لست الآن من كنته.
* إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى.. سبحانى ما أعظم شأنى.
* خرجت من بايزيديتى كما تخرج الحية من جلدها، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد، لأن الكل واحد فى عالم التوحد.

ويعلق نيكلسون على ذلك فيقول إن البسطامى واتباعه قد ظهروا بين الناس فى القرن الثالث الهجرى باقوالهم وأفعالهم بمظهر من سكروا بحب الله فلم يفيقوا من سكرهم.

وهنا يجب أن نفرق بين نوعين من التصوف شهدهما تاريخ الاسلام ابان عصر الفتوة الصوفى. (القرنين الثالث والرابع الهجريين) اما النوع الاول فهو التصوف الذى لم يخرج عن نطاق الكتاب والسنة. ويمثله فى هذا العصر المبكر ابو القاسم الجنيد رغم قوله

بالفناء الا انه لم يخرج عن اطار الشريعة.. وعلى منواله سار اقطاب التصوف فى العصور اللاحقة وعلى رأسهم الغزالى وأبو الحسن الشاذلى.

اما النوع الثانى من التصوف فهو الذى تأثر بالنظريات والفلسفات الاجنبية التى أخذت سبيلها الى العقل الاسلامى بعد حركة الترجمة الكبرى فى العصر العباسى، وخاصة افكار المدرسة الافلاطونية المحدثة والتى كانت واضحة البصمات على متصوفة ذلك العصر. وتتضح كذلك فى تسرب الافكار اللاهوتية التى ظهرت فى نظريتى الاتحاد والحلول. اللتين نادى بهما عدد لا يستهان به من المتصوفة، ومع ذلك فان حالة (الشطح) التى منى بها هذا الفريق من المتصوفة تجد من يبررها تبريرا صوفيا. فيقول الطوسى ان الصوفى فى حالة الشطح مغلوب على امره تماما ولذلك فهو معذور فيما يصدر عنه فى هذه الحالة من عبارات، ويضرب مثالا بالماء الكثير اذا جرى فى نهر ضيق فانه يفيض من حافتيه فالصوفى إذا لم يطق حمل ما يرد على قلبه نطق بعبارات مستغربة مشكلة على فهم سامعها، وعلى السامع أن يسأل عنها من يعلم علمها ولا يسارع إلى الانكار.

** ارأيت إلى أى مدى بدأ التصوف كنزعة اخلاقية تهدف الى رقى الانسان وانتهى نهاية فلسفية تحير العقول والألباب!!

المصادر الاجنبية للتصوف

حول هذه الملاحظة يقول الإمام الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق: كان التصوف طريقا من طرق العبادة يتناول الاحكام الشرعية من ناحية معانيها الروحية وآثارها فى القلوب، فهو يقابل علم الفقه الذى يتناول ظواهر تلك العبادات ورسومها.

ثم انتقل التصوف فأصبح طريقا للمعرفة يقابل طريق العرفان من انواع المجاهدات وما ينشأ عنها من الأذواق والمواجد التى هى المقامات والاحوال، وقد جدت للقوم (الصوفية) عبارات يدلون بها على ما اكتشفوا من دقائق المعانى فضمنوا علمهم شرح هذه الاصطلاحات، وكثرت اسماء هذا العلم فسمى علم القلوب، وعلم الأسرار، وعلم المعارف وعلم الباطن، وعلم الاحوال والمقامات، وعلم السلوك وعلم الطريقة وعلم المكاشفة.

ويختتم الشيخ مصطفى عبد الرازق ملاحظته تلك بالرد على مقالة بعض المستشرقين بأن التصوف الاسلامى رضع من اللبان الهندية واليونانية، فيقول الشيخ عبد الرازق: ان كان من غير المنكور ان التصوف فى هذا الدور (القرن الثالث) لم يخل من بعض ما وصل الى المسلمين من معارف الامم القديمة، فانا لا نزال نجد الصبغة الاسلامية غالبا فى هذا العهد الوليد.

ومع ذلك لا ينكر الشيخ مصطفى أن المتأخرين من الصوفية تأثروا بمذاهب الاسماعيلية الذين نهلوا بدورهم من مناهل افلاطونية وغيرها.

ويقول فى ذلك: ثم انصرفت عناية قوم من المتأخرين لكشف حجاب الحس الذى هو نهاية مراتب الصوفية، ولما وراء ذلك من المدارك والمعارف واختلفت طرقهم فى الرياضة والمجاهدة وإماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالعبادات والذكر، وتعرضوا للكلام

فى حقائق الموجودات العلوية والسفلية على وجه لا يفهمه من لم يشاركهم فى اذواقهم ومواجدهم، ثم قالوا ان اهل المجاهدة يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها، ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم فى الموجودات السفلية، وتصير طوع ارادتهم وتوغلوا فى ذلك كله متأثرين بمذاهب الاسماعيلية، وأختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم، وظهر فى كلام المتصوف القول بالقطب ومعناه رأس العارفين، وهو بعينه ما تقوله الرافضة، وبلغ تأثرهم بهذه المذاهب المفرطة من مذاهب التشيع انهم لما أرادوا أن يجعلوا لباس خرقة التصوف أصلا لطريقتهم رفعوه إلى على بن ابى طالب رضي الله عنه .

والواقع ان حركة التصوف الاسلامى من القضايا التى شغلت حركة الاستشراق الاوربى واستحوذت على اهتمام عدد من كبار الباحثين على رأسهم ماسينيون الفرنسى، ونيكلسون الانجليزى الذى قدم دراسات عميقة فى اصول التصوف الاسلامى لا تزال مرجعا لكل الباحثين فى هذا الميدان الوعر، وحاول ان يبحث عن الجذور الاجنبية لفكرة الفناء التى أخذ بها متصوفة القرن الثالث. وانتهى الى وجود جذور بوذية وهندية للفكرة التى ترى الفناء محوا للصفات الذميمة وتثبيتا للخلق الحميدة ورأى أن أصحاب فكرة (وحدة الوجود) استمدوا فكرتهم من (الفيدانتا) الهندية[1] ويستدل على ذلك بأن بعض اقطاب الصوفية الاوائل-الكرخى والبسطامى-ينحدرون من اصول فارسية قديمة.

---

(١) الفيدا: كتاب آرى مقدسى وهو مكتوب باللغة السنسكريتية ويشتمل على أوراق تعبدية وأناشيد دينية ورقى سحرية، ويرجع تاريخ هذه المدرسة إلى القرن الخامس الميلادى ويعد مذهبها أكثر المذاهب تصويراً للديانة البرهمية. ثم تحول هذا المذهب إلى فلسفة نظرية فى وحدة الوجود بحيث تقرر أن (براهما) فى كل شىء.. وأن كل شىء فى (براهما).. ويرى بعض المستشرقين أن أفكار الفيرا تسربت إلى التصوف الإسلامى فى فكر الحلاج والبسطامى والجنيد.. (من كتاب الحياة الروحية فى الإسلام للدكتور محمد مصطفى حلمى).

التصوف الإسلامى
أصيل.. أم دخيل؟

من أبرز سمات الصوفى.. انه حليم صبور.. نادرا ما يثور أو يغضب، إلا أن صبره ينفد إذا سألته: هل التصوف أصيل فى الاسلام.. أم دخيل عليه؟ وحلم الصوفى يتبخر اذا طالبته بالدليل على صحة نسب التصوف للاسلام، فالسؤال فى حد ذاته يحمل نبرة الشك فى علاقة يراها الصوفية فوق الشك والشبهات، ويلقى بظلال الريبة على طهارة المنابع التى يغترف منها الصوفية.

فمن قائل انها منابع هندية أو بوذية او ماجوسية أو يونانية. ومن قائل إن التصوف الأسلامى امتداد للحركة الروحية التى عرفتها الأديان السابقة على الأسلام: اليهودية والنصرانية.. ومن قائل إن التصوف بدعة محدثة فى الدين ليس له أصل فى الكتاب والسنة، فكلمة «التصوف» لم ترد فى القرآن الكريم ولم تظهر فى قاموس الحياة الاسلامية إلا بعد قرنين من ظهور الاسلام بل إن تعبير «الزهد» وهو المرحلة التمهيدية لحركة التصوف- لم ترد فى القرآن الكريم إلا فى موضع واحد وفى مناسبة لا تفوح منها رائحة التصوف، وهى مناسبة بيع سيدنا يوسف بعد أن اخرجه الرحالة من الجب (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين).

ولم يعرف عن النبى (ﷺ) أو أحد من صحابته الكرام، نزوع إلى التصوف بالصورة التى ظهرت فى عهود لاحقة، صورة الانقطاع عن الدنيا أو تحريم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق وقد حسم الرسول موقف الاسلام من هذه القضية من خلال الحديث المشهور (لا رهبانية فى الإسلام). وخصوم التصوف لا يعدمون كل سلاح يشهرونه فى وجه الصوفية وتجريحهم واتهامهم باهمال الشريعة وابطال التكاليف، إحداث

أساليب غامضة غير ثابتة ولا محددة ولا تخضع لمقاييس العقل والحساب، حتى اشاعوا انهم زنادقة.. ومجاذيب.. ومجانين.. ونسبوا إلى الأمام الشافعى قوله: ما لزم أحد- الصوفية أربعين يوما- فعاد عقله إليه أبدا، وقوله ان رجلا تصوف أول النهار لا يأتى الظهر حتى يصير أحمقا.

والصوفية يسمعون هذه الاتهامات، ولا يملكون حيالها ردا ولا دفعا، فالحب والتسامح والصبر على المكاره بعض شيم الصوفية، ولذا آثروا الصمت، وانصرفوا إلى أحوالهم ومواجيدهم، ولم تتملكهم الرغبة فى الجدل، لان الجدل فى رأيهم يهدى إلى المماراة وتغليظ القلوب والانتصار للنفس على حساب الحق، ويصرفهم عن معركتهم الأساسية: معركة الحياة الدنيا والتغلب على الشهوات، والسمو إلى عالم الصفاء والخلق الرفيع.

شهادة ابن خلدون

وربما كان هذا الموقف السلبى من جانب الصوفية إزاء السهام التى تتناوشهم، هو الذى دفع عددا من المؤرخين إلى الانتصاف لهم، وتوضيح مقاصدهم، وإثبات صحة نسبهم إلى الإسلام فى صورته الروحية النقية الخالية من الشوائب والرغبات الدنيوية.

ويقف العلامة ابن خلدون على رأس هؤلاء الباحثين الذين تصدوا للفكرة التى تقول: إن التصوف دخيل على الإسلام بدليل أن أحدا من صحابة رسول الله لم يكتسب هذا الوصف، ومن ثم يصبح التصوف بدعة دخيلة على الإسلام، يناقش ابن خلدون هذه المقولة مناقشة تحليلية ومنطقية، فيرى ان الإقبال على الدين والزهد فى الدنيا كان غالبا على المسلمين فى صدر الاسلام، فلم يكونوا فى حاجة إلى وصف يمتاز به أهل التقى والعكوف على الطاعات والانقطاع إلى الله، ولم يتسم افاضلهم فى الجيل الأول بتسمية سوى: صحبة رسول الله، إذ لا افضلية فوقها، فقيل لهم (الصحابة) ولما أدركهم الجيل الثانى سمى من صحب الصحابة (بالتابعين) فلما فشا الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده-وجنح الناس إلى مخالطة المتاع الدنيوى، قيل للخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين (الزهاد والعباد) ثم ظهرت الفرق الاسلامية فادعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعبادا.

هنالك انفرد خواص أهل السنة المقبلون على العبادة باسم (الصوفية والمتصوفة)

واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين.

وشهادة ابن خلدون تعنى ان عدم شيوع لفظ الزهد أو التصوف فى عهد الصحابة والتابعين، ليس دليلا على انعدام النزعة الروحية بين المسلمين فى العهد الباكر، فقد كان هنالك زهاد وعباد دون حاجة منهم إلى اكتساب وصف ما، اعتزازا منهم بوصف الصحبة لرسول الله، أو وصف التبعية لصحابة رسول الله.

ونحن فى عصورنا الحديثة نطلق لقب (حاج) على من أدى فريضة الحج، وهو وصف محدث ومصطنع، ولا تعنى حداثته ان الحج لم يكن معروفا قبل عصرنا .. أو أنه لم يكن هنالك حجيج قبل أن يتسرب هذا الوصف إلى لغة التخاطب بين المسلمين المعاصرين.

وإذا كان وصف «الزهاد» و «الصوفية» لم يرد فى القرآن الكريم فقد وردت عشرات الأوصاف التى تحمل نفس المعنى، وتؤدى إلى نفس الغرض وتحث المؤمنين على ارتياد الجانب الروحى والاغتراف من مناهل الطهر والعفة والتجرد، فقد تحدث القرآن عن الصادقين والصادقات، والقانتين والقانتات، والتائبين والتائبات، والخاشعين والخاشعات، والسائحين والسائحات، وتحدث عن الموقنين والمخلصين والمحسنين والخائفين والمخبتين والعابدين والمتوكلين والمتقين والأبرار والمقربين والمصطفين الأخيار.. الخ.

فماذا يعنى كل ذلك غير الدعوة الصريحة إلى تطهير النفس من الرذائل والمعاصى والارتفاع بها عن الدنيا وترقيتها روحيا وماديا، وإذا كان الأمر بهذا الوضوح، فلماذا نعيب على رواد الصوفية إذا هم استنبطوا من آيات القرآن الكريم منهجا خاصاً فى التعامل مع الحياة الدنيا، وأسلوبا مميزا فى مجاهدة النفس وترويضها ومحاسبتها حسابا دقيقا..؟ ألم يتحدث القرآن عن النفس اللوامة.. والنفس الأمارة بالسوء.. والنفس المطمئنة..؟ ألم يحذر من الانسياق وراء شهوات النفس لأن النفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع..؟ ألم يخبرنا القرآن بأن متاع الدنيا قليل.. وإن المتاع الحقيقى هو متاع الآخرة؟ ألم يحثنا القرآن على الحب الالهى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(١).. وهل خلت سورة من الدعوة إلى التقوى والورع والخوف والرجاء..؟ وهل يقتات الصوفية بغير ثمار الورع والخوف والرجاء..!

(١) سورة المائدة آية رقم: ٥٤.

تهمة الابتداع فى الدين

الا أن خصوم التصوف يغضون الطرف عن كل هذه الأسانيد، ولا يرون فيها مبررا شرعيا لقيام طائفة أو فرقة من المسلمين، لها مفهومها الخاص للدين، ولها منهجها المميز فى السلوك والتصرفات، فالزهد والورع والتقوى وباقى القيم الرفيعة ليست حكرا على طائفة بعينها ولكنها قيم مشاعة ينبغى على كل مسلم أن يتمسك بها.

ومن ثم ينتقل خصوم الصوفية إلى اتهامهم بالابتداع فى الدين، والتحلل من التكاليف تحت ستار الوصول، وانتهاج مسلك خاطىء يعتمد على الخواطر والانواق والمواجيد القلبية.. فانتهى بهم إلى الهذيان بعبارات غريبة شاذة تصادم عقيدة التوحيد وتخلط بين الصفات الالهية والصفات البشرية، وهو ما يعرف فى تاريخ التصوف باسم (الشطح).

وكان هذا الاتهام يصدر من جانب الفقهاء-حراس الشريعة الأقوياء الذين يرون الدين نظاما تحكمه مجموعة من القوانين والأحكام، فمن خرج عنها قتله سيف الشرع.

والمعركة بين الفقهاء والفقراء قديمة.. شهدتها شوارع البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد ودمشق.. وربما انتقل العراك الى ساحات المحاكم الشرعية وغالبا ما كان ينتهى بغلبة الفقهاء وهزيمة الفقراء.

الحلاج صلب على ضفاف دجلة بعد أن قال: أنا الله وأنا الحق وسبحانى ما أعظم شأنى!

والسهروردى حبس فى قلعة حلب حتى الموت لانه قال: أن الله قادر على ان يخلق نبيا جديدا. ولم يفرق بين الممكن فى حد ذاته. والممكن الذى أخبر القرآن بانه لا يقع.

وابن عربى مزقه أهل دمشق اربا بعد أن سمعوه يقول لهم: انتم وما تعبدون تحت

قدمى هذين[1] وكان يقصد أنهم يعبدون المال. وذو النون المصرى سيق مكبلا فى الحديد من الفسطاط إلى بغداد ليحاكم بتهمة السحر والشعوذة.. وكاد يقضى بقية حياته فى السجن لولا بعض السادة الذين توسطوا له عند الخليفة المتوكل فعفا عنه[2].

ولكن هل كان كل الفقهاء أعداء الصوفية..؟ بالطبع لا.. فبعض كبار العلماء فهموا التصوف على حقيقته فلم يقفوا منه موقف العداء والتربص وقد تعجب إذا عرفت ان ابن تيمية كان واحد من هؤلاء الفقهاء الذين وضعوا الأمور فى نصابها وكشفوا عن العلاقة الحميمة بين التصوف والفقه، ولكن ستزول دهشتك إذا عرفت أن هذا الإمام العظيم لم يكن متحجر القلب كما تحاول الدراسات الحديثة أن تصفه، وإنما كان يخفى بين جوانحه قلبا رقراقا وروحا صوفية عذبة.. لقد كان يرى أن علم الشريعة ينقسم إلى قسمين: علم يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة التى تجرى على الجوارح والاعضاء الجسمية، وهى العبادات كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم.. الخ وأحكام المعاملات كالحدود والزواج والطلاق والعتق والبيوع والقصاص وسمى هذا العلم الفقه وهو مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا فى العبادات والمعاملات.. أما القسم الثانى من علم الشريعة فهو يدل على الأعمال الباطنة ويدعو إليها والأعمال الباطنة هى أعمال القلوب، وسمى هذا العلم علم التصوف، وسمى المتصوفون أنفسهم أرباب الحقائق وأهل الباطن وسموا من عداهم أهل الظاهر والرسوم.

والجانب الصوفى فى شخصية ابن تيمية امتد الى تلميذه العريق-الامام ابن القيم- الذى أنشأ فى التصوف كتابا بديعا أسماه (مدارج السالكين) تحدث فيه عن خطرات القلب والضمير.. وشرح فيه المقامات والأحوال.. ونهج نهج استاذه فى كشف الصلة بين التصوف والفقه، فقال عن التصوف انه مبنى على الإرادة وهى حركة القلب ولهذا سمى علم الباطن، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سمى علم الظاهر.

فهل يصح، بعد هذه الشهادة التى أدلى بها اثنان من أئمة الشرع، القول بأن التصوف وسيلة للتحلل من التكاليف الشرعية؟! لنستمع إلى شهادة ثالثة، فى نفس الموضوع، ولكنها فى هذه المرة من أحد أقطاب الصوفية، هو الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود الذى يستشهد بأقوال الجنيد:

(١) حول مقتل ابن عربى: راجع كتاب (تاريخ الفكر العربى) للدكتور عمر فروخ، ولم أعثر على مصدر آخر يؤيد مقتل ابن عربى. وابن عربى من مواليد الأندلس سنة ٥٦٠هـ وما بدمشق سنة ٦٣٨.

(٢) ذو النون المصرى أول صوفى مصرى، وهو من أخميم وعرف بالزهد والعزلة واحتراف الكيمياء اتهم بالزندقة وسيق إلى بغداد أيام الخليفة المتوكل. ولكنه أعيد إلى مصر معززاً ومات بها سنة ٢٤٥هـ.

* من لم يحفظ القرآن. ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الامر (التصوف) لان علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

* مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة.

* علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ .

ويعقب الشيخ عبد الحليم محمود على ذلك فيقول: وهذا النهج: من اتخاذ الشريعة أساسا ورائدا هو نهج التصوف الصادق.. إن التكاليف الدينية تتكالف للوصول بالمسلم إلى درجة المقربين، إلى التوحيد، إلى أشهد أن لا إله إلا الله، والصوفى ناظر ببصره وببصيرته إلى هذه الغاية. وإلى الأسس الاسلامية التى تؤدى إليها، يعمل جاهدا للوصول إلى الغاية السامية التى أحبها الله للمسلم، والهدف الأخير للمسلم أن يصل إلى الشهادة، فيكون من أولى العلم، ومن المقربين، ومن السابقين.

هل صحيح أن التصوف الإسلامى مستورد ؟

وتهمة الابتداع فى الدين والتحلل من التكاليف الشرعية، ليست آخر التهم التى توجه إلى التصوف-وإن تكن أخطرها-فهناك تهمة الاستيراد من مصادر أجنبية، وهو أتهام ينزع عن التصوف بنوته للإسلام، وينزع عن الإسلام قدرته على إقامة بناء روحى على مستوى الفرد أو الجماعة، وكان المستشرقين (فضل) ترويج هذه المزاعم التى استقرت فى مباحث الفلسفة وأجهدت نفسها لإثبات أصول غير إسلامية لحركة التصوف وأجهدت نفسها لإثبات أصول غير إسلامية لحركة التصوف الإسلامى.. وقبل أن نكشف الغطاء عن أخطار هذه الفكرة نحب أن نلقى الضوء على نقطة جوهرية.

لا يوجد خلاف بين علماء الاسلام ومؤرخى التصوف، على أن تيار التصوف صبت فيه روافد خارجية، شأنه فى ذلك شأن العلوم والمذاهب والأفكار التى ازدهرت فى العصر الذهبى للحضارة الاسلامية. فأثرت وتأثرت. واخذت واعطت. حدث ذلك فى مرحلة الفتوة والشباب.

** لا خلاف على ذلك.

ولكن الخلاف هو فى تحديد هوية التصوف: هل نشأ إسلاميا.. أم أنه ابن غير شرعى لخليط من العقائد والمذاهب والأديان القديمة؟

هنا نقطة الخلاف.. وخطورتها أن المستشرقين وهم يبثون هذه الأفكار إنما يسعون إلى نزع صفة الأصالة عن الاسلام.. وإظهاره فى صورة توفيقية أو تلفيقية من نزعات شتى وعقائد متفرقة.

فالمستشرق اليهودى جولد تسيهر يستكثر على الإسلام أن تتولد فى أحضانه نزعة

للزهد والتصوف.. ويحكم أن الإسلام تصيدها من الهنود، وذهب مجموعة من المستشرقين أن التصوف في نشأته كان مسيحيًا.. وأنه امتداد لرسالة المسيح فى العالم الاسلامى.. وقال بعضهم إن التصوف رضع من اللبان الديانات الفارسية والبوذية.. وراح آخرون يلتمسون للتصوف الاسلامى أصولا فى الثقافات اليونانية كالأفلاطونية المحدثة..!! أما التربة الاسلامية فلم تكن صالحة-فى زعمهم لإنبات حركة روحية..!

ماذا تعنى هذه الأحكام الجزافية التى صدرت تحت شعار الموضوعية والأمانة العلمية؟ ووجدت من ينبهر بها، ويروج لها فى مجامع الثقافة الاسلامية دون أن يفطن إلى مجافاتها للموضوعية وافتقارها إلى الأمانة العلمية؟ ولو صح أن مباحث الأوروبيين تتسم بالدقة والأمانة والموضوعية ـ لما تجاهلت الظروف البيئية التى هى الأساس فى نشوء أية فكرة. وبغيرها لا تستطيع أية مؤثرات خارجية ـ مهما بلغت قوتها ـ أن تخلق فكرة من العدم.

لقد فطن فيلسوف الاسلام الكبير محمد إقبال إلى هذا المبدأ الأصيل فى مناهج البحث الفكرى فانتشأ يقول: ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهرة فى بيئة ما إلى عوامل خارجية عنها، فنهل بذلك العوامل الداخلية، إن أية فكرة من الأفكار ذات قيمة لا يكون لها سلطان على نفوس الناس إلا إذا كانت تمت إليهم بصلة، فإذا جاء عامل خارجى-أيقظها- ولكنه لا يخلقها خلقا.

هذا هو صوت العلم الإسلامى-كما أعلن محمد إقبال- فى أرقى مناهجه: أن نعيد الظاهرة إلى أصولها المحلية والبيئية قبل أن نتصيد لها مؤثرات خارجية لمجرد الرغبة فى وأد الحقيقة واصطناع مفاهيم مزيفة تحت ستار البحث العلمى، وحول نفس الموضوع يقول الدكتور أبو العلا عفيفى[1] لقد قال المستشرقون ان التصوف الاسلامى أصله خارجى، ونسوا أن أية ظاهرة عقلية وأى تطور عقلى فى أمة-لايكون لهما معنى، ولا يفهمان إلا على ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التى عاشت فيها هذه الأمة قبل ظهور تلك الظاهرة.

وأبسط مبادىء البحث العلمى أن نلقى نظرة فاحصة على المجتمع الاسلامى وقت نشأته لنبحث عن مدى استعداده لظهور حركة روحية متميزة ومنبثقة من عقيدته الدينية الخاصة. وهدف البحث ليس فقط الدفاع عن التصوف وإثبات بنوته الشرعية للاسلام.. بل الدفاع عن الاسلام نفسه والتصدى لتلك الدعوات الخبيثة التى تسعى إلى تقطيع أوصاله، وإلحاق كل قطعة منه بنسب إلى عقيدة قديمة أو ديانة سابقة.

(١) مقدمة كتاب (فى التصوف الإسلامى) للعلامة الإنجليزى رينولد نيكلسون.

مهمة التصدى لأقوال المستشرقين

إن مهمة التصدى لأقوال المستشرقين ومناقشتها وتحليلها، ليست من السهولة بمكان، إنها تتطلب جهدا خارقا لرصد هذه المقولات سواء فى مظانها الأصلية، أو فى كتابات المسلمين، بعد أن ذاعت وشاعت، وتتطلب ثانيا إيمانا حقيقيا بقيمة الفكر الاسلامى كمعبر عن روح الحضارة الاسلامية، إيمانا يعتمد على الحقائق الموضوعية وليس الحماس الاجوف أو الانحياز العاطفى، وتتطلب ثالثا تتبع اللبنات الأولى التى قام عليها البناء العقلى والفلسفى فى الاسلام، للكشف عن الطابع المميز لهذا البناء، وكيف أن النزعة الصوفية انبعثت من أمة ذات خصائص معينة وتختلف عن النزعة المنبعثة من أمم أخرى لها خصائصها.

فمن يقوم بهذا العمل الجليل غير العلماء المتخصصين فى هذا الفرع الدقيق من فروع المعرفة الإنسانية، وهنا لابد أن نشير إلى الدراسات العميقة التى قام بها-فى رحاب الأزهر-الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود، الذى جمع بين التصوف العملى والفلسفى، التى أرسى قواعدها الشيخ مصطفى عبد الرازق، وقت أن كان يقوم بتدريس الفلسفة الاسلامية فى الجامعة المصرية القديمة، ثم امتدت فروعها إلى كافة الجامعات المصرية والعربية، وكان أبرز نتاجها فى جامعة الاسكندرية على يد الدكتور على سامى النشار. لقد عكف هذا العالم الكبير على دراسة الفلسفة الاسلامية فى طور نشأتها، وكم كان جهده رائعا فى الكشف عن أصالة الفكر الفلسفى فى الأسلام، وتخطئة الفكرة التى جعلت من الفكر الاسلامى ذيلا للثقافات الأجنبية، وكان ظهور كتابة الضخم (نشأة الفكر الفلسفى

فى الاسلام) بمثابة نقطة تحول فى تقويم الفلسفة الاسلامية ووضعها فى مكانها الصحيح من حيث الأصالة والرسوخ.. والذين يهمنا -ونحن بصدد التصدى لمزاعم المستشرقين حول أصالة التصوف الاسلامى- أن نعرض لمنهج الدكتور النشار فى تحليل هذه المزاعم وكشف بطلانها.

يبدأ الدكتور النشار بعرض النتائج المتسرعة التى انتهى إليها المستشرق اليهودى جولد تسيهر، من أن «الفكرة الدينية المسماة بالزهد التى صادفت الاسلام، والتى لا تتفق مع السمات التى نعرفها فى التصوف الاسلامى -تكشف عن آثار قوية تدل على تسرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود الى الاسلام».

هكذا.. ببساطة شديدة نزع جولد تسيهر عن الاسلام استعداده لتقبل فكرة الزهد.. فإضطر المسلمون إلى استعارة هذا المثل الأعلى من العقائد الهندية! فكيف تسنى لباحث فى الأديان أن ينكر على الاسلام وجود فكرة الزهد فيه؟ يجيب الدكتور النشار على هذا التساؤل فيقول: من العجب أن ينكر مفكر على دين -أى دين كان- انبثاق فكرة الزهد فى تعاليمه، حتى ولو كان هذا الدين حسيا ماديا كالدين اليهودى، أنا لا أنكر -كباحث فى تاريخ الأديان- حتى على اليهودية وجود جانب زهدى وصوفى، ووجود زهاد صوفية فيها، ولكن جولد تسيهر وقد أعماه التعصب المقيت على الإسلام، يرى أن كل ما فيه من روحية، إنما هى مستمدة إما من اليهودية والمسيحية، وإما من البوذية أو من الأفلاطونية المحدثة.

من أين استقى جولد تسيهر فكرته عن التأثير الهندى فى التصوف الإسلامى؟ يستند جولد تسيهر على بعض الأخبار التاريخية، التى تتحدث عن وصول بعض الرهبان الرحل من الهنود (الرهبان السائحون) إلى العالم الإسلامى فى العصرين الأموى والعباسى، وكيف أن خصالهم هى: القدس والصدق والطهر والمسكنة. أما القدس عندهم فهو كتمان الذنب، والطهر عدم قرب النساء، والصدق عدم الكذب، وأما المسكنة فهى التسول، وكان هؤلاء الرهبان يسيحون فى الأرض أزواجا، كل رجلين معا لا يفترقان. وقد أورد الجاحظ بعض القصص عن هؤلاء الرهبان ووصفهم بأنهم زنادقة من أتباع ديانة (مانى).. ولكن جولد تسيهر -وهو بصدد إثبات فكرة معينة تسيطر عليه- ذهب إلى أن هؤلاء الرهبان لابد ان يكونوا من الهنود أو البوذيين، ثم انتهى إلى نتيجة متسرعة وجريئة حقا ترد التصوف

الإسلامى إلى منابع هندية وبوذية.. وقد التقط بقية المستشرقين هذا الخيط وراحوا ينسجون به أحكاما مشابهة، فقال هورتن (الألمانى) إن التصوف قام على مذهب (الفيدانتا) الهندى دخل العالم الاسلامى عن طريق الكابالا اليهودية، وزعم أن فكرة (المحاسبة) التى نراها عند الحارث المحاسبى ذات أصل هندى، كما أن فكرة (الرضا) فكرة بوذية، ويكاد يتفق جميع المستشرقين على أن فكرة (الفناء) بوذية أو هندية الأصل، كما ان المسابح عادة هندية، حتى خرقة الصوف التى كانت علامة على الاندماج فى الطرق الصوفية، قال جولد تسيهر إنها مأخوذة من التصوف الهندى، ويذهب فون كريمر إلى أن الأشكال الكثيرة للرياضات الدينية المتعلقة بالذكر فى الجماعات الصوفية-ذات أصل هندى.

يرد الدكتور النشار على هذه الاحكام فيقول: أننى لا انكر الأثر الهندى فى التصوف الإسلامى ـ ولكن حدث هذا فى القرن الرابع وما بعده ـ أما حركة الزهد والتصوف فقد نشأت إسلامية خالصة، وكان أمام المسلمين شواهد من القرآن والحديث تدعو إلى الزهد كما تدعو إلى التصوف، فتابعوا هذه النماذج، وعلى افتراض وجود نماذج هندية تسربت إلى المجتمع الاسلامى، فقد كانت بعيدة عن روح الزاهد المسلم والمتصوف المسلم.

ويناقش النشار قصة الرهبان السياح الذين قال عنهم جولد تسيهر إنهم أثروا فى نشأة التصوف الإسلامى فيتساءل: ما هو أثر هؤلاء الرهبان فى المسلمين؟ سياحتهم؟ نحن لا نعرف فى تراث الصوفية نظام السياحة الزوجية (اثنين اثنين) ولم نسمع أن صوفية الاسلام كانوا يتنقلون على هذا السياق العجيب، ولم يمتنع صوفية الاسلام عن الزواج كما كان يمتنع هؤلاء، ولم يحرم صوفية الاسلام نحر الذبائح كما كان يحرمه هؤلاء، اما ان صوفية الاسلام كانوا يسيحون كما كان يسيح هؤلاء فما أغرب المقارنة حينئذ بين الاثنين، كان جولد تسيهر يريد أن يقول: أن الاسلام أخذ فكرة الصلاة من الهند والسند واليهودية والمسيحية، لان كلا من هؤلاء يصلون أيضا، وأن الاسلام أخذ فكرة الصوم من كل هؤلاء لأنهم يصومون أيضا، وأخذ فكرة العبادة من كل هؤلاء، لأن هؤلاء يتعبدون أيضا..!

* * *

السياحة والرضا والفناء
أفكار قرآنية

ويرد الدكتور النشار الأمور إلى أصولها فيقول: إن فكرة السياحة فكرة قرآنية، أخذها الصوفية من القرآن الذى ذكر السائحين والسائحات والعابدين والعابدات والذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض وتتجافى جنوبهم عن المضاجع، لقد أخذ الصوفية بفكرة السياحة وغيرها من الأساليب الصوفية-من القرآن حين استخدموا منهج الاستنباط فى كل مصطلح قرآنى، فدخلوا فى أعماق المصطلح، وحاولوا تحقيقه فى أنفسهم.

اما خصال هؤلاء الرهبان: القدس والطهارة والصدق والمسكنة، وانتقالها إلى الصوفية – فهو من أعجب الأمور التى يذكرها هذا المستشرق اليهودى كأن الإسلام لم يعرف القدس والطهر والصدق والمسكنة، وانتظر رواد الحياة الروحية فى خصال القدس والطهارة والصدق؟! أما القول بأن فكرة (المحاسبة) عند الحارث المحاسبى فكرة هندية فهو تجن واضح على البحث العلمى، وفكرته فى المحاسبة فكرة إسلامية بحتة استند فيها على نظرية الحساب الإلهى من ناحية، ونظرية النفس اللوامة من ناحية أخرى. وفكرة (الرضا) متخذة من تصورات قرآنية بحتة، أما فكرة (الفناء) فقد نشأت قرآنية واختلفت أشد الاختلاف مع نظرية الفناء الهندى.

ويختتم الدكتور على سامى النشار مناقشته لفكرة المؤثرات الخارجية بالتشديد على أن العالم الاسلامى لم يغلق منافذه فى وجه التيارات الأجنبية، فقد دخلت وعرفها المسلمون دون أن تكون لهم حاجة إليها، ولا يعنى بهذا أنها لم تؤثر فى بعض المفكرين.. ولكن من غلاة الشيعة، وليس من الدائرة الإسلامية التى تمثل الاسلام الصحيح.. وعلى هذا فليس لباحث محايد أن ينكر نشأة حياة روحية أصيلة عند المسلمين – منذ البدء – تستند على المصدرين الكبيرين: القرآن والسنة[١].

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار الجزء الثالث.

ظهور حركة التصوف
نتيجة للانحراف الخلقى

وإذا كانت الحركة الروحية فى الاسلام قد نشأت فى حضن الاسلام، واتخذت فى بدايتها شكل الزهد والتجرد والاعراض عن ملذات الحياة، وبعد ان كان الزهد سمة عامة للمجتمع فى الصدر الأول.

فكيف تطور هذا الزهد ليصبح-فى مرحلة تالية-حركة صوفية لها رجالها المميزون عن غيرهم من الطوائف والفرق والأحزاب التى ازدحم بها المجتمع الاسلامى، وما هى الظروف التى جعلت من التصوف سلوكا ونهجا فى الحياة له طقوس وشعارات ورموز وزى خاص يتمثل فى خرقة الصوف.

إن فهم دوافع هذه النقلة الخطيرة لا يتم إلا بدراسة الظروف التاريخية التى طرأت على المجتمع الاسلامى وهو ينتقل من دائرة دولة «المدينة» المحدودة إلى نطاق الدولة العالمية المترامية الأطراف والتى تضم فى إطارها دولا ضخمة ذات ماضى عريق، وحضارات وثقافات ذات مشارب وأصول شتى.

لقد مضى العصر النبوى الذى خضع فيه المسلمون لنظام وتقاليد وآداب مطابقة لتعاليم القرآن والسنة، وخرج المسلمون إلى عالم واسع عريض يضطرم بنزعات وأفكار وتقاليد تختلف عن تلك التى عاشوا فى ظلها، أو قل جاءت اليهم الدنيا بفتنتها وزخرفها ومتاعها لتضعهم امام امتحان قاس. وكان لابد أن تمضى سنة الله فى خلقه عندما يجد الإنسان نفسه أمام فتنة المال الوفير والثراء الواسع.. فمن الناس من زهد فى الحرام فأخذ نصيبه من الدنيا فى حدود المسموح به شرعا، ومنهم من أطلق لشهواته العنان وتركها تغترف من معين اللذة تحت ستار التأويل، ومنهم من خاف على نفسه من السقوط

فى الحرام فعاش حياته زاهدا متقشفا.. وما هى إلا عشية وضحاها حتى انجلى الموقف عن طرز من الحياة متباينة.. فالزهد إلى جانب السرف.. والتقشف إلى جانب العبث والمجون.

لقد كانت فتنة حقيقة لا مجازا.

ومن المتفق عليه بين مؤرخى الاسلام ان المجتمع الاسلامى شهد تطورا هائلا بعد عصر الفتوحات وتدفق الأموال من الأمصار، وصاحب هذا التطور انحراف عن المثل العليا السامية التى دعا إليها الاسلام، والباحثون الذين تعقبوا هذه الظاهرة لم يجدوا فيها شذوذا عن طبيعة النفس الانسانية التى تجنح إلى المتعة ما وجدت إلى ذلك سبيلا.. وهل المجتمع إلا حاصل جمع الأفراد.. ومن يدرس تاريخ الأمم والشعوب فى مراحل الانتقال يكتشف أن العهود المثالية التى تصاحب طور النشأة-تكون قصيرة الأمد ثم تعقبها فترات انحلال وضعف. هذا ما يذكره الدكتور ضياء الدين الريس فى كتابه (النظريات السياسية فى الاسلام) وهو يعلل ذلك بما يلى:

* إن الجيل الذى ينهض حاملا أعباء دعوة جديدة مستمسكا بالمثل العليا مجاهدا فى سبيل تحقيقها، لا يلبث بعد مضى مدة أن يخلفه جيل جديد لا تتوافر له العناصر التى توافرت للجيل السابق، لا يكون له - فى مجموعة - مثل قوة إيمانه ولا عمق فهمه للمبادئ، ولا درجة حماسة لها، إذ أن الأفكار والمشاعر قلما يورثها جيل لآخر بنفس القوة - سليمة كما هى-دون أن يعتريها نقص أو تبديل.

* إن المستوى العالى الذى ترتفع إليه النفس الانسانية فى تلك العهود الاستثنائية يصعب على الطبيعة البشرية أن تحتفظ ببقائها فيه، وقد ركبت فيها غرائز وميول وأهواء تنزع بها إلى الهبوط إلى مستويات أدنى، كما أودعت فيها العواطف التى تدفع بها إلى السمو.

* إن بقاء مجتمع ما فى مستوى رفيع، إنما يرجع إلى نوع القيادة الممتازة التى توجهه وتلهمه وهى متمتعة بصفات فائقة غير شائعة الوجود: من حكمة وكياسة وسعة أفق وبعد نظر ونزاهة مقصد، والطبيعة لا تجود بالعبقريات كثيرا، فإذا خلا مكان القيادة، لم يجد المجتمع من يملؤه ممن يضارع الموجة الأولى فى كفاءته أو تكتمل فيه هذه الصفات، وتكون النتيجة الحتمية أن ينزل المجتمع من مكانته، وتتعثر خطاه، وتتزاحم عليه المشاكل، وتظهر لذلك كله آثار غير مستحبة يكون مغزاها ان عهدا قد انقضى وبدأ عهداً آخر.

وهذا التحليل، الذى يصدر عن مباحث علم النفس الاجتماعى، ينطبق تاريخيا على المجتمع الاسلامى الذى ودع عصر الراشدين، ودخل-مرغما-فى دهاليز حكم استبدادى-كسروى أو قيصرى-يجلس على قمته ملوك بنى أمية الذين أغدقوا الأموال فى شراء الذمم وإفساد الضمائر وكسب الأنصار والمحاسيب. وإشاعة مظاهر اللهو والمجون والانحلال لتفريغ المجتمع من كل أسلحة المقاومة.

وكما يحدث فى كل عهود القهر والانحلال واليأس، يلجأ بعض الناس إلى مثابة الدين، يمارسون الزهد والتقشف وهم يهتفون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

* ربما هربا من الفتنة.

* وربما سعيا وراء المثل الأعلى الذى ينشدونه فى عالم الروح.

* وربما إحساسا منهم بالاحباط والهزيمة فى معركة الحياة الاولى، فلا أقل من ان يكسبوا رضاء الله فى الآخرة.

لكل هذه الاعتبارات، ظهر التصوف فى تاريخ الاسلام حركة روحية صرفة دفعت اليها عوامل نفسية وسياسية واجتماعية واقتصادية.

الكرامات والخرافات
بين الكرامات والخرافات خيط رفيع

ومن المؤكد انك سمعت عن بعض الكرامات التى تنسب الى أولياء من سكان الاضرحة وأرباب الطرق الصوفية.. وكيف أن أحدهم طار فى الهواء.. والآخر مشى على الماء.. والثالث يصلى كل جمعة فى الكعبة المشرفة.. وهذا متخصص فى علاج العقم وشفاء الأمراض المستعصية.. وذاك قادر على تحويل النحاس الى ذهب والاتيان بكل ما هو خارق لقوانين الطبيعة.

فما هو وجه الحقيقة فى ظاهرة الكرامات.. هل لها سند من الدين.؟ ام انها خرافات جادت بها قرائح الرواة على مر العصور ليجعلوا منها سبيلا إلى الكسب والثراء والسيطرة على جماهير العامة من البسطاء الذين يحملون فى نفوسهم تقديسا لسكان الأضرحة، واعتقادا فى قدرتهم على كشف المستور وتحقيق المعجزات، بعد أن بلغوا فى سلك الصفاء والطهر درجة رفيعة.

قضية الكرامات فى غاية الدقة والحرج، فبقدر ما كانت الكرامات مدخلا الى تدعيم النزعة الروحية، بقدر ما كانت مطعنا فى الحركة الصوفية كلها، خاصة فى فترات الانحطاط التى انحدر اليها التصوف فاختلط بالدجل والشعوذة، وأضحى ستارا يتخفى تحته المفسدون والأفاقون ومعدومو الضمير.. ولكن العلماء المنصفين الذين بحثوا قضية الكرامات بحثا موضوعيا، لم تجرفهم موجة الأفكار والرفض لظاهرة الكرامات، وإنما فرقوا بينها وبين الخرافات والأساطير التى نسجها خيال جماعة المنتفعين بدولة الأضرحة، فالكرامات -وهى الأعمال الخارقة للسنن الكونية- لها شواهد فى القرآن الكريم. لعل

أوضحها الأعمال التى اجراها الله على يد (الخضر) أثناء صحبته لسيدنا موسى عليهما السلام. ولم يكن الخضر رسولا ولا نبيا، ومع ذلك أتاه الله من العلم الباطن ما استعصى فهمه على موسى قبل ان يكلف بالرسالة. وهى القصة التى وردت بالتفصيل فى القرآن الكريم فى سورة الكهف. وقد عمد ائمة الصوفية الى استخراج الأسرار الخفية والمعانى الروحانية فيها. ليتخذوا منها دليلا على إمكانية حدوث الكرامات للعبد الصالح إذا هو سار فى طريق الإيمان والتقوى والطاعة.

لذلك وجب علينا ان نفرق بين حقيقة التصوف، وما يلازمه من أعمال خفية تجرى على أيدى الأولياء والصالحين وبين مظاهر الدجل والشعوذة التى يحترفها الحواة والدراويش، إذ ليس من الإنصاف-كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد-أن نحمل التصوف أوزار الأدعياء واللصقاء الذين يندسون فى صفوفه نفاقا واحتيالا، أو جهلا وفضولا، لأنه ما من نحلة فى القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون اليها من غير أهلها.

والأمام الأكبر مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر الأسبق حيث يتكلم عن الكرامات، يتعمد إهمال ما جرى فى دور الانحطاط الذى انتهى اليه التصوف فى عهوده المتأخرة، والذى جعل من التصوف أداة غش ومطامع وجهل وفساد. ويركز على الجانب الصحيح من الكرامات والذى ارتبط بطائفة خاصة من الزهاد والمتقين أطلق عليهم وصف (أولياء الله).

والولاية تعنى القرب من الله عن طريق التقوى والايمان. وقد تردد ذكر الولى والأولياء والولاية فى القرآن أكثر من مرة:

* الله ولى الذين آمنوا.
* وهو يتولى الصالحين.
* انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.
* ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم.
* إنما وليكم الله ورسوله.
* إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فإذا كان العبد قريباً من الحضرة الالهية، بسبب كثرة طاعاته وكثرة إخلاصه -

حصلت الولاية – فيبلغ مرتبة العرفان، عندئذ تنكشف له الحجب، ويشهد من علم الله ما لا يشهده سواه، وتظهر على يديه الكرامة التى هى أمر خارق للعادة.

ويقول الشيخ مصطفى عبدالرازق إن معظم الأشعرية – مذهب أهل السنة الاعتقادى – أجازوا للصالحين، على سبيل كرامة الله لهم، اختراع الأجسام وقلب الأعيان، وإحالة الطبائع، وكل معجز للأنبياء، وقالوا إنه لا فرق بين آيات الأنبياء وكرامات الأولياء إلا بالتحدى.. فالنبى يتحدى الناس أن يأتوا بمثل ما جاء هو به، أما الولى فلا يتحدى.. والصوفية يقولون إن ظهور الكرامات جائز، بل واقع، ويصفونها بأنها أمور ناقضة للعادة، غير مقترنة بدعوى النبوة، وهو عون للولى على طاعته، ومقوية ليقينه، وحاصلة له على حسن استقامته ودالة على صدق دعواه فى الولاية، أن دعاها لحاجة وشهدت له بها الشريعة، وهم يفرقون بين المعجزة والكرامة من ثلاثة وجوه:

أولها: أن الأنبياء متعبدون بإظهار معجزاتهم للخلق، والاحتجاج بها على من يدعونه إلى الله تعالى، فمتى كتموا ذلك فقد خالفوا الله عز وجل، أما الأولياء فهم متعبدون بكتمان كرامتهم عن الخلق فإذا أظهروا شيئاً منها لاتخاذ الجاه، فقد خالفوا الله وعصوه.

ثانياً: أن الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم على المشركين، لأن قلوبهم قاسية.. والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوت الرزق، لأن النفس أمارة بالسوء مجبولة على الشك.

ثالثاً: إن الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم يكون أتم لفضلهم.. أما الأولياء فكلما زيدت كراماتهم ازدادوا خوفا من أن يكون ذلك من الاستدراج لهم، وأن يكون سبباً لسقوط منزلتهم عند الله.

وتتحدد كرامة الأولياء فى إجابة الدعاء والأخبار ببعض الأحداث التى يمكن أن تقع كعودة المسافر وشفاء المريض، أما الاتيان بالأعمال الخارقة مثل إحياء الميت أو تسبيح الحصى.. فلا يكون للأولياء.

وقال بعض علماء الكلام إن الكرامة جائزة، إذ ليس يلزم من فرض وقوعها محال، فهى أمر يتصور فى العقل حصوله من غير أن يؤدى إلى رفع أصل من الأصول، وقالوا إن خرق العادة ليس مما ينكره الحكماء لأنهم يقولون بأن للنفوس الذكية قوى ربما تؤثر فى

أكثر الأجسام التى فى عالم الكون والفساد. أما وقوع الكرامة فقد استدلوا عليه بقصة (أهل الكهف) وبقائهم فى النوم أحياء سالمين مدة ثلثمائة وتسع سنين كما وردت فى القرآن، كما استدلوا بأخبار كثيرة حكاها النبى ﷺ.

أما الذين قالوا بامتناع الخارق للعادة - معجزة أو كرامة - فقد قالوا: إن خرق العادة سفسطة، ولو جوزناه لجاز انقلاب الجبل ذهباً، ولجاز حصول الرجل من غير أب ولا أم.. ولا يخفى ما ينطوى عليه ذلك من خبط وإخلال بالقواعد المتعلقة بالنبوة، والمفاسد، التى تنافى نظام المعاش والمعاد.. وقد رد الصوفية على هؤلاء المنكرين للكرامات والخوارق بأنهم لا يعترفون بالنبوة أصلاً، فهم خارجو عن الدين لكنهم لم يصرحوا بإنكار النبوة، وليس يمنع أن ينكروا الخوارق من غير أن ينكروا النبوة.

عادات الطبيعة

وفى دفاعه المجيد عن «معقولية» الكرامات، يرى الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود أن ما نسميه: قوانين الطبيعة، أنما هو فى الواقع عادات طبيعية، وخرقها ليس بمستحيل عقلاً، وخرقها لا يترتب عليه مستحيل، وعادات الطبيعة لا تسيطر على رب الطبيعة. ثم إن هؤلاء الذين تجرى على أيديهم المعجزات أو الكرامات لا ينسبونها لأنفسهم، وإنما ينسبونها إلى المتفضل الوهاب صاحب المقدرة والقهر وإنهم ينسبونها إلى من هو على كل شىء قدير.

ومع ذلك فإن الشيخ عبدالحليم محمود لا يعتبر الكرامات أصلاً من أصول التصوف، وإنما هى فى عرفهم «لعب تلقى للصغار فإذا فرحوا بما أوتوا استمروا صغاراً لا يرتقون، ووقفوا عن السير فى معراجهم إلى الله لا يتقدمون». وتفهم من كلام عالمنا الصوفى الكبير أن الكرامة ليست هدفاً مقصوداً فى حد ذاته من جانب الصوفى الأصيل فليس للصوفى أن يسعى إليها إنها عمل يظهر له عفو الخاطر ودون قصد منه، وإيماءات تفيض عليه من عالم النور للدلالة على صدق أحواله ومدى قربه من الحضرة العلية، وليس للصوفى أن يكشف عنها للناس وإلا انقلب عليه الحال، وانقطع عنه الوصال.

ولكن الكتاب الذين شغفوا بأئمة التصوف، وانبهروا بسيرتهم العطرة، لم يفطنوا إلى هذه السرية التى فرضها الصوفية على أحوالهم، فنسبوا إليهم ما وقع وما لم يقع، حتى اختلطت الحقيقة الصوفية بالأسطورة، بل كثيراً ما تنسب القصة الواحدة إلى أكثر من ولى من أولياء الله الصالحين، وذهب بعضهم فى الخيال مبلغاً أدى إلى تشويه سيرة أولئك الأقطاب الأتقياء، وخرج بها من إطار المعقول إلى إطار اللا معقول، ووضعوهم فى مرتبة أعلى من مرتبة الرسل والأنبياء.. وفى الدرجة التى تفوق درجة الملائكة المقربين!!

الرسول يبشر بميلاد أحمد الرفاعى

فالذين كتبوا عن الإمام أحمد الرفاعى جعلوا من ميلاده حدثا خارقا بشر به الرسول محمد ﷺ، فهو ليس مثل ملايين الأطفال الذين يولدون ثم يكبرون ويسلكون طريق الصلاح والتقوى ويبلغون مرتبة الولاية بالمجاهدة والطاعة.! وإنما الكرامة تنتظرهم حتى وهم أجنة فى بطون أمهاتهم. وتتناقل الملائكة والرسل خبر مولدهم..

من ذلك ما جاء فى كتاب «النجم الساعى» لأبى بكر العدنى أن منصور البطائحى-خال الرفاعى-رأى رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول له: يا منصور.. أبشركم أن الله تعالى يعطى أختك بعد أربعين يوما ولدا يكون اسمه أحمد الرفاعى، مثل ما أنا رأس الانبياء كذلك هو رأس الأولياء ثم يمضى المؤلف فى شطحاته فيقول: ولما ولد الرفاعى سارت البشرى بولادته وكان الإمام أحمد بن خميس فى أصحابه يحدثهم وإذا به ينهض قائما يكبر ويهلل.. فسأله أصحابه فقال: رأيت فى هذه الساعة أنه قد ولد فى أم عبيدة فى دار الشيخ يحيى النجار قد ولد عزيز على ربه هو صاحب الوقت، فنهض منهم جماعة حتى أم عبيدة وشاهدوا الرفاعى وهو رضيع.

وإذا عزت الكرامات فى حياة الولى، فلا مانع من أن تنسب إليه بعد موته، بما فى ذلك قدرته على الكلام من داخل القبر. فالذين ترجموا لسيرة قطب قنا الكبير-الشيخ عبد الرحيم القنائى-اعترفوا بأنه كان رجل علم وعمل، وأنه كان يحترف التجارة حتى لا يمد بسؤال، وسجلوا له قوله بأنه ليس التصوف القعود عن العمل أو فعل تلك الأفعال المنكرة والمبتدعة فى الدين ويبدو أن حياة الشيخ كانت خالية من الأعمال الخارقة. ولذلك نسجوا من حوله الأساطير بعد موته ومن ذلك ما نسبوه إلى الإمام الفقيه ابن دقيق العيد حيث قال:

زرت جبانة قنا وقت الظهر وجلست عند قبر سيدى عبد الرحيم ولم يكن ثم غيرى، وإذا بأنوار من قبر سيدى عبد الرحيم وأنوار خرجت من قبر أبى الحسن الصباغ حتى توارى عنى نور الشمس لشدة ضياء تلك الأنوار، وسمعت قائلا من قبر سيدى عبد الرحيم يقول: «الله نور السموات والأرض» وسمعت قائلا من قبر الشيخ أبى الحسن الصباغ يقول: «نور على نور».

والشيخ ابو الحسن بن الصباغ -الذى ورد ذكره فى القصة السابقة- لم يكن بأقل من أستاذه القنائى عرضه لنسج القصص وتأليف الاساطير، ومن ذلك ما رواه الشطنوفى فى كتابه «بهجة الاسرار» إذا قال:

«أخبرنا أبو الفتح رضوان يقول: كنت يوما مع شيخنا أبى الحسن الصباغ رضي الله عنه على ساحل البحر «يقصد النيل» ومعه إبريق يتوضأ منه، فسمع بالقرب منه صياح الناس، فسأله الشيخ عن ذلك فقيل له قد أخذ التمساح رجلا من الساحل، فترك الشيخ الوضوء، وأسرع إلى المكان الذى فيه الناس مجتمعون، فرأى التمساح قد قبض على الرجل وقد توسط به لجة البحر، فصاح الشيخ بالتمساح أن يقف، فوقف مكانه لا يتحرك يمينا ولا شمالا، فعبر الشيخ على متن الماء، وهو يقول:

باسم الله الرحمن، كأنه على وجه الأرض، وكان البحر فى نهاية زيادته حتى انتهى الى التمساح، فقال له: ألق الرجل، فألقاه من فيه.. وقد هلك الرجل من فخذه من مسكة التمساح، فوضع الشيخ يده على التمساح وقال له:

مت، فمات موضعه.. وقال الشيخ للرجل: قم الى البر، فقال: يا سيدى لا استطيع من فخذى وأنا لا أحسن العوم، فقال: اذهب فهذه سبيل النجاة، وأشار إلى طريق البر فإذا البحر من الموضع الذى فيه الشيخ، والرجل صلب قوى كالحجارة إلى البر، فمشى الشيخ والرجل حتى وصلا إلى البر والناس ينظرون، ثم عاد البحر إلى حالة المعتاد، وجر الناس ذلك التمساح ميتا».

وهذه القصة بحذافيرها تتردد على ألسنة المريدين منسوبة إلى الشيخ ابراهيم الدسوقى، مع اختلاف المكان، فيجعلون مسرحها مدينة دسوق وتقع على النيل أيضا، والذين يزورون مسجد الدسوقى يجدون قطعة من العظم معلقة على ضريحه يقال إنها من فقرات عظم التمساح بطل الحادث.

كرامات ابن الصباغ

وابن الصباغ المذكور أعلاه، ليس من صوفية الدرجة الأولى، فهو لا يرقى إلى مرتبة أحمد البدوى أو ابراهيم الدسوقى أو الرفاعى أو أبو الحسن الشاذلى.. إنه مجرد تلميذ نجيب لأستاذه عبد الرحيم القنائى، ومع ذلك فان الكرامات المنسوبة إليه تفوق الخيال ويرجع الفضل فى إلقاء الضوء على هذا القطب الصعيدى إلى الدكتور على صافى حسين من خلال كتابه «الادب الصوفى فى مصر» وعقد فيه فصلا خاصا عن كرامات هذا الولى الذى صرف جهوده فى مراقبة المريدين والتأكد من سلوكهم. ويقول الدكتور على صافى إن كرامات ابن الصباغ جاءت على نمطين:

* الأول: يذكر على صورة أقصوصة تتضمن حادثة وقعت لأحد المريدين أو غيره من الناس، بفعل الشيخ وارادته، مثل قصة الرجل والتمساح.
* الثانى: يؤدى على صورة حكاية حدثت للشيخ نفسه مع بعض مريديه أثناء إشرافه على خلوتهم، ومثال ذلك القصة التالية:

اجلس الشيخ ابو الحسن الصباغ رضي الله عنه، رجلا فى بيت خلوة، وكان يتفقد اصحاب الخلوة من أصحابه كل يوم وليلة، فدخل الشيخ عليه فى ليلة من ليالى العشرة الأخيرة من رمضان، فوجده يبكى، فسأله عن حاله فقال: هاتذا أشهد ليلة القدر، وأشاهد كل شىء على وجه الارض ساجدا، وكلما هممت السجود اجد فى باطنى شيئا على هيئة العمود الحديد يمنعنى من السجود، فقال له الشيخ: يا بنى لا تجزع، العمود الحديد الذى تجده هو سرى المودع فيك لا يمكنك الا من فعل قربه، وجميع ما تشهده الآن من سجود الأشياء انما هو وارد شيطانى، وأراد الشيطان أن تسجد لما خيل لك فيجد بذلك سبيلا عليك، قال: فوقع فى

نفسى من ذلك شىء، وخطر لى ومن أين له صحة ذلك؟ فلم يتم خاطرى حتى قال لى: أقول لك هذا وأنت تطلب عليه دليلا؟ ثم مد يده اليمنى فرأيتها انتهت إلى أقصى المشرق ثم مد يده اليسرى فرأيتها انتهت إلى أقصى المغرب، ثم قبضهما اليه قبضا يسيرا، وذلك المنور الذى كنت رأيته والأشياء الساجدة التى شاهدتها ينضم بعضها الى بعض حتى لم يبق بين راحتيه الا مقدار ذراع، وتكون ذلك النور وما فيه حتى صار كهيئة الانسان فسمعت منه صياحا منكرا يقول: «يا سيدى» الغوث الغوث، لا أرجع ولا أعود يا سيدى» وكلما قارب الشيخ بين كفيه زاد ذلك الصياح، فقال الشيخ: الله، فرأيت برقة من نور خرجت من فيه أضىء لها كل شىء أراه، وانقلبت تلك الصورة التى بين راحتى الشيخ سوداء شديدة النتن، وصاحت صيحة مهولة كادت نفسى تزهق، ثم صارت دخانا وتصاعد فى الجو هباء منثورا.

فهذه الحكاية-كما ترى-تبين لنا كلف المريدين وشدة عنايتهم بنسج الكرامات حول شيوخهم بقصد تعظيم أمرهم وأكبار شأنهم ووضعهم فى مرتبة فوق مستوى البشر، فالشيخ يعلم السر وأخفى، ويعرف ما يدور فى نفس تلميذه من شك، وهو قادر على قهر الشيطان حتى ليصرخ مستغيثا، وواضح أن الهدف من القصة تأكيد ثقة المريدين فى استاذهم ونزع اية بذرة للشك تراود نفوسهم حول قدرة الأستاذ.

كرامات السيد أحمد البدوى

وإذا كانت تلك كرامات صوفى من الدرجة الثانية أو الثالثة، فما بالك بالكرامات التى توافرت لزعيم أولياء مصر القطب.. الغضبان.. الملثم.. العطاب.. ابو الفتيان.. مجيب الأسارى.. السيد احمد البدوى.

ان الاقاصيص التى تروى عن معجزات السيد البدوى تفوق الخيال وتصادم عقيدة التوحيد، لانها لم تقنع بوضعه فى مستوى من العظمة اسمى من مستوى الأنبياء، بل على درجة من القدرة تناظر قدرة الله عز وجل، فهو يقول للشىء كن فيكون، وهو يحيى الموتى.. ويميت الأحياء.. ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.. ويعلم ما فى الأرحام..!!

لا تعجب.. فما عليك الا ان تلقى نظرة سريعة على أى كتاب وضع عن حياة السيد البدوى، لتجد فيه هذا الحشد الهائل من الخرافات مثل قصة السيدة التى مات ولدها الصغير فجاءت الى السيد البدوى باكية وقالت: يا سيدى ما اعرف ولدى الا منك. وقد حاول الفقراء الملتفون حول البدوى منعها وابعادها، ولكنهم لم يستطيعوا، وظلت تستنجد بالسيد البدوى وهى تقول: توسلت اليك بالله ورسوله! والذين وضعوا القصة لم يخجلوا من ان يجعلوا انسانا يتوسل بالله عز وجل ورسوله ﷺ عند السيد البدوى! ليقوم بإحياء الميت، وقد رق البدوى لحال المرأة، ومد يده الى ولدها فبعث حيا من جديد..!!

أما عن إماتة الأحياء فقد حدثت أثناء رحلة أحمد البدوى وأخيه الحسن فى العراق، فقد كانا يعاقبان بالموت كل من يتعرض لهما بأذى وكان يكفى أن ينظر أحدهما إلى الأعداء ويقول «موتوا بإذن الله» فيخرون على الأرض موتى..! وفى احدى الازمات استطاع أحمد البدوى أن يميت سبعة آلاف جمل بكلمة واحدة، إذ قال لها «موتى» فماتت جميعا فى الحال، ثم أحياها بعد ذلك فى طرفة عين.

والخرافات جعلت السيد أحمد البدوى يطوى الأرض فى غمضة عين، من ذلك قطع المسافة من شمال العراق إلى جنوبه فى سبع عشرة خطوة، وقطع المسافة من مكة إلى طنطا فى إحدى عشرة خطوة، وكان يختفى من فوق السطح فى طنطا ليؤدى صلاة العصر فى جزيرة نائية يحتاج السفر اليها إلى سنوات طويلة.

وتروى الأساطير إنه أوتى قدرة عظيمة على شفاء المرضى فكان تلميذه عبد العال يأتى إليه بالشخص الذى يبول فى ثيابه وينادى السيد أحمد من فوق السطح اليه، فيأتيه وينظر إليه نظرة واحدة فيزول ما به من مرض ويملؤه مددا، ثم يقول لعبد العال: «ارسله الى البلد الفلانية فيكون فيها مقامه إلى أن يموت».

أى أن أحمد البدوى كان يعلم مستقبل الانسان.. وبأى أرض تموت..! كما كان يعلم الغيب وما تخفى الصدور، ومن ذلك ان رجلا مر بالسيد البدوى يحمل قربة لبن فأومأ اليها بأصبعه فتحطمت وانسكب اللبن وخرجت منه حية كبيرة، وذات مرة اكتشف وهو فى طنطا أخطاء فى المصحف المطلق فى صدر بيت الفقيه المعروف ابن دقيق العيد بالقاهرة وحدد له مواضع الخطأ، فاصلحها.

ويبدو أن قاضى القضاة ابن دقيق العيد كان ينتقد تصرفات اتباع السيد البدوى وإسرافهم فى تقديسه، ولذلك حرص كتاب الأساطير على نسج قصة ينتقمون فيها من الفقيه ويجعلونه فى موقف العائد المعتذر.. تقول القصة ان ابن دقيق العيد ذهب إلى طنطا واجتمع بالسيد أحمد البدوى وقال له: «يا أحمد هذا الحال الذى أنت فيه ما هو مشكور! فانه مخالف للشرع الشريف! إنك لا تصلى ولا تحضر الجماعة وما هذا طريق الصالحين!!» وعندما سمع البدوى كلام الشيخ صاح فيه: «اسكت والا أطير دقيقك، ثم دفعه السيد البدوى دفعة لطيفة فلم يشعر ابن دقيق العيد بنفسه الا وهو فى جزيرة واسعة، لم يعلم لها طولا ولا عرضا. وعندئذ أخذ ابن دقيق العيد يلوم نفسه ويعاتبها وهو ذاهل العقل شارد الفكر، ويقول «مالى ومعارضة أولياء الله تعالى! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم». وبينما هو يبكى ويستغيث ويبتهل إلى الله تعالى، إذ ظهر له رجل مهيب وسلم عليه فرد عليه السلام وقام إليه وجعل يقبل يديه ورجليه، وعندئذ نظر إليه الرجل وقال: ما قضيتك؟ فأخبره ابن دقيق العيد بما حدث له مع السيد البدوى، فقال له الرجل: لقد وقعت فى أمر عظيم! أتدرى كم بينك وبين القاهرة؟ قال: لا والله.. قال: بينك وبينها سفر ستين سنة!! فازداد ابن دقيق العيد هما على هم، وعظم خوفه واخذ يردد «يا ترى من يخلصنى من هذه الورطة انا لله وانا اليه راجعون» ولم يجد امامه سوى الرجل المهيب،

فاقبل عليه يستنجد به ويقول له «أرشدني يرحمك الله». فقال الرجل «هون عليك الأمر، فما يحصل لك الا الخير ان شاء الله تعالى» ثم اخذه بيده وأراه قبة كبيرة وقال له «اذهب اليها واجلس فيها فان سيدى أحمد البدوى يصلى فيها العصر بجماعة من الرجال، ويودعونه وينصرف كل منهم الى حال سبيله، فاذا صليت معهم فتعلق به وتملق بين يديه، وقال له «استغفر الله واتوب اليه ولا أعود لما صدر منى، فاذا رأى منك ذلك يقبل عليك ويردك الى موضعك».

وتمضى الاسطورة فتقول ان ذلك الرجل المهيب لم يكن سوى سيدنا الخضر عليه السلام، فامتثل قاضى القضاة لأوامره. وقصد القبة المشار اليها فلم يمض وقت حتى اجتمع جماعة واقيمت الصلاة وتقدم الامام، فنظر اليه ابن دقيق العيد فاذا هو السيد البدوى، وبعد الصلاة اتجه اليه قاضى القضاة وتعلق به وجعل يقبل يديه ورجليه ويبكى ويستغفر ويعتذر، وعندئذ قال له السيد البدوى «ارجع عما كنت فيه، ولا تعد الى مثله» فرد القاضى «السمع والطاعة يا سيدى» ودفعه السيد البدوى دفعة لطيفة وقال له «اذهب الى بيتك فان عيالك فى انتظارك» فلم يشعر ابن دقيق العيد الا وهو واقف بباب داره بمصر، وظل مقيما مدة داخل بيته لا يخرج من أثر الصدمة وما جرى له مع السيد أحمد البدوى.

اياك ان تنتقد الاولياء

تلك هى القصة التى رواها الرواة ونخرج منها بعدة حقائق، يحددها الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فيما يلى:

* ان الفقهاء المعاصرين للسيد البدوى لم يكونوا راضين عن اسلوبه وسلوكه ومنهجه.
* اقناع عامة الناس انه اذا كان السيد البدوى لا يباشر صلاة الجمعة والجماعة، فان له شطحات بعيدة فوق مستوى إدراك البشر، وانه كان يباشر هذه الصلوات مع قوم من الاصفياء فى جزيرة نائية ثم يعود الى طنطا دون ان يشعر به احد.
* تحذير كافة الناس من التعرض بنقد لسلوك السيد البدوى والا ذاقوا العذاب الشديد، ومن الواضح ان اختيار قاضى القضاة بالذات محورا لهذه القصة امر له مغزاه، لانه كان اشهر فقهاء عصره واوسعهم نفوذا واكثرهم حرمة عند السلاطين، فاذا كان السيد البدوى قد فعل ذلك بابن دقيق العيد، فما بالنا بصغار الفقهاء وعامة الناس اذا هم تطاولوا.

جمعية المنتفعين بالاولياء

اذا كانت الاساطير حول السيد البدوى قد بلغت هذا الحد من السفه والتخريف، فما هى مسئولية البدوى عنها؟ وهل معنى ذلك انه لم يكن يصلى فوجد من يبرر له ذلك ويدبر له مكانا فى جزيرة نائية على مسيرة ستين سنة ليصلى فيها العصر؟

يجب ان نضع فى اعتبارنا ان هذه الاقاصيص لم توضع فى حياة السيد البدوى «القرن السابع الهجرى» وانما بعد عصره بثلاثة قرون او تزيد، اما الذين اوصوا بها فهم جماعة المنتفعين بالدجاجة التى تبيض ذهبا. ونعنى بها صندوق النذور وما يماثله من مصادر النفع التى كانت تفيض على كل من يلوذ بالطريقة الاحمدية، واما المسئول الاول عن ترويج هذه الخرافات فهو الشيخ عبد الوهاب الشعرانى الذى الف «طبقات الصوفية» و «لطائف المنن» واطلق فيهما لخياله العنان لابتكار قدرات ومعجزات لزعيم اولياء مصر، وما قصد بتبجيل الرجل وتعظيمه، وانما قصد تبرير الوضع المتردى الذى آلت اليه الجماعات الصوفية وبيوتها عششا للفساد والانحلال والتهتك.

والصورة التى تقدمها لنا الكتب التى ارخت للصوفية فى ذلك العصر-المملوكى والعثمانى-صورة بشعة، تغاير تماما الصورة التى كان عليها التصوف عند ازدهاره، واليك هذه الصورة التى يرسمها الدكتور السيد حراز فى كتابه «مدخل الى تاريخ مصر الحديث».

وكان مشايخ الطريق يتمتعون بنفوذ لدى الحكام والرعية، فلا ترد لهم شفاعة، كما كانوا موضع تكريم ومحبة جماهير الشعب ولم يكونوا جميعهم مخلصين فى الزهد والورع، بل كان بعضهم يرتكب الفحشاء فى الحدائق والخرائب ليلا، ونزلوا بالمستويات الخلقية الى حد لم تعرفه مصر فى تاريخها الطويل، وبلغ بهم الامر انهم كانوا يقولون ان ما يفعلونه مقدر عليهم ولا مهرب لهم منه كما زعموا انهم اتصلوا بالله اتصالا من شأنه ان يسقط عنهم التكاليف الشرعية، وكان بعض ادعياء التصوف يتخذون منه ستارا لابتزاز الاموال والتلذذ بالحياة، وبعضهم كانوا مختثين وملحدين، الا ان احد لم يستطع ان

يتعرض لهم بسوء. اذ كان ارباب التصوف عموما-الحقيقيون والادعياء-قوة يخشى بأسها. وكان بعض مشايخ الادعياء منهم يروجون لفكرة انه لابد للمعاصى من فاعل، ويدعون الى السكوت عن مفاسدهم وعدم التعرض لهم بالنقد، بدعوى ان نقدهم والتعرض لهم باللسان حرام.. وجالب لغضب الله.

فى هذا العصر المتردى ظهر الشعرانى ليختلق المعجزات ويبتكر الكرامات وينسبها إلى السيد البدوى وما درى أنه أساء إلى الرجل ومسخ سيرته النقية، وجعله فى صورة منفرة، فليس مما يشرف زعيم أولياء مصر أن يقال عنه أنه كان إذا لبس ثوبا أو عمامة لا يخلعها لغسل أو غيره حتى تتوب على جسده. ونسى أن الاسلام دين النظافة والطهر، وليس مما يشرف البدوى أن يقول الشعرانى عن نفسه أنه لما تزوج زوجته مكثت معه بكرا خمسة شهور إلى أن جاء أحمد البدوى وأخذهما إلى مسجده ومكنه من إزالة بكارتها داخل ضريحه وفوق ركن القبلة..!!

والدراسات التاريخية الحديثة تتصدى لهذه الخرافات التى راجت فى كتب العصور المظلمة والتى استقرت فى أذهان البسطاء والسذج. لعل ابدع هذه الدراسات، ذلك البحث القيم الذى نشره الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتاب بعنوان «السيد البدوى شيخ وطريقة» وتعرض فيه بالنقد والتحليل لكل الاساطير التى نسجت من حول السيد البدوى، وفى نفس الوقت وضع هذا القطب الكبير فى المكانة اللائقة به. فأبدى أسفه إذ تعرض تاريخ العالم الجليل البدوى لكثير من المسخ والتشويه.

ثم يصف الرجل بأنه فاضل ما هناك شك وسيرته نقية وعطرة بكل يقين، ولكن الذين ترجموا له شوهوا تلك السيرة وأساءوا إليها إساءة بالغة، والثابت ان هذه الكتابات يرجع معظمها إلى جماعة المنتفعين من اتباعه يروجون له على مر الأجيال، ويختلقون القصص المبالغ فيها عن كراماته وإعجازه، وانتهزوا فرصة الجهل المطبق والتأخر الشديد اللذين اتصف بهما المجتمع المصرى منذ ايام المماليك، ليدخلوا ادعاءاتهم فى عقول البسطاء من عامة أهل البلاد. وخاصة أبناء الريف، وكل هدفهم من ذلك هو وضع البدوى فى مكانة الزعامة بالنسبة لأولياء مصر جميعا، وبعبارة أخرى فقد كان هدفهم من المبالغة فى هذه الكرامات هو اظهار السيد أحمد البدوى فى صورة قطب الأقطاب وولى الأولياء وكبير الصالحين والعباد، فمن أراد قضاء حاجة فلا داعى لاضاعة الوقت والجهد فى الطواف على صغار المشايخ، وانما عليه بالتوجه الى مقام السيد أحمد البدوى، وبقدر المدفوع يكون الاجر والثواب.

التصـــوف

فى معنى اشتقاق اسم التصوف

قال السهروردى[1] ـ رحمه الله: اختلف الناس فى اشتقاق اسم التصوف، فقال بعضهم: اشتقاقه من لبس الصوف. وقال آخرون: اشتقاقه من الصفا. وقال بعضهم: اشتقاقه من الصفة. وقال بعضهم: هو مفعول من الصفا، يقال: «صوفى» أى صفاه الله كما يقال: عوفى أى عافاه الله.

وقال أبويزيد البسطامى[2]: إنما سميت الصوفية بهذا الاسم لأن الحق أنار لهم نوراً شعشعانياً، فرمقته الأبصار بتلاحظها عن كامن وجد وظاهر علم فمن لاحظه بكامن وجد سمى صوفياً، ومن لاحظه بظاهر علم سمى صالحاً.

وقد قيل فى هذا المعنى ثلاثة أجوبة: جواب شرط العلم، وهو تصفية القلوب من الأكدار واستعمال الخلق مع الخليفة واتباع الرسول فى الشريعة. وجواب بلسان الحقيقة وهو عدم الأملاك والخروج من رق الصفات، والاستغناء بخالق الأرض والسماوات وجواب بلسان الحق أصفاهم الصفا فسموا صوفية.

---

(١) أنظر: عوارف المعارف لأبى حفص عمر السهروردى، ٢٠٤/١، وأنظر ترجمته فى الكواكب الدرية للمناوى ١٤٤/٢، واليافعى: مرآة الجنان ٧٩/٤.

(٢) هو طيفور بن عيسى، أبويزيد البسطامى، المتوفى سنة ٢٦١هـ، أنظر: حلية الأولياء ٣٣/١٠، والسلمى طبقات الصوفية ٦٧-٧٤، والمناوى: الكواكب الدرية ٤٤٢/١-٤٥٥.

والتصوف في اللغة: «التفعل» من لبس الصوف، يقال لمن لبس الصوف: تصوف، ومن لبس القيمص تقمص، ومن لبس الدرع تدرع، والأصح في المعتمد عليه هو التحلي بلباسه والتوسم باسمه، لأن الصوفية لم ينفردوا من العلم دون الورع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والطاعات لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق المرضية، وهم مع الله سبحانه وتعالى في الانتقال من حال إلى حال، مستجلبين للزيادة، فلما كانوا في الحقيقة لذلك لم يكونوا مستحقين لاسم دون اسم ولا يضيفون إليهم حالاً دون حال ولا علماً دون علم، ولا أضيف إليهم في كل وقت غير ما يكون، إلا الأغلب من أحوالهم وأعمالهم لكان الواجب أن يسميهم في وقت باسم آخر لأنهم معدن جميع ذلك، ولما ضاق ذلك نسبهم إلى ظاهرة النسبة لأن لبس الصوف دأب الأنبياء والصديقين قبل الصوفية حتى يكون اسماً متحملاً عاماً مخبراً عن جميع النسك.

أصل ما بنى عليه التصوف

قال سهل بن عبدالله التسترى[١]: أصول مذهبنا ثلاثة أشياء: أكل الحلال، والاقتداء برسول الله ﷺ فى الأخلاق والأفعال، وإخلاص النية فى جميع الأحوال. وقال الجنيد[٢] رحمه الله: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا العلم - أعنى التصوف - لأن علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، ثم قال: كنا لا نعنى بالصوفى إذا تصوف لغير علم.

وقال أبوحفص الحداد: أصل مذهبنا ثلاثة أشياء: السكون إلى الله، وقلة الغذاء، والهرب من الخلق. وقال الجنيد: أصل مذهبنا سيئان: المراقبة فى كل حال، والعلم على طاهرة قائمة. وقال أيضاً: مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة وقيل لأبى أحمد القلانسى: على أى شىء بنيت أصل مذهبك؟ فقال: على ثلاث خصال: لا نطالب أحد من الناس بواجب حقنا، ونطالب بحقوق الناس، ونلزم أنفسنا التقصير فى جميع ما نأتى به، وقال غيره بنينا أصل مذهبنا على ثلاثة: متابعة الأمر والنهى، ومعانقة الفقر، والشفقة على الخلق، وقال الجنيد - رحمه الله -: من تكلم فى هذا العلم بغير منازلة الأحوال والمقامات لم ينتفع به المستمع.

وقال شاه الكرمانى - رحمه الله -: من نطق عن درجة لم يرق إليها كان حقيقياً على الله أن يحرمه تلك الدرجة فلا ينالها أبداً. وقال الجنيد: من خالفت إشارته معاملته فهو كذاب مدع.

وقال ابن عياض[٣]: إذا نزع من باطن الإنسان الخيرات أطلق لسانه بالدعاوى

---

(١) توفى سهل التسترى سنة ٢٨٣هـ، وكان من متكلمى الأشعرية الزاهدين.

(٢) توفى أبوالقاسم الجنيد سنة ٢٩٧هـ.

(٣) توفى الفضيل بن عياض سنة ١٨٧هـ.

العظيمة ودقائق العلوم، وقال حذيفى المرعشى: دخلنا مكة مع إبراهيم بن أدهم[1] فإذا شقيق البلخى[2] فى تلك السنة يحج، واجتمعنا جميعاً فى الطواف، فقال إبراهيم لشقيق: على أى شىء أصلتم أصلكم؟ فقال: على أنه إذا رزقنا حمدنا، وإذا منعنا صبرنا، فقال إبراهيم: هذه صفة كلاب بلخ، إذا رزقت أكلت، وإذا منعت صبرت، فقال له شقيق: على ماذا أصلتم؟ فقال: أصلنا أصلنا على أنا إذا رزقنا آثرنا وإذا منعنا حمدنا وشكرنا، وقال: فجلس بين يدى إبراهيم وقال: أنت أستاذنا وشيخنا، وقال الجنيد: أصل هذا المذهب إيثار، فمواساة، فإن لم يكن المواساة، فالمعاناة، فمن فقد نفسه فى هذه الثلاثة لم يدخل حضيرة القوم وهو بعيد خارج، وقال حمدون القصار[3]: إن السلف اتخذوا هذه الطريقة بالتقوى والورع لا بالدعاوى، قال تعالى فى قصة سيدنا موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[4].

(١) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور، المتوفى سنة ١٦١هـ.

(٢) هو محمد بن الفضل البلخى، المتوفى سنة ٣١٩.

(٣) هو أبوصالح حمدون القصار، شيخ أهل الملامة فى نيسابور فى عصره، توفى سنة ٢٧١هـ.

(٤) سورة الكهف: ٦٦.

فى شرائط التصوف

أعلم أن شرائط التصوف ما كان عليه المشايخ المتقدمون من الزهد فى الدنيا، والاشتغال بالذكر والعبادة والاستغناء عن الناس، والقناعة والرضى بالقليل فى المطعوم والملبوس والمشروب، ورعاية الفقر وترك الشهوات، والورع والمجاهدة وقلة النوم وقلة الكلام وجمع الهمة والمراقبة، والوحشة من الخلق والغربة، والفرار بالدين العزيز، ولقاء المشايخ والأكل على الفاقة، والكلام للضرورة، والنوم على الغلبة والجلوس فى المساجد، ولباس المرقع والرث، فمن كان على ذلك فالكتاب ناطق بقوله، والرسول ﷺ شاهد بقوله.

فينبغى للعاقل فى زماننا هذا أن يعرف شيئاً من أصول الصوفية وفصولهم، وطريقة أهل الصدق منهم، حتى يميز بينهم وبين المتشبهة بهم، والمتلبسين بلبسهم، والمتسمين باسمهم، وأن يعلم أن الصوفية هم أمناء الله فى أرضه، وخزنة أسراره وعلمه، وصفوته من خلقه، وهم ممدوحون على لسان النبى ﷺ، لما روت عائشة رضى الله عنها، أن النبى ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى أهل الجنة فلينظر إلى أشعب أغبر شاحب مشمر، لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، رفع علم فشمر إليه، اليوم المضمار وغدا السباق، والغاية الجنة أو النار».

فهذا الحديث يجمع حديث الصوفية كلها وأفعالهم، فمن أنكر هذا المذهب فلقلة معرفة وقلة الاهتداء بحقائقه لأن العزيز قليل وقل من يعرفه ويختص به: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾(١) والذى يدعى على المذهب بتعطيل الجوارح عن العبودية والخدمة والطاعات وتعطيل القلب من الذكر والإرادة وجمع الهمة ومعرفة الواردات وإخلاص النية ولا يؤدى حقه ولا يدعى حقائقه فللطافة رسمه ورعونته، يدعى التصوف

(١) سورة الأحقاف: ١١.

ليقربه عند الناس ويأكل به ويتخذ الجاه بإظهاره فإذا بدت له حقائق من الفقر والفاقات والذل والمكروهات، وطولب بالخدمة والمجاهدات فر وذهب وخسر وافتضح، وصار يترك حاله خارجاً عنه وتكون دعواه بظاهر لباس المرقعات والمصبوغات، بلا خشية ولا مراقبة ولا ورع ولا مجاهدة ولا ذكر ولا معاملة، فإنه يسخر من نفسه والتصوف يلعنه والدعاوى تحجبه والشياطين تقربه والملائكة تبعده، والله يمقته، وأهل التصوف خصماؤه، فمن لم يكن للعلم مستعملاً، وفي الإرادة مبادراً، وفي الوجد سابقاً، وفي المعرفة محققاً، وادعى التصوف كان مرتهناً بدعواه، متبعاً لهواه، محجوباً عن معناه، فاتق الله يا أخي، واحفظ الظاهر وتعلق بالأصل والباطن، فكل باطن من العلم لا يشهد له ظاهر منه فهو ضلالة، وإذا لم يكن التصوف سمت يعرف به، وهدى يهتدى به، وصلاح في طريقه، واقتصاد في سيره، وصدق في جميع أحواله، فإنه يصح له التصوف، ومن كان عنده التصوف: التمتع بالأكل والشرب والشهوات وموافقة العامة في الحركات، وموافقة النفوس في سماع المكروهات، وأكل المحرمات ومخالطة النسوان، فإنه عن التصوف بعيد، وكانت دعواه حجاباً لمعناه، فمن لا يشهد بتصوفه آثار المتقدمين من مشايخ الصوفية كان من المدعين، جعلنا الله وإياكم من المهتدين.

أوصى الثوري[1] – رحمه الله تعالى – لبعض أصحابه: يا بني أوصيك بعشرة وأي عشرة، احتفظ بهن وأعمل بهن جهدك، فأول ذلك: من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن علم الشريعة فلا تقربن منه، والثانية: من رأيته يسكن إلى الرياسة والتعظيم فلا تقربن منه والثالثة: من رأيته يركن لغير أبناء جنسه فلا تقربن منه، والرابعة: من رأيته يركن إلى أبناء الدنيا أو يشكو جوعاً أو ضراً فلا تقربن منه، وإن رافقك فلا ترافقه، فإن مرافقته تقسي قلبك أربعين صباحاً، والخامسة: من رأيته يستغني بعلمه فلا تأمن من جهله، والسادسة: من رأيته يدعي حالة باطنة لا يدل عليها، ولا يشهد لها حفظ ظاهره، فاتهمه في دينه، والسابعة: من رأيته يرضى من نفسه ويسكن إلى وقته، فاعلم أنه مخدوع فاحذره، والثامنة: من رأيته من المريدين يسمع إلى القصائد، ويميل إلى الرفاهة لا ترج خيره، التاسعة: فقير لا تراه عند السماع حاضر القلب، فاعلم أنه حرم بركات ذلك لتشويش سره وتبديد همته، والمراد بهذا السماع سماع القرآن وكلام القوم حيث لا يشوبه دف ولا شبابه ولا نساء ولا شباب، العاشرة: من رأيته مطمئناً إلى أصدقائه وإخوانه وأصحابه مدعياً لكمال الخلق بذلك، فاشهد له بخسافة عقله ووهن ديانته.

(١) هو سفيان بن سعيد الثوري، وانظر الرسالة القشيرية ص٥٤.

فى مبنى علوم الصوفية

قــال الشــيخ شــهــاب الدين السـهـروردى فى «عـوارفـه» عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجا، فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم، فذلك مثل من أطاعنى فنجا فاتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق».

وقال ﷺ: «ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت طائفة منها أخادات أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه بما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».. قال الشيخ أيده الله: أعد الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله ﷺ أصفى القلوب وأزكى النفوس فظهرت تفاوت الصفاء والتزكية فى تفاوت الفائدة والنفع، فمن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة أنبتت الكلأ والعشب الكثير. وهذا مثل ما انتفع بالعلم فى نفسه واهتدى ونفعه علمه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله ﷺ ومن القلوب ما هى بمثابة الأخادات أى الغدران وهى المصنع والغدير الذى يجتمع الماء فيه، فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تركت وصفت قلوبهم واختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخادات.

قال مسروق: صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالأخاذ، لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم، بما رزقت من صفاء الفهوم.

قال الشيخ: فقلوب الصوفية وعت لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس

التقوى فبالتقوى تزكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد انفتحت مسام بواطنهم وسمعت آذان قلوبهم وأعانهم على ذلك زهدهم، قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الماء العلم، والأودية القلوب فصفت القلوب من وصول ذلك الماء إليها.

وقال ابن عطاء(٢): ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ : هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد، إذا سال السيل فى الأودية لا يبقى فى الأودية نجاسة إلا كنسها، وذهب بها، لذلك إذا سال النور الذى قسمه الله تعالى للعبد فى نفسه، لا يبقى فيه غفلة ولا ظلمة، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعنى قسمة النور، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يعنى فى القلوب الأنوار على ما قسم لها فى الأزل، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فتصير القلوب منورة لا يبقى فيها جفوة، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾(٣)، تذهب البواطل وتبقى الحقائق.

قيل للحسن البصرى: هكذا قال الفقهاء، قال: وهل رأيت فقيها قط؟ إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا، وأعلم أن قلب رسول الله ﷺ كان بحراً مواجاً بالعلم والهدى ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس، فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريه، فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها، ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريانة ناضرة فلما استتم ناظره وامتلأ نظره ريا، بعثه الله تعالى إلى الخلق، فأقبل على الأمة بقلب مواج بمياه العلوم، فاستقبله جداول الفهوم، وجرى من بحره فى كل جدول قسط ونصيب، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو القسط فى الدين.

روى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شىء عماد، وعماد الدين الفقه».

وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى»، قال الشيخ: إذا وصل ماء العلم الفهم انفتح بصر القلب فأبصر الحق والباطل وتبين له الرشد من الغى. وروى عبدالله بن عباس: أفضل العبادة الفقه فى الدين. قال الشيخ – رحمه الله

(١) سورة الرعد: ١٧.

(٢) تاج الدين أبوالفضل أحمد بن محمد بن عبدالكريم، ابن عطاء السكندرى، توفى سنة ٧٠٩هـ، أنظر ترجمته فى الدليل الشافى ٧٨/١، حسن المحاضرة ٥٢٤/١، الدرر الكامنة ٢٩١/١، المنهل الصافى ١٢٠/٢، النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨، الديباج المذهب ص٧٠، مداخل الأسماء العربية القديمة ١٠٣٣/٢.

(٣) سورة الرعد: ١٧.

تعالى -: والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه في الدين صفة القلب فقال تعالى: {لهم قلوب لا يفقهون بها} فلما فقهوا علموا ولما علموا عملوا، ولما عملوا عرفوا، ولما عرفوا اهتدوا، فكل من كان أفقه، كانت نفسه أسرع إجابة، وأكثر انقياداً لمعالم الدين، وأوفر حظاً من نور اليقين، فالعلم موهبة من الله تعالى للقلوب، والمعرفة تميز الجملة، والهدى وجدان القلوب، لذلك فالنبي ﷺ يقول: «مثل ما بعثني الله به من العلم»، أخبر أنه وجد القلب النبوي للعلم فكان هادياً مهدياً، وعلمه صلوات الله عليه وسلامه منها وارثة معجونة فيه من آدم أبي البشر صلوات الله عليه حيث قال: علمه الأسماء والأسماء سمة الأشياء، فكرمه الله تعالى بالعلم وقال: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(1) فالنبي ﷺ بعث بالنور الموروث والموهوب له خاصه.

قال عبدالله بن عباس: أصل طينة رسول الله ﷺ من سرة الأرض بمكة وقيل: لما خاطب الله السموات والأرض بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(2)، نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة، ومن السماء ما يحاذيها، وقال بعض العلماء هذا يشعر بأن أول من أجاب من الأرض درة المصطفى محمد صلوات الله عليه، ومن موضع الكعبة حيث الأرض فصار رسول الله ﷺ هو الأصل في التكوين والكائنات تبعاً له، وإلى هذه الإشارة بقوله عليه الصلوات والسلام: «وكنت نبياً، وآدم بين الماء والطين»، وفي رواية «بين الروح والجسد»، وقيل لذلك سمي أمياً لأن مكة أم القرى ودرته أم الخليقة - وتربة الشخص مدفنه - ولكن قيل: إن الماء لما تموج، رمى الزبد إلى النواحي، فوقعت جوهرة النبي ﷺ إلى ما يحاذي تربته من المدينة، فكان رسول الله ﷺ مكياً مدنياً، حنينه إلى مكة وتربته بالمدينة، والإشارة فيما ذكرناه من درة رسول الله ﷺ هو ما قال الله تعالى: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾(3)؟ ورد في الحديث: أن الله تعالى مسح على ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر، واستخرج الذر من مسام شعر آدم واستخرج الذر كخروج العرق.

وقيل: كان المسح من الملائكة، فأضاف الفعل إلى المسبب.

وقيل: معنى القول إنه مسح أي أحصى كما تحصى الأرض بالمساحة، وكان ذلك ببطن نعمان - واد بجنب عرفة بين مكة والطائف - فلما خاطب الذر وأجابوا ببلى، كتب

(1) سورة العلق: ٥.

(2) سورة فصلت: ١١.

(3) سورة الأعراف: ١٧٢.

العهد فى ورق أبيض، وأشهد عليها الملائكة، وألقمه الحجر الأسود، فكانت ذرة رسول الله ﷺ هى المجيبة من الأرض، والعلم والهدى فيه معجون، فبعث بالعلم موروثاً وموهوباً، فبعثه الله بالعلم والهدى، وانتقل من علمه الكريم إلى القلوب، ومن نفسه الشريفة إلى النفوس، فوقعت المناسبة فى أصل طهارة الطينية، ووقع التآليف فى الأزل، فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كان أوفر حظاً من قبول ما جاء به، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة، فأخذت من العلم حظاً وافراً، وصارت بواطنهم أخادات، فعلموا وعملوا كالأخاد الذى يستقى منه ويزدرع منه، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(١).

(١) سورة الجمعة: ٤.   (٢) سورة الأنفال: ٢٢.

فى بيان تخصيص الصوفية بحسن السماع

عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرءا سمع منا حديثاً فحفظه حتى بلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه غير فقيه». أساس كل خير حسن الاستماع، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾(١) قال بعضهم: لو علمهم أهلاً لاستماع لفتح آذانهم للاستماع، فمن تملكه الوساوس وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدر على حسن الاستماع، فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى بحراً من أبحر العلم بما يتضمن من ظاهر العلم وباطنه وجليه وخفيه، وبابا من أبواب الجنة باعتبار ما تنبه لو يدعو إليه من العمل، ورأوا من كلام رسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى من عند الله فتعين الاستماع إليه، فكان من أهم ما عندهم الاستعداد، ورأوا أن أحسن الاستماع قرع باب الملكوت، واستنزال بركة الرغبوت، ورأوا أن الوساس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة السوء، وقتام يتراكم من نفث الشيطان، وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التى هى مناط الهوى ومنار الردى بمثابة الحطب التى تزداد النار به تأججاً، ويزداد القلب به تخرجاً، فرفضوا وزهدوا فيها، فلما انقطعت عن نار النفس اخطأ بها فترات نيرانها وقل دخانها، شهدت بواطنهم وقلوبهم مصادر العلوم، فهيئوا مواردها بصفاء الفهوم، فلما شهدوا وسمعوا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٢)، قال الشبلى: موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله تعالى لا يغفل عنه طرفة عين، قال بعضهم: لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض.

وقال الحسن: لمن كان له قلب لا يخطر فيه إلا شهود الرب.

وأنشد: (من البسيط)

---

(١) سورة الأنفال: ٢٣.

(٢) سورة ق: ٣٧.

أبغى إليك قلوباً طالما هطلت
سحائب الوحى فيها أبحر الحكم

وقال ابن عطاء: قلب لاحظ الحق بعين التعظيم فذاب له وانقطع إليه عما سواه.

وقال الواسطى: {لذكرى} أى لقوم مخصوصين لا لسائر الناس، {لمن كان له قلب} أى: فى الأزل، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(١).

وقال أيضاً: المشاهدة تذهل والحجة تفهم، لأن الله تعالى إذا تجلى لشىء خضع له وخشع.

وهذا الذى قاله الواسطى صحيح فى حق أقوام، وهذه الآية تحكم بخلاف هذا لأقوام آخرين، وهم أرباب التمكين تجمع لهم بين المشاهدة والفهم، فموضع الفهم تحل المحادثة والمكالمة، وموضع سمع القلب وموضع المشاهدة نظر القلب، والسمع حكمة وفائدة والبصر حكم وفائدة، فمن هو فى سكر الحال يغيب سمعه فى بصره، ومن هو فى حال الصحو والتمكين لا يغيب سمعه فى بصره، لتملكه ناصية الحال، ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد لفهم المقال، لأن الفهم مورد الإلهام والسماع، والإلهام والسماع يستدعيان وعاء وجودياً، وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثابتاً، للتمكن فى مقام الصحو، وهو غير الوجود الذى يتلاشى عنه لمعان نور المشاهدة لمن جار على ممر الفناء إلى مقام البقاء.

وقال ابن شمعون: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾(٢) يعرف آداب الخدمة.

وآداب القلب ثلاثة أشياء: فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة، فمن وقف عند شهوته وجد ثلث الأدب، ومن افتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثى الأدب، والثالث امتلاء القلب بالذى بدا بالفعل عند الوفاء تفضلاً، وقال محمد بن على: موت القلب من شهوات النفس، فكلما رفض شهوته نال من الحياة بقسطها، فالسماع للأحياء لا للأموات قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾(٣).

قال سهيل بن عبدالله: القلب رقيق تؤثر فيه الخطوات المذمومة، وأثر القليل عليه كثير، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(٤)، فالقلب عمال لا يفتر، والنفس تعطى لا ترقد، فإن كان العبد مستمعاً إلى الله، وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٢.
(٢) سورة ق: ٣٧.
(٣) سورة النمل: ٨٠.
(٤) سورة الزخرف: ٣٦.

وقد ورد: «لولا الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

وقال الحسين: بصائر المبصرين ومعارف العارفين ونور العلماء الربانيين وطريق السابقين الناجين، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقال ابن عطاء: هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده، ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة، فيستمع به، بل يسمع منه، ويشهد به، بل يشهد، فإذا لاحظ القلب الحق بعين الجلال فزع وارتعد، وإذا طالعه بعين الجمال هدى واستقر.

وقال بعضهم: {لمن كان له قلب} بصير يقوى على التجريد مع الله والتفريد له حتى يخرج من الدنيا والخلق والنفس، ولا يشتغل بغيره ولا يركن إلى سواه فقلب الصوفى مجرد عن الاكوان، ألقى سمعه وشهد بصره فسمع المسموعات وأبصر المبصرات، وشاهد المشهودات لتخلصه إلى الله تعالى واجتماعه بين يدى الله تعالى.

وأعلم أن قلب الصوفى فى نازلة حلاوة الحب الصافى، والحب الصافى يعلق الروح بالحضرة الإلهية، ومن قوة انجذاب الروح بالحضرة الإلهية بداعية الحب يستسمع القلب والنفس وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى، لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، لكونها لا ترتقى عن النفس، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء لأنها متصلة فى الروح بفرعها عند الله، وعروقها سارية فى أرض النفس، فإذا سمع الكلمة من القرآن ومن كلام الرسول ﷺ، يشتريها بالروح والقلب والنفس ويفديها بكليته ويقول: (من البسيط).

أشم منك نسيماً لست أعرفه

أظن لما حرت فيك أردانا

فتعمه الكلمات وتشمله ويصير كل شعره منه سمعاً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل، ويبصر الكل بالكل، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِى الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(١)، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٢).

(١) سورة الزمر: ١٨.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: تنسموا روح ما دعاهم إليه، فأسرعوا إلى محو العلائق المشغلة، وهجموا بالنفوس على معانقة الجد، وتجرعوا مرارة المكابدة، وصدقوا الله فى المعاملة، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه، وهانت عليهم المصائب، وعرفوا قدر ما يطلبون.

وقال ابن عطاء فى هذه الآية: الاستجابة على أربعة أوجه: أولها: إجابة التوحيد، والثانى: إجابة التحقيق، والثالث: إجابة التسليم، والرابع: إجابة التقريب، فالاستجابة على قدر السماع، والسماع من حيث الفهم والمعرفة على قدر المعرفة، والعلم بالتكلم ووجوه الفهم لا تنحصر، لأن وجوه الكلام لا تنحصر ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى﴾[1]، فلله فى كل كلمة من القرآن كلماته التى ينفد البحر دون نفاذها.

قال أبوالدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة، فإذا تحقق الصوفى بوصف ما ذكر صار وقته سرمداً، وشهوده مؤيداً، وسماعه متوالياً متجدداً، يسمع كلام الله وكلام رسول الله ﷺ حق السماع.

قال سفيان بن عيينة: أولاً العلم، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر، وقال بعضهم: تعلم حسن السماع كما تتعلم حسن الكلام والله الموفق.

---

(١) سورة الكهف: ١٠٩.

فى بيان فضيلة علم الصوفية

عن بقية عن الأحوص بن حكيم عن أبيه قال: سأل رجل النبى ﷺ عن الشر فقال: «لا تسألونى عن الشر وسلونى عن الخير»، يقولها ثلاثاً، ثم قال: «إن شر الشر شرار العلماء، وإن خير الخير خيار العلماء»

قال الشيخ الإمام – رحمه الله تعالى –: فالعلماء أدلاء الأمة وعمد الدين وسرج ظلمات الجهالات الجبلية، ونقباء ديوان الإسلام، ومعادن حكم الكتاب والسنة، وأمناء الله تعالى فى خلقه، وأطباء العباد، وجهابذة الملة الحنيفية وحملة أعظم الأمانة، فهم أحق الخلق بحقائق التقوى، وأحوج العباد إلى الزهد فى الدنيا، لأنهم لنفسهم ولغيرهم، فسادهم فساد متعد، وصلاحهم صلاح متعد.

قال سفيان بن عيينة: أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم، وأعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله، وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعلمه، فليس بعالم، لا يغرنك تشدقه بالعلم، واستطالته على الناس، وحذاقته وقوته فى المناظرة والمجادلة، فإنه جاهل وليس بعالم، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم، والعلم فريضة وفضيلة، فالفريضة ما لابد للإنسان من معرفته ليقوم بواجب حق الدين، والفضيلة ما زاد على قدر حاجته، مما يكسبه فضيلة فى النفس موافقة للكتاب والسنة، وكل عمل لا يوافق الكتاب والسنة وما هو مستفاد منهما أو معيناً على فهمهما أو مستنداً إليهما – كائناً ما كان – فهو رذيلة وليس بفضيلة، يزداد الإنسان به هواناً ورذالة فى الدنيا والآخرة، فالعلم الذى هو فريضة لا يسع الإنسان جهله.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أطلبوا العلم ولو فى الصين، فإن العلم فريضة على كل مسلم».

واختلف العلماء فى العلم الذى طلبه فريضة، فمن قائل كذا وكذا. والصحيح أن العلم

الذى طلبه فريضة، هو علم الفرائض الخمس التى بنى عليها قواعد الإسلام لأنها افترضت على المسلمين، وإذا كان عملها فرضاً، صار علم العمل فرضاً، وذكر أن علم التوحيد داخل فى ذلك، لأن أولها الشهادات، وعلم الإخلاص داخل فى صحة الإسلام، ويشتق من ذلك علم الحلال والحرام، وعلم الأمر والنهى، والمأمور به، وما يثاب الإنسان على فعله، وما يعاقب على تركه، وهذا الحد أعم الوجوه، والله أعلم ثم إن المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا، شمروا عن ساق الجد فى العلم المفترض حتى عرفوا وأقاموا الأمر والنهى وخرجوا عن عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى فلما استقاموا بذلك متابعين لرسول الله ﷺ حين أمره الله تعالى بالاستقامة فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[1]، فتح الله عليهم أبواب العلوم.

قيل لأبى حفص: أى الأعمال أفضل؟ قال الاستقامة لأن النبى ﷺ يقول: «استقيموا ولا تحصوا».

وقال جعفر الصادق فى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: افتقر إلى الله بصحة العزم. رأى أحد الصالحين رسول الله ﷺ فى المنام، قال: قلت يا رسول الله روى عنك أنك قلت: «شيبتنى هود وأخواتها» فقال: «نعم» فقلت له: ما الذى شيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال: «لا» ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، فكما أن النبى ﷺ بعد مقدمات مقامات المشاهدات خوطب هذا الخطاب وطولب بحقائق الاستقامة.

وأعلم أن علماء الآخرة الزاهدين ومشايخ الصوفية المقربين منحهم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب، ثم ألهمهم النهوض بواجب حق الاستقامة، ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمول.

وقال أبوعلى الجوزجانى[2]: كن طالب الاستقامة ولا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة، وهذا الذى ذكره أصل كبير فى الباب وسر غفل حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبدا نفوسهم تطلع إلى شىء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب

(١) سورة هود: ١١٢.

(٢) هو الحسن بن على، أبو على الجوزانى، انظر ترجمته فى حلية الأولياء ١٠/٣٥٠، وطبقات الصوفية للسلمى ص٢٤٦.

متهماً لنفسه فى صحة عمله لم يكشف له بشىء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر فيه، وذلك أن أعظم الكرامات الاستقامة على الدين القويم، والاقتداء بسيد المرسلين، واتباع طريق عباد الله الصادقين، بحسن التسليم والانقياد، فذلك من أعظم الكرامات، فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهى كل الكرامة، ولا يقدح فى حقه عدم الكرامة، وليس ذلك نقص فى طريقه، بل يخاف على المغرور من وجود الكرامة أن يغتر، أو تتعاظم نفسه، أو يرى له حالاً أو مقاماً على غيره من أقرانه، أو أن غيره أقل حالاً منه، حيث لم تحصل له هذه الكرامة، فيرى تمييزه على غيره، فيسقط عن درجة السالكين والعياذ بالله تعالى.

والعلماء الزاهدون والمشايخ من الصوفية المقربون، حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة ورزقوا من العلوم التى أشار إليها المتقدمون مما هو مفروض، وعلموا من ذلك علم الحال، وعلم القيام، وعلم الخواطر، وعلم اليقين، وعلم الإخلاص، وعلم النفس ومعرفة أخلاقها، ومعرفة النفس من أعز علوم القوم، وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية، أقومهم بمعرفة النفس ودسائسها وخفايا شهواتها، ومعرفة أقسام الرياء وجود دقائق الهوى ومطالبته بالوقوف على الضرورة قولاً وفعلاً ولبساً وأكلاً ونوماً، ومعرفة حقائق التوبة، وعلم خفى الذنوب، ومعرفة السيئات التى هى حسنات الأبرار، ومطالبة النفس بترك ما لا يعنى ومطالبة الباطن بحصر خواطر المعصية، ثم بحصر خواطر الفضول، ثم علم المراقبة، وعلم ما يقدح فى المراقبة، وعلم المحاسبة، وعلم الرعاية، وعلم حقائق التوكل، فمن لا يلتمس من هذه العلوم شيئاً فهو ناقص فى طريقه، وإن بعض هذه العلوم يحصل بعدم الغفلة والعزلة ودوام الذكر والاستقامة على طريق الله تعالى، وهذه كلها علوم من ورائها علوم، وأعلم أن هذه العلوم لا تحصل مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى، ولا تنكشف هذه العلوم إلا بمجانبة الهوى، ولا تدرس إلا فى مدرسة التقوى، قال الله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(1)، جعل العلم ميراث التقوى فلاحاً لعلماء الآخرة، إن الطريق مسدود إلى أنصبة المعارف ومقاومات القرب إلا بالزهد والتقوى.

قال أبويزيد البسطامى يوماً لأصحابه: بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لا إله إلا الله فما قدرت عليه، قيل: ولم؟ قال: ذكرت كلمة قلتها فى صباى جاءنى وحشة تلك الكلمة فمنعنى عن ذلك، وأعجب ممن يذكر الله وهو متصف بشىء من صفاته، فبصفاء التقوى والزهادة يصير العبد راسخاً فى العلم، قال الواسطى: الراسخون فى العلم هم

(1) سورة البقرة: ٢٨٢.

الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب وفى سر السر، فعرفهم ما عرفهم، وخاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فانكشف لهم من مدخور الخزائن تحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم.

واعلم أن المتقى حق التقوى، والزاهد حق الزهادة فى الدنيا، صفاً باطنه وانجلا مرآة قلبه، أوحى الله تبارك وتعالى فى بعض الكتب المنزلة: يا بنى إسرائيل لا تقولوا العلم فى السماء، من ينزل به؟ ولا فى تخوم الأرض، من يصعد به؟ ولا من وراء البحار من يعبر ويأتى به؟، العلم مجعول فى قلوبكم، تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين، وتخلقوا بأخلاق الصديقين أظهر العلم فى قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم، فالتأديب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تعاطى جبلاتها وقمعها بصريح العلم فى كل قول وفعل، ولا يصح ذلك إلا لمن علم وقرب، وطرق إلى الحضور بين يدى الله فينخفض للحق بالحق.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية، وقد ورد: «فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى»، وورد: «لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»، والاشارة فى هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق، وإنما الاشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين، يكون العبد عالماً بالله ذا يقين كامل وليس عنده علم من فروض الكفايات، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من علماء التابعين، وقد كان علماء التابعين منهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم، قال بعضهم: إذا أراد الله بعبد سواء سد عليه باب العمل وفتح عليه باب الكسل، فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهراً وباطناً، كان حظهم من العلم أوفر، ونصيبهم من المعرفة أكمل، فكانت أعمالهم أزكى وأفضل، وهذا من أقوى دلائل علوم الصوفية، فما ظنك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم؟ قال ﷺ: «العلم علمان، فعلم ثابت فى القلب، وعلم جار على اللسان، وذلك حجة الله على خلقه»، وقال بعضهم: علم الشريعة علم المجاهدة، وعلم الحقيقة علم الهداية، ولن يصل أحد إلى حقيقة إلا بعد استفراغ الطرق فى المجاهدة، وقال رجل لذى النون المصرى: دلنى على طريق الصدق والمعرفة بالله تعالى، فقال له: أد إلى الله تعالى صدق حالتك التى أنت عليها على موافقة الكتاب والسنة، وقال عليه الصلاة والسلام: «كل عمل لا يعمل بسنتى فهو معصية عند الله تعالى»، وقال أبويزيد: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

فى شرح حال الصوفية
واختلاف طريقهم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل» ثم قال: «يا بنى، وذلك من سنتى ومن أحيا سنتى فقد أحيانى، ومن أحيانى كان معى فى الجنة».

وهذا أتم شرفاً وأكمل فضلاً أخبر به الرسول ﷺ فى حق من أحيا سنته، فالصوفية هم الذين أحيوه هذه السنة، وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم، وبذلك ظهر جوهرهم وبان فضلهم، وإنما قدروا على إحياء هذه السنة، ونهضوا بواجب حقها لزهدهم فى الدنيا، وتركها على أربابها وطلابها لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا، ومحبة الرفعة والمنزلة عند الناس والصوفية زهدوا فى ذلك كله، كما قال بعضهم: طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل إشارة منه إلى غاية التواضع، وأن لا يرى نفسه تتميز على أحد من المسلمين بحقارته عند نفسه، وعند هذا ينسد باب الغش والحقد والغل، قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(1)، قال أبوحفص: كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته وأنست بذكره، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفس وظلمات الطبائع، بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخواناً، فالخلق حجابهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله ﷺ قولا وفعلاً وحالاً بصفات نفوسهم، فإذا تبدلت نعوت النفس، ارتفع الحجاب وصحت المتابعة، ووقعت الموافقة فى كل شىء مع رسول الله ﷺ، ووجبت المحبة من الله عز وجل عند ذلك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(2)، جعل

---

(1) سورة الحجر: ٤٧.

(2) سورة آل عمران: ٣١.

محبة متابعة الرسول أتم محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه، فلوفر الناس حظاً من متابعة الرسول أوفرهم حظاً من محبة الله تعالى، والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة، لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(١)، ثم اتبعوه في أعماله من الجد والاجتهاد في العبادات والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك، ورزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال والتعلق بأخلاقه من الحياء والحلم والصفح والعفو والرأفة والشفقة والمداراة والنصيحة والتواضع، ورزقوا قسطاً من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتعظم والرضا والصبر والزهد والتوكل، فاستوفوا جميع أقسام المتابعة، وأحيوا سنته بأقصى الغايات، قيل لعبدالواحد بن زيد: ما الصوفية عندك؟ قال القائمون بعقولهم على هممهم، والعاكفون عليها بقلوبهم، والمعتصمون بسيدهم عن شر نفوسهم هم الصوفية، وهذا وصف تام وصفهم به وكان ﷺ دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأكلأني كلاة الوليد».

ومن أشرف ما ظفرت به الصوفية من متابعة الرسول ﷺ هذا الوصف وهو دوام الافتقار إلى الله تعالى ودوام اللجئ، ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الافتقار إلا عبد كوشف باطنه بصفاء المعرفة، وأشرق صدره بنور اليقين وخلص صدره إلى بساط القرب، وخلى سره بلذائذ المسامرة، فبقيت نفسه بين الأشياء كلها أسيرة مأمورة، ومع ذلك يراها مأوى كل شر، وهي بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالماً، وهي وشيكة بالرجوع سريعة الانقلاب والانفلات، فالله تعالى بكمال لطفه عرفها إلى الصوفي وكشفها له على كل شيء من معنى ما كشفه للرسول ﷺ فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها فكأنما جعلت سوطاً للعبد تسوقه لمعرفته بشرها مع اللحظات إلى جانب الالتجاء وصدق الافتقار والدعاء فلا يخلو الصوفي عن مطالعتها أدنى ساعة، كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة وربط معرفتها بمعرفة الله تعالى لما ورد: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، والله الموفق وبه المستعان.

---

(١) سورة الحشر: ٧.

فصل فى بيان ماهية التصوف

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شىء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين، والفقراء والصبر جلساء الله يوم القيامة»، والفقر كائن فى ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه.

قال رويم: التصوف مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقيق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار.

وقال الجنيد - رحمه الله تعالى - وقد سئل عن التصوف فقال: إن تكون مع الله تعالى بلا علاقة، وقال معروف الكرخى[1]: التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما فى أيدى الخلائق، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف.

وسئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال: إن لا يستغنى بشىء دون الحق، وقال بعضهم: إن الفقير الصادق يحترز من الغنى حذراً يدخل عليه الغنى فيفسد عليه فقره، كما أن الغنى يحترز من الفقر حذراً أن يدخل عليه الفقر فيفسد غناه، وأعلم أن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد وإضافات لا يكون الرجل بدونها صوفياً وإن كان زاهداً أو فقيراً. قال أبوحفص - رضي الله عنه -: التصوف كله آداب، ولكل مقام أدب ولكل وقت أدب ولكل حال أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، وبهذا يعرف أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر، وقيل: نهاية الفقر مع شرفه بداية التصوف، وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر، يقولون: قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2] هذا وصف الصوفية. والله تعالى سماهم فقراء، قال بعضهم: الصوفية آثروا الله على كل شىء، فآثرهم الله على كل شىء، فكان من إيثارهم أنهم آثروا علم الله على علم نفوسهم.

---

(١) أنظر ترجمته فى حلية الأولياء ٨/٣٦٠، وطبقات السلمى ص٨٣ وما بعدها. (٢) سورة البقرة: ٢٧٣.

وإرادة الله على إرادة نفوسهم، قيل لبعضهم من أصحاب من الطوائف: قال الصوفية فإن للقبيح عندهم وجهاً من المعاذير وليس الكثير من العمل عندهم وقوع يرفعونك به فتعجبك نفسك. وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد.

وقال عمرو بن عثمان المكي[1]: التصوف أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى فى الوقت.

وقال سهل بن عبدالله الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر، وسئل بعضهم عن التصوف فقال: تصفية القلب من موافقة البشرية، ومفارقات الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدعوات النفسانية، ومنازلة الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واتباع الرسول فى الشريعة.

وقال: الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية لايزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب من شوب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى الله تعالى.

وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول ويطول نقلها، والله تعالى الموفق وبه الحول والقوة.

(١) توفى ببغداد سنة ٢٩١هـ. انظر ترجمته فى حلية الأولياء ٢٩١/١٠، وطبقات السلمى ص٢٠٠.

فصل فى بيان أخلاق الصوفية

قال بعض المشايخ: لا يكون الصوفى صوفياً، حتى يعامل الله تعالى بست خصال، أولها: فقد الذى ألفته النفوس، والثانية: الصبر والإياس من الخلق، الثالثة: كتمان السرائر حتى لا يشكو الخالق إلى المخلوق، الرابعة: ترك المسألة لكى لا يهرب إلى الخلق من باب الحق، الخامسة: أن يظهر الغناء فى الفقر، السادسة: أن يعمل لله ولا يرى أنه يعمل شيئاً.

وقال المرتعش[1]: سافرت ثلاثين سنة، وصحبت سبعين شيخاً، وأوصانى كل منهم بخمس خصال كل منهم بلسان واحد، فقالوا: يا بنى إن أردت أن تصل إلى الله فاخرج حب الرياسة من قلبك، والثانى: أخرج حب الدنيا من قلبك، الثالث: أن لا تجالس الأحداث، الرابع: احفظ قلوب المشايخ، الخامس: لا تصاحب أبناء الدنيا، ففعلت ذلك بتوفيق الله فوصلت إلى ما أردت.

ورئى أبوبكر الأرموى فى النوم بعد وفاته، فقيل له: أى الأشياء وجدته أنفع؟ قال: صحبة الفقراء، قيل: وأى الأعمال أضر؟ قال: الوقيعة فيهم، ولولاهم استوهبونى من الله لكنت من الهالكين، وكاد أن يحبط عملى بكلام تكلمته فيهم فبفضل معروفهم نجوت.

---

(١) هو أبومحمد المرتعش المتوفى ببغداد سنة ٣٢٨هـ، أنظر ترجمته فى حلية الأولياء ١٠/٣٥٥، وطبقات السلمى ص٣٤٩.

فصل فى آداب التصوف

قال إبراهيم الخواص[1]: أدب الفقراء فى فقرهم اثنا عشر خصلة فى السفر والحضر إحداهن: الطمأنينة بما وعد الله، والثانية: اليأس من الخلق، والثالثة: العداوة مع الشيطان، والرابعة: استعمال الأوامر بحسب الطاقة، والخامسة: الشفقة على الخلق، والسادسة: احتمال أذاهم، والسابعة: مداومة الأوقات بالطهارة، والثامنة: التواضع للخلق، والتاسعة: الغناء بصحبتهم، والعاشرة: الاشتغال بما هو أولى فى كل وقت، والحادية عشر: أن لا يضيعوا رأس مالهم وهو تصحيح الفقر وواجبه، والثانية عشرة: الكون على حال الرضا فى المحبوب والمكروه.

والقوم فى حال سفرهم وإقامتهم عشرون حكما، الأول: الاعتماد على الله، الثانية: عدم التشوف لخلق الله، الثالث: السكون لوعد الله، الرابع: العمل بأحكام الله، الخامس: المبادرة فى الأوقات المشروعة لفرائض الله، السادسة: رؤية من الله، الثامن: الاقتداء برسول الله ﷺ، التاسع: النصيحة لخلق الله، العاشر: التعلق بجانب الله، الحادى عشر: ترك أذية خلق الله وعدم مقابلتهم على إساءتهم لطلب مرضات الله، الثانى عشر: الإحسان لهم والتواضع معهم من غير رؤية ثنائهم ومدحهم، الثالث عشر: التشبه بأهل الصدق فى حركاتهم وسكناتهم، الرابع عشر: ملازمة الطهارة طمعاً فى الوصول لمقاماتهم، الخامس عشر: الفرار من الخلق خوفاً من الاعتماد عليهم، السادس عشر: الاشتغال بالأهم، السابع عشر: تلذذ الفقراء بفقرهم كتلذذ أصحاب الأموال بأموالهم، الثامن عشر: التأنس بالله لا

---

(١) توفى أبواسحاق إبراهيم الخواص سن ٢٩١هـ فى جامع الرى، أنظر ترجمته فى الحلية ١٠/٣٢٥، والمناوى ١/١٨٤، والسلمى ص٢٨٤.

بمجالستهم، التاسع عشر: تعظيم نعمة الفقراء من تعظيم أموالهم، العشرون: الاشتغال بمراقبة الله عن رؤيتهم، والله الموفق.

قال سعيد بن المسيب ﷺ: من لم يعرف ما عليه فى نفسه لم يتأدب بأمره ونهيه، وكان من الأدب فى معزل.

وقال سهل بن عبدالله التسترى: استعانوا بأمر الله فصبروا على آداب الله.

وقال عبدالله بن المبارك[1]: نحن إلى قليل من الآداب أحوج من كثير من العلم.

وقال إبراهيم بن أدهم: تربعت مرة فى خلوتى فهتف بى هاتف: «هكذا تجالس الملوك» فما تربعت بعد ذلك أبداً.

وقال أبويزيد البسطامى: قمت ليلة أصلى وردى، فجلست فمددت رجلى، فسمعت هاتفاً يهتف بى: «من يجالس الملوك يجالسهم بحسن الأدب».

وقال محمد الحريرى[2]: ما مددت رجلى فى الخلوة قط إلا وقلت: استعمال الأدب مع الله أولى.

وقال أبوبكر بن يزدانيان الأرموى[3]: لله مقام فيه الأدب، من ترك ا لأدب عوقب بترك السنة، ومن ترك السنة عوقب بحرمان الفريضة، ومن ترك الفريضة عوقب بحرمان المعرفة.

وقال عبدالرحمن بن الحسين الصوفى: لما ورد أبوحفص النيسابورى العراق، جاء الجنيد بن محمد، فرأى أصحابه وقوفاً بين يديه، يأتمرون بأمره، ولا يخفض أحد بصره عنه، فقال له الجنيد: إنما أدبت أصحابك بآداب السلاطين! وقيل لأبى يزيد البسطامى: متى يبلغ الرجل الرجال؟ فقال: إذا عرف نفسه. وقال أبوالقاسم النصرابادى[4]: تأديب النفس بالرياضة وتأديب القلب بالمعارف، وقال أبوعثمان النيسابورى: الأدب سنة الفقراء، وزين الأغنياء وقال أبوعطاء: لا تصح الأبدان إلا بمراعاة الأدب، ولا المعرفة إلا بمراعاة التوحيد، ولا التوحيد إلا بمراعاة الأدب، فمن ترك الأدب، فقد المروءة، ومن ترك المروءة فقد

---

(١) توفى ابن المبارك سنة ١٨١هـ، أنظر ترجمته فى الحلية ١٦٢/٨، والمناوى ٢٣٩/١.

(٢) أبومحمد الحريرى توفى سنة ٣١١هـ، أنظر ترجمته فى الحلية ٣٤٧/١٠، وطبقات السلمى ص٢٥٩.

(٣) الحلية ٣٦٣/١٠، والرسالة القشيرية ص٣٦، وطبقات السلمى ص٤٠٦.

(٤) وهو إبراهيم بن محمد بن محمويه، أنظر ترجمته فى شذرات الذهب للحنبلى، ج٥٨/٣، وطبقات الشعرانى، ج١٤٤/١، وطبقات الصوفية للسلمى ٤٨٤ - ٤٨٥.

ترك الفتوة، ومن ترك الفتوة فقد ترك الدين، وقال السرى السقطى[1]: الادب ترجمان العقل. وقال أبوحفص النيسابورى التصوف كله أدب، لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الأدب فهو بعيد من يظن القرب، ومطرود من حيث يرجو القبول.

والصوفية آداب فى أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم وعباداتهم، ولهم آداب عن السفر، وآداب فى الحضر، وآداب فى أخلاقهم وعلومهم وحركاتهم، وهم مخصصون بها من غيرهم، يعرف بذلك تفاضل بعضهم على بعض بهذا الأدب، يعرف الصادقون والكاذبون والمدعون والمتحققون بآداب الخصوص، فإن أكثر آدابهم فى طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى العواض، واستواء السر مع الإعلان وأشباه ذلك.

وسئل أبوالعباس بن عطاء عن الأدب، فقال: إن تعامل الله بالأدب سرا وإعلاناً، فإذا كانت كذلك كنت أدوبا، ولو كنت أعجمياً.

وقال بعضهم: أطلبوا الأدب فإنه زيادة فى العقل ودليل على المروءة وصاحب فى السفر وصلة فى المجلس.

---

(١) انظر ترجمته فى حلية الأولياء، ج١٠/١١٦، وشذرات الذهب، ج٢/١٢٧، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج٨/٢٥١، وطبقات الصوفية للسلمى، ص٤٨ – ٥٥.

فصل فى أحكام الصوفية

ينبغى أن يكون الفقير راضياً بالمقسوم، ولا يعتمد على معلوم، ويكون الفقر زينته، والصبر جلبابه، والرضا مطيته، والتوكل شأنه، والله عز وجل قصده وحسبه، ويستعمل جوارحه فى الطاعات وقطع الشهوات، والزهد فى الدنيا والتورع عن جميع حظوظ الدنيا.

قال أبو الخراز[1] رحمه الله: لكل إنسان سبب مع الله، إلا الصوفية فإنهم متعلقون بمولاهم فى جميع أحكامهم، ومن أحكامهم حيث وقفت قلوبهم كان منزلهم، وحكم الصوفى أن يكون كل يوم فى منزل لا يموت إلا بين منزلتين، ويعلم أن الله تعالى يجرى عليه تصاريف تدبيره وأحكامه بقدرته، ويرجع فى جميع الأشياء إلى متوليها، ويرى نفسه بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل، يقلبه كيف يشاء ويعلم أن الكل منه وله وبه، وإليه يصبر على حكمه ويرضى بقضائه ويتوكل عليه فى جميع أحواله. ومن أحكامهم أنهم آثروا الله على جميع الأشياء، واشتغلوا بذكره عن الأذكار، وعبدوا الله بحقائق الأسرار.

وقال أبو سعيد: حكم الفقير أن لا يكون له رغبة، فإن كان ولابد، فلا تجاوز رغبته كفايته، وقال عبد الله بن خفيف[2]: رأيت النبى ﷺ فى المنام فقال: «من عرف إلى الله طريقه فسلكه ثم رجع عنه عذبه الله بعذاب لم يعذب به أحدا من العالمين»، فقلت: نعم يا رسول الله ﷺ فانتهيت وأنا أقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[3] وحكم الصوفى أن يعد الأوقات ويحاسب نفسه فى الساعات، ويشتغل بحفظ

---

(١) توفى سنة ٢٧٩هـ، أنظر الحلية ١/٢٤٦، وطبقات السلمى ص٢٢٨.

(٢) هو أبوعبدالله محمد بن خفيف المتوفى سنة ٣٧١هـ. أنظر ترجمته فى الحلية ١٠/٣٨٥، وطبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى ص٣٦٢.

(٣) سورة المائدة: ١١٥.

الخطرات ويكون لنفسه ناهيا وعن الزينة واللباس ساهيا بحفظ الغيب، ويجانب الريب ويوقر الشيبة، ويكون للإخوان قريبا، وفى الدنيا غريبا، وكتب رجل إلى عبد الله بن عمر: أن أكتب لى العلم، فقال: إن استطعت أن تلقى الله خميص البطن من أموال الناس، سليم الظهر من دمائهم، كافيا اللسان عن أعراضهم، لازما لجماعتهم، فافعل.

ومن أحكامهم أنهم اشتغلوا بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بترك مالا يعنيهم من قطع كل علاقة تحول بينهم وبين مطلوبهم، بالقناعة بقليل الدنيا عن كثيرها، والاكتفاء بالقوت الذى لابد منه وترك العلو، واتخاذ الجاه عند العامة، والمسابقة إلى الطاعة، والمسارعة إلى الخيرات، والتوجه والترفع إلى الله تعالى، والانقطاع إليه بالإخلاص من العلم والعمل، ثم إنهم اختصوا بدوام المجاهدة، ومخالفة الهوى، ومجانبة حظوظ النفس والمخالفة، لما علموا أن الله عز وجل وصفها أنها أمارة بالسوء، وإنها أعدى عدوك، نفسك التى بين جنبيك.

ومن أحكامهم مراعاة الأسرار، ومراقبة الملك الجبار، ويعبدون الله بقلب حاضر، ونيات صادقة وهموم جامعة، وإرادات خالصة، لأن الله لا يقبل من أعمالهم إلا ما كان خالصا، وتأدبوا بآداب رسول الله ﷺ وتخلقوا بأخلاقه، وبذلوا أرواحهم ابتغاء الوسيلة ودواما للذكر والمراقبة والمراعاة، وحفظ القلوب من جميع ما يشغلهم عن الله تعالى، فمنهم الأخيار السابقون، والأبرار العارفون والبدلاء والصديقون، الذى أحيا الله عز وجل لمعرفته قلوبهم، وزين بقدرته جوارحهم، وألهم بذكره ألسنتهم، وطهر بمراقبة أسرارهم، سبق لهم من الحسنى حسن الرعاية ودوام القناعة، فتوجهم بتاج الولاية وألبسهم حلل الهداية، فاستغنوا به عمن سواه، وآثروه على من دونه وانقطعوا إليه وتوكلوا عليه، وانعكفوا على بابه، ورضوا فيه الإخوان، وتركوا من أجله الأسباب والانساب، وهربوا من الخلائق مستأنسين مستوحشين مما سواه، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾(1)، والله لكل واحد منهم فى ذلك حال ومقام، وعلم وبيان على مقدار ما قسم له من الله عز وجل.

سئل عبد الواحد بن الحسين عن الصوفية، فقال: هم القائمون بعقولهم على هومهم، والعاكفون عليه بقلوبهم، المعتصمون بسيدهم عن شر نفوسهم.

---

(1) سورة الجمعة: ٤.

وقال ذو النون المصرى[1] رحمه الله تعالى عليه: الصوفية هم الذين آثروا الله على كل شىء، فآثارهم على كل شىء.

وقال إبراهيم الخواص: ليس من آداب الصوفى أن يكون له سبب يرجع إليه حين يحتاج، أو شىء يقبل له إذا رأى، ولسان يطلب به إذا جاع، أو همة يطرق بها عند الشدائد إلى الناس.

وقال أبو عبد الله النصيبينى: سافرت ثلاثين سنة فما خيطت خرقة على مرقعتى قط، ولا عدت إلى موضع علمت أن لى فيه رفيقا، ولا تركت أحدا يحمل شيئا معى.

ومعنى الرفق يعنى عطاء من أكل أو دنيا.

ومن أحكامهم، ما قاله أبو عبد الله الصبيحى: لا يصح للفقير الفقر حتى يخرج من الأملاك كلها فإذا خرج ينبغى أن يبذل جاهه حتى لا يبقى له جاه، فإذا بذل جاهه، بقى عليه قوة نفسه فيبذلها أيضا لأصحابه بالخدمة والحركة فى أسبابهم، فعند ذلك يصح له الفقر.

وتصحيح ذلك ما حكى شاه بن شجاع الكرمانى فى كبر سنه وعلمه وفضله، كان يقوم بخدمة أصحابه، ويقول: نظرت فى جميع الأعمال لم أجد فيها شيئا أرجى من خدمة امرىء مسلم.

وقال الجنيد: إياكم أن تتبعوا قوتكم برفق أو مدح أو تخالطوا غير أبناء الجنس، فتعودوا إلى رسم مترسم بعلم، لأنى أخاف عليكم فساد الخواطر وظلمة الأسرار، وطرد الحق. هذه وصيتى لكم.

وقال رويم[2]: عليكم برياضة النفس فى المكروهات وفراغ القلب من حب الشهوات، والقيام على القلب بحفظ الخطرات.

وقال أبو عبد الله الباجى: من خطرت الدنيا بباله بغير القيام بأمر الله حجب عن الله، وقال عبد الله بن خفيف: للفقير إذا استحكم ثلاثة أصول، فما فاته من الأموال لا يبالى به:

---

(١) هو ثوبان بن إبراهيم، أو الفيض بن إبراهيم، كان أبوه من أهل النوبة أو إخميم توفى سنة ٢٤٥هـ، أنظر القشيرى ص٣٧، والمناوى ١/ ٤٤٠ - ٤١٥.

(٢) هو أبومحمد رويم بن محمد البغدادى، المتوفى سنة ٣٠٣هـ. انظر ترجمته فى حلية الأولياء ١٠/٢٩٦، وطبقات الصوفية ص١٨٠، والكواكب الدرية ١/٥٦١.

الصبر عند الغيظ، والإيثار، وإذا وجد، والسكون عندما يرد عليه من المحن، وإذا رأيت الفقير يختلف إلى الأغنياء ويميل إلى أبناء الدنيا، فاعلم أنه خارج عن أحكام الفقر، لا يكون الفقير مستحقا لاسم الفقر، حتى يكون مفتقرا إلى الله تعالى، مستعينا بالله عما سواه، قد جاد بالكونين عوضا من الحق.

ومن أحكام الفقر ألا يسألوا ولا يتعرضوا للسؤال، ولا يدخروا ولا يطلب ولا يشترى ولا يطمع ولا يرد، ولا يصلى صلاتين فى موضع واحد، ولا يكون فقيرا حتى يكون من غير الله حرا، لأن الفقر بنى على التجريد، فمن كان معه شىء من الدنيا، فهو خارج عن أحكام الفقراء، لأن الفقر الفاقة وخلو اليد والقلب من الدنيا لأن الفقير الصادق لا تكون له إرادة غير الله.

فصل فى نعت الصوفية

روى أبو هريرة ﷺ أن النبى ﷺ: «من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف»، وقال الشيخ: صفات الصوفية مشروحة فى قول رسول الله ﷺ: «الفقر والسكينة والبذل والنصيحة والمشى بنور الله وطلب السلامة من الناس، والصبر والحلم ورجف الفؤاد عند الذكر، وعمارة المساجد بالصلوات ورحمة الصغير وجلالة الكبير»، كل ذلك من إيثار التصوف.

وقال الحسين النورى: نعت الفقير شيئان: السكوت عند العدم، والإيثار عند الوجود، وحكى عن الربيعة بين سليمان المرادى[١] أنه قال: كما عند محمد بن إدريس الشافعى – ﷺ – إذ مر بنا طائفة من الصوفية فرمقناهم بأعيننا واشتغلت قلوبنا بهم، فقال الشافعى: ما شأنكم؟ فقلنا: هؤلاء القوم الذين اجتازوا بنا، قد هجروا الصنائع، وآثروا الجلوس عن الكسب، فقال الشافعى – ﷺ – والذى فلق الحب وبرأ النسم ما على وجه الأرض فى هذه الساعة قوم أكرم على الله منهم، قال الربيع: فاستعظمنا ذلك، فقال: استعظمتم ذلك منى، الله عز وجل حط علينا مائة حكمة، فركبنا نحن واحدة، وركب هؤلاء تسعة وتسعين حكمة، فقلنا: نعم.

وقال الحكيم القاضى: والله ما صرنا فى الناس إلا بمجالسة الصوفية، وتعلمنا الأدب إلا منهم. قال أبو زرعة الرازى إمام وقته، وقد حضر فى دعوة: وقرأ القارىء فقام، ولا زال يتواجد حتى ذهب من الليل شطره. وحكى عبد الله أحمد بن حنبل – ﷺ – قال: جاء رجل إلى أبى فقال: يا أبا عبد الله هؤلاء الصوفية قعدوا فى المساجد بلا علم، فقال: يا بنى

(١) فى نسخ برلين ودار الكتب، وتيمور: «المروزى»، وأثبته عن نسخة ليدن، وهو الصواب.
(٢) سورة الزمر: ٤٧.

عملهم أجلسهم فى المساجد، وقال: مراد أحدهم كسرة خبز يأكلها، فقال: يا بن أخى ما أحسن حال قوم رضوان من الدنيا بكسرة خبز، فقال إنهم يرقصون ويتواجدون، فقال: يا ابن أخي هؤلاء قوم فرحوا بالله ساعة، فقال: منهم من يغشى عليه، ومنهم من يموت، فقال: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾(١).

حكى عن جعفر الخالدى(٢) أنه قال: سمعت الجنيد بن محمد يقول: لو علمت أن علماء تحت أديم السماء أشرف من علمنا هذا لقصدته، ولسعيت إليه وإلى أهله، حتى أسمع منهم وأجالسهم.قال الفضيل بن عياض: عليكم بحب الفقراء، فإن لهم دولة، واعلم أن التصوف دين وديانة وفقر وصيانة وزهد ورعاية، وشغل الباطن بالمراقبة، وشغل الظاهر بالعبادة، واعلم أن قلوب الصوفية سامعة مجيبة مطيعة سريعة السماع جديدة الأفهام، فلا هى ثقيلة السمع ولا بطيئة الإجابة، لأنها قلوب بالمعرفة بالغة وبالسر لاصقة وبسماع ذكر الله والهة، فوصفهم الله فى كتابه العزيز بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٣). ولأهل التصوف عروق من القلب ينظرون منها إلى الآخرة، ويطالعون منها إلى أسماء الغيب بنور الإيمان، وهى هداية من الله عز وجل، وتصحيح ذلك حديث حارثة إذ يقول له النبى ﷺ: «لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك يا حارثة؟» فأجابه: عزفت نفسى عن الدنيا، فاستوى عندى ذهبها ومدرها، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى، وكأنى بعرش ربى بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعاوون، فقال النبى ﷺ: «عرفت فالزم»، مرتين أو ثلاثا. ثم إن من أحوالهم وآدابهم طلب السلامة واختيار الذل والمسكنة والتعبد وقلة النوم، والإقلال بالدنيا والزهد فيها وبغض دعاويها،

ورعاية العزم بتركها والاستغناء بالله عز وجل، ورعاية الفقر، والسخاء والكرم والغربة والحياء والبشاشة وكثرة العبادة ومحاسبة النفس وحفظ الجوارح وكتمان الضر والإلهاج بالذكر وتصحيح العقد وحفظ العهد، وأن يكون الصوفى جليسا للحسرات خاليا من الشهوات، صبره بعد جزع وورعه بغير طمع، عيشه قناعة وخوفه صناعة، وإن قنع شكر وإن أعطى أثر، لا يعرف الراحة ولا يأمل الاستراحة، هاجر للراحة والمنام مفارقا لأخلاق اللئام، إن طرد لم يبرح، وإن أعطى لم يفرح، كثير القيام قليل المنام، اشتغاله بمطالبة النفس بالتصحيح وحرس اللسان عن الكلام القبيح، قد لبس الرضا وسكن تحت القضاء، أكله أكل المرضى، ودموعه غزيرة وأوجاعه كثيرة.

(١) سورة الزمر: ٤٧.
(٢) توفى ببغداد سنة ٣٤٨هـ. انظر الحلية ٨٣١/١٠، طبقات الصوفية ص٤٣٤
(٣) سورة الأنفال: ٢، وسورة الحج: ٣٥.

فصل فى أحوال الصوفية

قال أبو حفص النيسابوري: من لم يزن أفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعده في ديوان الرجال. وجاء رجل إلى الجنيد فقال له: أريد أن أسافر فأوصني بم أصحب من الفقراء؟

فقال: هذا يطول، ولكن دع حكمك واصحبهم بحكمهم.

وسئل أبو عبد الله الباجي: بم وصلت إلى ما وصلت إليه؟ فقال: بثلاثة أشياء: اخترت من الدنيا الذكر، ومن الآخرة الرب، وتركت ما أريد إلى ما يريد، فغبت عما أريد وبقيت فيما يريد.

وقال أبو عباس بن عطاء[1]: لا ينبغي أن يكون على مائدة الفقراء إلا أربعة أشياء: الجوع والعرى والذل والشكر.

وقال أبو على الروزبارى[2]: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: أنا جائع فالزموه السوق أمروه بالكسب.

وقال سرى السقطي رحمة الله عليه: خمس خصال فيهن الراحة: ترك الخلطاء والزهد وحلاوة العمل إذا غاب عن أعين الناس وترك الازدراء على الناس حتى لا يدرى أن أحدا يعصى الله تعالى، ويسقط عن نفسه الرياء والجدل والمراء والتصنع وحب المنزلة، ويستريح من خمسة: من البخل والحرص والغضب والطمع والشره[3].

---

(١) هو أبوالعباس بن عطاء الأدمى، المتوفى سنة ٣١١هـ، أنظر الحلية ٣٠٢/١٠، طبقات الصوفية ص٢٦٥.

(٢) توفى سنة ٣٢٢هـ، أنظر الحلية ٣٥٦/١٠، وطبقات الصوفية ص٣٥٤.

(٣) سقط من نسخ برلين، ودار الكتاب، وتيمور، وأثبته من نسخة ليدن.

وقال حذيفة: إنما هو أربعة أشياء عينيك وقلبك وهواك، فالزم عينيك أن لا تنظر إلا ما يحل، والزم لسانك أن تقول به شيئا إلا ما وافق الصواب والحق، والزم قلبك أن لا يكون فيه غل ولا حقد على أحد من المسلمين، وانظر هواك لا يهوى شيئا من الشر.

وقال أحمد بن حضرويه: من أحب أن يكون الله معه في جميع الأحوال فليلزم نفسه الصدق فإن الله مع الصادقين.

وقال الفضيل بن غياض: لم يدرك ما عندنا من أدرك بكثرة الصوم والصلاة وإنما أدركوه بسخاوة النفوس وسلامة الصدور والنصح لكل مسلم.

وقل الجنيد: تنزل الرحمة على الصوفية فى ثلاثة أوقات: وقت الطعام لأنهم لا يأكلون إلا فى أوقات الحاجة، وعند محاورات العلم لأنهم لا يتكلمون إلا فى أحوال الصديقين، وعند وقت السماع لأنهم لا يسمعون إلا من حيث حالهم ولا يقدمون إلا بوجودهم.

وقال معروف الكرخى: من علامة مقت الله للعبد أن يراه مشتغلا بما لا يعنيه، وقال أبو عباس بن عطاء: ما فى الدنيا قبيح إلا وأقبح منه صوفى شحيح، ومن أحوالهم ما قاله يحيى بن معاذ رحمة الله تعالى عليه: ليكن بيتك الخلوة وطعامك الجوع وحليتك المناجاة، فإما أن تموت فى حالك أو تصل إلى دوائك.

فصل فى بيان ذاتية التصوف

قال جعفر بن محمد الصادق: نهينا عن إظهار هذا العلم - يعنى علوم التصوف - لغير أهله كما نهينا عن الزنا، وقال: إن الله تعالى فضح من بلغ سره وطمه إلى غير أهله.

سئل أبو يزيد البسطامى عن التصوف فقال: طرح النفس فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية، ويقال: إن التصوف عشر خصال: تجريد التوحيد ثم إيثار ثم حسن العشرة ثم فهم السماع ثم ترك الاختيار ثم سرعة الوجد ثم الكشف عن الخواطر ثم كثرة الاستغفار ثم ترك الاتساع ثم تحريم الادخار.

وسئل بعضهم عن التصوف فقال: الغيرة على دين الله، والشفقة على خلق الله، وسئل أبو على الدقاق: ما أول التصوف؟ فقال: العبودية، فقيل: فما آخره؟ قال: الحرية(١).

وسئل سرى السقطى رحمة الله عليه عن التصوف، فقال: هو اسم لثلاث معان: هو الذى لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن من علم ينقضه عليه أهل الكتاب، ولا تحمله الكرامات من هتك الله عز وجل على هتك محارم الله.

وقال محمد بن على الكتانى: حد التصوف كله خلق حسن، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف، وقيل: التصوف بذل الأرواح تحت البلاء وفناء النفوس طلبا للرضا، وقيل: التصوف الدخول فى نيران البلاء طلبا للموت. وقال الشبلى: التصوف سكون القلب عن كل ما دون الحق.

وقال أبو يعقوب النهرجورى(٢): التصوف زفرات القلوب بودائع الحضور. وقال أبو

(١) أنظر الرسالة القشيرية ص٤٨، وما بعدها.

(٢) وهو إسحاق بن محمد أبو يعقوب النهرجورى، المتوفى سنة ٣٣٠هـ، الحلية ١٠/٣٥٦، وطبقات الصوفية ص ٣٧٨.

الحسين المزين[1]: التصوف سعادة سبق بها الحق إلى الخلق قبل كونهم. وقال أبو سعيد الخراز: الصوفي الذى هو ملآن من ربه فارغ من غيره.

وقال: التصوف تذليل النفس بقهرها ومنعها عما تسكن إليه وسوء الظن بها.

وقال: التصوف أن لا تظهر خيرا، ولا تضمر شرا.

وقال: الصوفي الذى يكون لنفسه ناسيا وللإخوان مراعيا، وعن الشهوات ساهيا، ولعبادة الله مؤديا.

وسئل الجنيد - رحمة الله - عن التصوف فقال: ترك الاختيار، وسئل عنه أيضا فقال: ترك الشهوات والفضول، وقال: الصوفى هو الصافى من نفسه المبتلى من ربه.

وقال الحسين بن منصور الحلاج[2]- رحمة الله عليه -: الصوفى وجدانى الذات لا يقبله أحد، ولا يقبل أحدا، وقال: التصوف الاستهلاك فى حقائق الحق عن أسباب الخلق.

وسئل الحلاج - رحمة الله - عن التصوف، فقال: طواميس ونواميس لاهوتية، قال السائل: فقلت له: أفصح عن هذا المقال؟

فقال: لا عبارة عنه، فقلت له: لم أظهرته فقال يعلمه من يعلمه ويجهله من يجهله، فقلت له: أسألك بالله إلا ما فهمتني، فانشده يقول شعرا لاتعرض بنا. فهذا بيان، قد خضبناه من دم العشاق، الصوفى من صفا وفى فيما ظهر وخفى، الصوفى حفظ السر بالمعرفة، وقال الجنيد - رحمه الله تعالى: لكل أمة صفوة، وصفوة هذه الأمة الصوفية، وسئل عن صفات الصوفية فقال: بدن سيار وقلب جوال وعين طيارة، وسئل عن صفات الصوفية فقال: جازوا على قنطرة العشق حتى وقفوا على بساط المن، وخوطبوا بلسان الكرم وتوجوا بتاج البهاء وأقعدوا على بساط الصفاء فنسوا الدنيا وما فيها.

---

(١) بغدادى صحب الجنيد، وتوفى سنة ٣٢٨هـ، الحلية ٣٥٥/٨، وطبقات الصوفية ٣٨٢

(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١٨٣/١، ومرآة الجنان لليافعى ٢٥٣/٢، والبداية والنهاية ١٣٢/١١، وطبقات الصوفية ص ٣٠٧.

فصل فى الصحابة مع الصوفية

قال أحمد بن محمد البغدادى - رحمه الله -: من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا مال، فمن نظر إلى شيء من أسبابه قطعه عن بلوغ مقصده، قال إبراهيم الخواص - رحمة الله عليه -: بصحبة الفقراء الصادقين يصل العبد إلى مقام العارفين.

وقال إبراهيم بن شيبان[1] - رحمه الله -: كنا لا نصحب من يقول نجلى وركوتى.

وقال أبو محمد القلانسى - رحمه الله -: دخلت على قوم من الفقراء بالبصرة فاكرمونى وبجلونى، فقلت لهم يوما: أين إزارى؟ فسقطت من أعينهم.

وقال إبراهيم المولد[2] - رحمة الله عليه -: دخلت طرسوس فقيل لى: إن ها هنا جماعة من إخوانك وهم مجتمعون فى المسجد، فدخلت عليهم فرأيت سبعة عشر فقيراً كلهم على قلب رجل واحد.

وقال أبو سعيد الخراز - رحمه الله -: صحبت الصوفية ستين سنة ما وقع بينهم وبينى خلاف، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنى كنت معهم على نفسى.

وقال ذو النون - رحمه الله -: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالمحاربة.

وقال أبو حازم - رحمه الله -: إذا كان لك أخ فى الله فلا تعامله فى الدنيا.

---

(١) هو إبراهيم بن شيبان القرميسينى. أنظر ترجمته فى الحلية ٣٦١/١٠، والرسالة القشيرية ص٣٦، وطبقات الصوفية للسلمى ص٤٠٢.

(٢) هو أبوالحسن الزاهد الصوفى الواعظ، المتوفى سنة ٣٤٢، الحلية ٣٦٤/١٠، والكواكب الدرية ٥٠٣/٣، وطبقات الصوفية ص٤١٠.

قال يحيى بن معاذ[1] - رحمه الله -: بئس الصديق صديقا تعيش معه بالمداراة؟.

وقال أبو يوسف - رحمه الله -: قال أبو عمر الدمشقى: لا تصحب غير الله فإنه الذى يكفيك المهمات، ويشكرك على الحسنات، ويستر عليك السيئات، ولا يفارقك خطرة من الخطرات.

وقال يوسف بن الحسين - رحمه الله -: نظرت فى آفات الخلق فعلمت من أين أتوا، ونظرت فى آفات الصوفية فرأيتها فى ثلاثة: فى صحبة الأحداث، ومعاشرة الأضداد، وإرفاق النسوان.

وقال جعفر بن محمد الصادق - رحمه الله -: من أراد أن تدوم مودة أخيه فلا يماريه ولا يمازحه ولا يعده وعدا فيخلفه، قال ﷺ: «من أحسن صحبته مع صاحبه، أحسن الله صحبته فى الدنيا والآخرة».

وقال شعرا: (من السريع).

اصحب من الإخوان من وده
أصفى من الياقوت والجوهره
ومن إذا سرك أودعته
لم ينكر السر إلى المحشره
ومن إذا أذنبت ذنبا
أتى معتذرا عنك ولم يهجره
ومن إذا غبت عنه غيبة
أقلقه الشوق ولم يصبره

وقال: من البلاء أن يكون خدن الرجل صاحب بدعة، وقيل: لا تثق بالصديق قبل الخبر، ولا تتوقع بالعذر قبل القدرة، ولا تعاتب أخاك على عثرة سبقت منه ولا تلمه على ذلك، ولا تكشف سره وادع له بظهر الغيب، واسأل الله تعالى عودته إلى أجمل عادة، وقابله بالنصيحة على حد اللين والعطف، لأن الملامة تعود على صاحبها عن قليل كالبغى.

---

(١) هو يحيى بن معاذ الرازى، المتوفى سنة ٢٥٨هـ، أنظر الحلية ٥١/١٠، وطبقات الصوفية ص١٠٧.

وقال أبو عثمان الحيرى[1] - رحمه الله -: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب لأن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لاتنقطع بمخالفة النسب.

وقال بعضهم صديقك من يحذر ذنوبك ورفيقك من أراك عيوبك وأخوك من أرشدك إلى ربك وقال أبو عثمان الحيرى - رحمه الله - من صحت صحبته مع ربه لزم قراءة كتابه بالتدبر وآثر كلام الله على كل كلام، واتبع آدابه وأوامره وما خوطب به، ومن صحت صحبته مع رسول الله ﷺ اتبع أخلاقه وسنته وشمائله وآدابه، ومن صحت صحبته مع أولياء الله، اتبع سيرتهم وطريقتهم وتأدب بآدابهم ولزم سنتهم، ومن سقط من هذه الدرجة فهو من الهالكين.

وقال أبو يزيد المدائنى - رحمه الله -: صحبت الناس قديما فرأيت قوما كانت لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس فستر الله عنهم تلك العيوب، ورأيت أقواما لم تكن لهم عيوب فعابوا الناس فصارت لهم عيوب، وقال: لا خير فى مؤاخاة من لا يستر عيبك ولا يحفظ غيبك، واعلم أن هذا حق العموم، وأما الخصوص إذا كانوا جماعة محصورين فى مكان على قصد التربية والأخذ لطريق الله، فينبغى المنافسة بينهم وترك المسامحة لقيام القانون الشرعى والسير الحقيقى، وإن احتجت إلى الصحبة فاصحب الصالحين، إما أن تظهر لك عيوب نفسك أو تعود عليك بركة الصحبة، وعليك بصحبة أهل الورع وأهل الخشية والمراقبة، وصحبة هؤلاء بالمدارة والموافقة وأداء حقوقهم منك وترك مطالبة حقوقك منهم لعلك تنجو، وقل من ينجو فى هذا من أذى الناس وألسنتهم إلا من اقتصر ورضى البلغة، وطالب الحرام ذاهب فى غفلته، وطالب الحلال ثابت فى جوعته لقلة ما يجد، والتعلل فى هذا الوقت يحيى القلوب الميتة، ويصفى الأحوال الكدرة، فمن قل دنياه قل شغله وحسابه، ومن قل أكله قل تكلفه وتعرضه، وقليل العلم مع الاشتغال والديانة خير من كثير العلم مع الدنيا والرياسة، والحذر من علم بلا خشية ولا ورع، ومن كان فى العلم بلا خشية قاده علمه إلى العطب والهلاك، فمن الخشية تكون المحاسبة، ومن المحاسبة تكون المراقبة، ومن المراقبة يكون دوام الشغل بالله عز وجل، فأغبط الناس فى زماننا هذا من عرف زمانه وحفظ لسانه ولزم شأنه، فنسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى.

---

(١) أبوعثمان الحيرى النيسابورى، المتوفى سنة ٢٩٨هـ. الحلية ١٠/٢٤٤، وطبقات الصوفية ص١٧٠.

فصل فى مشابهة أهل الربط من الصوفية بأهل الصفة

قال الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(١)

وصف أصحاب رسول الله ﷺ قيل لهم: ماذا كنتم تصنعون حتى أثنى الله عليكم بهذا الثناء؟ قالوا: كنا نتبع الماء الحجر، وهذا وأشباه هذا وظيفة الصوفية أهل الربط يلازمونه ويتعهدونه، والرباط بيتهم ومنزلهم، وكل قوم دار والرباذ دارهم، وقد شابهوا أهل الصفة فى ذلك لما روى عن أبى الأسود عن طلحة ﷺ قال: كان الرجل إذا قدم المدينة وله بها عريف يترل على عريفه، أى صاحب معرفته، فإن لم يكن بها عريف ترك الصفة، وكنت فيمن نزل الصفة، فالقوم فى الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد، وأحوال متناسبة، ووضع الرباط بهذا المعنى أن يكون سكانه بوصف ما قال الله تعالى: ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾، والمقابلة بما استوى السر والعلانية، ومن أضمر لأخيه يتزل غلا فليس بمقابله وإن كان وجهه إليه، فأهل الصفة هكذا كانوا لأن مثال الغل والحقد عدم قبول النصيحة، وعدم التسليم لمن أمره موافق للكتاب والسنة، ووجود حظ النفس ورؤية نفسه أنه خير منه أو مميز عليه، فى مقال: أو حال أو علم ووجود الدنيا وحبها وعدم صفاء البواطن، فإذا خلوا من هذه المتارات كانوا متقابلين ظاهرا وباطنا، فأهل الصوفية سلمت بواطنهم من هذه الأمور، ورفضوا الدنيا فكانوا لا يرجون ضرعا ولا زرعا، فزالت الأحقاد والغل من بواطنهم وهكذا أهل الربط متقابلين بظواهرهم وبواطنهم مجتمعين على الألفة والمودة يجتمعون للكلام فيما يوافق طريقتهم، ويتعرفون بركة

(١) سورة التوبة: ١٠٨.

الاجتماع والانفراد وكان الغالب على الاجتماع، ورأوا السلامة فى الوحدة وإن كان يجمعهم مكان واحد فلا اختلاط بينهم إلا للضرورات المهمة، فالصلاة والذكر والأكل وكلام الضرورة فيما يعنيهم.

والرباط يحتوى على شيئين: أصحاب خدمة وأرباب خلوة، وشأنهم رفض الدنيا والزهد وحفظ الأوقات وضبط الأنفاس وحراسة الحواس، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1] كان عندهم من هم الاخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض، وأعظم الخطر مخالفة البعض فيما يتحققون به من الحق، قال شيخنا[2]– رحمة الله عليه – فى (رسالة النور): عن سيدى محمد رويم أحد سادات هذه الطائفة أنه قال: «من قعد مع أهل هذه الطائفة وخالفهم فى شيء مما يتحققون به، نزع الله نور الإيمان من قلبه، فإذا كان شغل قلوبهم ذكر الله تعالى ومراقبته والتفكير فى هم الآخرة وأحكام القيامة وأهوالها، صار ذلك شاغلا لهم عن الاشتغال ببعضهم بعضا، فمن تحقق بعين اليقين اشتغل عن لهو وعن غيره»، كما تحقق حارثة ﷺ، وقوله للنبى ﷺ حين سأله عن حقيقة إيمانه: أصبحت وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون، وقول النبى ﷺ: «لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»، وقوله ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

وقال ابن البغدادى[3]: أعظم غيب وقع التصديق والعلم به هو الله تبارك وتعالى، وكان سيدنا السيد الكامل رسول الله ﷺ يقول: «لو تعلمون ما أعلم من عظمة الله وجلاله وكبريائه وسطوته لعظمت مخاوفكم، وتوالت منكم خشيتكم وهيبتكم عن لذاتكم وشهواتكم، لأنى أرى ما لا ترون من عالم الملك والملكوت، وأسمع ما لا تسمعون من هواتف الغيب والملائكة ودمدمة النار على أهلها ومناغاة الجنة لطالبيها ومناداة القيامة بشدائدها وأهوالها»، فهو ﷺ يرى الجميع ذلك مكاشفة بأنوار الإيمان وحقائق الإيمان وأنشد فى ذلك: (من الوافر)

---

(١) سورة عبس: ٣٧.

(٢) هو الشيخ أحمد بن محمد الزاهد، المتوفى ٨١٩هـ. كشف الظنون ١/٨٩٦.

(٣) أنظر ترجمته فى الكواكب الدرية للمناوى ٢/١١٥.

أمـــا والله لو علم الأنام

لم خلقـــوا لما غـــفلوا وناموا

لقـــد خلقـــوا ليـــوم لو رأته

عـــيون قلوبهم ساحـــوا وهاموا

ممات ثم قـــبـــر ثم حـــشـــر

وتـــوبـــيـــخ وأهـــوال عـــظـــام

ليـــوم الحـــشـــر قـــد عملـــوا أناس

فـــصلوا من مـــخـــافـــتـــه وصـــامـــوا

ونحـــن إذا أمـــرنا أو نهـــينا

كـــأهـــل الكهـــف أيقـــاظ نيـــام

فهكذا ينبغي الصادق أن يشغل نفسه بذلك، بهذا يدوم شغل قلبه فإذا دام شغل قلبه اشتغل عما لا يعنيه من نفسه ومن غيره، فهكذا فالحجة عليهم باتسامهم بهذا الاسم وليسوا عاملين بمعناه، فنعوذ بالله من ضلال القلوب وشغلها عن علام الغيوب، ومن رأى نفسه أنه مقصر في ذلك أو بعضه، فليشغل نفسه بخدمتهم ويلزم التواضع لهم والانكسار والذلة، ويلجأ بقلبه إلى الله تعالى في طلب الإخلاص وتصفية السريرة، ولزوم ذكر الله تعالى.

وقال السهروردي– رحمة الله عليه –: «إن شأن من دخل الرباط مبتدئا ولم يذق طعم المعاملة ولم يتنبه لنفائس الأحوال، يؤمر بالخدمة لتكون عبادته خدمته ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل اللّ إليه فيشمله بركة ذلك، ويعين الإخوان المشتغلين بالعبادة، والمؤمنين إخوة يطلب بعضهم إلى بعض الحوائج، فيقضي بعضهم إلى بعض الحوائج، فيقضي الله لهم حاجاتهم يوم القيامة، فيحفظه الله بالخدمة عن البطالة التي تميت القلب، والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح، وهي طريق من طرق المواجيد تكسبهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة، ولا يتعزز عن خدمتهم.

قال أبو عبد الله المغربي: من تعزز عن خدمة إخوانه أورثه الله ذلا لاينفك منه أبدا ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم، فإن القوم يكرهون خدمة الأغنياء ويأبون مخالطتهم أيضا، فالطالب الراغب فيهم منهم إذا خدم أهل الله، فذلك علامة حب الله. وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى، ويجتمعون على المصالح الدينية ومواساة الإخوان بما يفتح الله عليهم.

واعلم أن اجتماع الصوفية فى الربط وما هيأه الله لهم من الرفق ببركة جمعية بواطن المشايخ الماضين وأثر من آثار الحق فى حقهم، وصور الاجتماع فى الرباط الآن على طاعة الله تعالى، والترسم بظاهر الآداب أيضا من نور جمعية بواطن الماضين وسلوك الخلف لهم، فهم فى الربط كجسد واحد بقلوب متفقة وعزائم متجددة، ولا يوجد هذا فى غيرهم من الطوائف.

روى النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع»، وإذا اشتكى المؤمن اشتكى المؤمنون، فالصوفية من وظيفتهم الملازمة وحفظ اجتماع البواطن لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا، وبرباط التأليف الإلهى اتفقوا، وبمشابهة القلوب تواطئوا، لتهذيب النفوس وتصفية القلوب فى الرباط رابطوا، فلابد لهم من التآلف والتودد والنصح، قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، والله الموفق.

فصل فى من لبس لبس الفقراء والصوفية وخالف فعله لباسه

قال أبو القاسم الجنيد- رحمة الله عليه -: سليمان عليه السلام حجة الله على الملوك، وأيوب حجة الله على العبيد، وإبراهيم حجة الله على الأغنياء، وعيسى حجة الله على الزاهدين، وآدم حجة الله على المذنبين، ومحمد ﷺ حجة الله على الفقراء، وسهل بن عبد الله حجة الله على الصوفية.

وذلك أن الله يخرج فى كل زمان من خواص عباده من يجعله حجة على خلقه، يحتج به يوم القيامة، ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١)، ودخل بعض الصوفية على بعض المتنعمين، فسأله عن لباسه المرقعة، فقال: إن قلت لبستها من الفقر شكوت ربى وإن قلت لبستها عن اختيار زكيت نفسى، ولكنى عبد ذليل لرب جليل، يلبس ما قدر الله له أن يلبس.

سئل سهل بن عبد الله -- رحمة الله عليه -عن التصوف ما هو؟ فقال: «الفتوة والسخاء والمحبة والصدق والوفاء»، وقيل له أيضا: ما الصوفى؟ فقال: «الذى ماله مباح ودمه هدر». وقال بعضهم: «لايغرنك ما ترى من ظاهر الرسم ووجود الاسم، فعند مطالبة الحقائق يفتضح أهل الرسوم ولا يوزن من الأعمال إلا خواتمها، ولا يصح من الأحوال إلا حقائقها، ولا ينفع من الدعاوى إلا ما كان مقرونا بصدق المعانى، وكل تصوف لا يقارنه التعفف والتلطف فهو مخرقة وتكلف ولا تصوف، وكل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل لا باطن، وكل فقر لا تشيده قناعة بصبر فهو شقوة وحرمان لا فقر، وأنى لك بهذا الفقر فى هذا الزمان، وكل علم لا يصدقه العمل فهو ظلم لا علم وكل توحيد لا يصحبه الكتاب والسنة فهو تلحيد لا توحيد، وكل معرفة لا يقارنها ورع واستقامة فهى معزفة لا معرفة، وكل فهم يكون معه خمود الطبع وفناء الرسم فهو وهم لا فهم، وكل إشارة تكون قبل صحة المعرفة

(١) سورة النساء: ١٦٥.

بصدق الورع فهى حقارة لا إشارة، وكل وجود لا يصحبه صدق وإرادة ودوام حراسة وإخلاص معاملة فهو جحود لا وجود، وكل تواجد لا يغيب صاحبه عن رؤية الحاضرين فهو تمرد وتطاير لا تواجد، وكل سماع لا يكون بوقار وأدب فهو دنس لا قول، وكل عين لا يكون لصاحبها ستر من المخافة فهى غين لا عين، وكل توكل لا يخرج صاحبه من نقص الاستشراف وذل الطمع فهو تآكل ولا توكل، وإذا رأيت الصوفى يلبس المرقعة ليقال أو للسؤال فاعلم أنه عديم الحال، وإذا رأيت الصوفى فى زيه لبق فاعلم أنه عن الاستقامة زلق، وإذا رأيته يأخذ لغير الضرورة والحاجة فاعلم أنه فى سخرة الشيطان، وإذا رأيته قد استغنى عن سماع العلم فاعلم أنه ضال عن الطريق، وإذا رأيته يكثر الإشارة فى كل وقت فاعلم أنه بعيد من الله خال من الحقائق، وإذا رأيته يخالط الأضداد فاعلم أنه قد رضى بهتك ستره، وإذا رأيته يجالس النسوان فاشهد بفجوره وفسقه، وإذا رأيته يظهر اللهو وينسى الأدب وقت سماع القرآن والعلم النافع وكلام أهل المحبة فاعلم أن ستره خراب وهو محجوب عن الملك الوهاب، وإذا رأيته مخالفا للكتاب والسنة فاعلم أنه قد ركب طريقة الخذلان والزندقة، وإذا رأيته يكثر الاستهزاء ويقول بالأهواء فاعلم أنه من بغضاء الله وأجراء إبليس، وإذا لم يدرس كتب السنن والآثار خرج شاطحا عن الطريق وتاه فى أودية الضلال متجبرا بلا دليل، وإذا رأيته يجمع ويدخر فاعلم أنه قد كفر بعد إيمانه، واشترى دنياه بدينه، وإذا لم يحسن ما يقول فهو بلا قلب، وإذا لم يحس بسمع فهو ميت.

وقال أبو سليمان الدارانى[1]: ليس الصوفى الذى يلبس لباس عيسى، ويأكل أكل قيصر وكسرى، وقال النبى ﷺ: «لعن الله أقواما خالف لباسهم قلوبهم، أولئك شر الخلق أجمعين».

وقال مظفر بن على: «من لبس الصوف الذى هو صفة الزاهدين فى الدنيا، بزى الآخرة وصد وعقد ونظر فى رجحان الموازين، ولزم السوق والدكان وعرف العامل والديوان، وحرث الأرض وغرس البستان لحظ النفس فهو فاسق حقا لا يشك فى فسقه، كما سماهم الله تعالى بقوله: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2].

وقال الحسن: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ كأنه شن بال تميله الريح كما تميل السنبلة فقال النبى ﷺ: «ما شأنك؟» قال الرجل: يا رسول الله سمعت أن بين يدى الساعة

(١) هو عبد الرحمن بن عطية، من أهل (داريا) إحدى قرى دمشق، توفى سنة ٢١٥هـ. الحلية ٩/٢٥٤، وطبقات الصوفية ص ٧٥.

(٢) سورة الحديد: ١٦، ٢٦.

عقبة كؤود لا ينجو منها إلا كل مخف، فحملت نفسي على الجوع والعطش لعلي أقطع تلك العقبة، فقال النبي ﷺ: «اعمل وأبشر، فإنك لا تكون في خفة إلا ازددت قربا، ثم تبذل يوم القيامة مكان الذي ذاب منك»، فلما ولى الرجل، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما ظن به أهله حتى يموت، فقال: «يا عمر إن صدقت نيته فقد بلغ الشرف كل الشرف، وإن كذبت نيته وخلف قوله فعله فالنار أولى به»، فقال: بعد الصوم والصلاة والمجاهدة يا رسول الله؟ قال: «نعم يا عمر ولو صلى وصام عمر الدنيا»، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تلبسوا الصوف إلا وقلوبكم نقية فإنه من لبس الصوف على دغل وغش، لعنه رب السموات وغضب عليه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «ويل لأهل الصوف من ديان يوم الدين»، قيل: ولم يا رسول الله؟ قال: «أظهروا القول وتركوا العمل»، وقال رسول الله ﷺ: «إن الأرض لتضج من ثلاثة: صوفي متكبر، وفقير محتال، وملك متجبر»، وقال عليه الصلاة والسلام: «سيأتي في آخر الزمان قوم يعرفون بثيابهم يلبسون لها إلى العبادة وهم عند الله بمنزلة المنافقين وقلوبهم خربة كالبيت الخالي، يتعجب إبليس منهم ومما يرى من طوعهم له».

وقيل لأبي العباس الدوري: متى يصح للصوفي التصوف؟ قال: إذا لزم التعفف وتبرأ من التنطع، وسلك طريق الورع والتلطف استحق التصوف. وقال يوسف بن الحسن: نظرت في آفات الخلق فعرفت من أين أتوا، ورأيت آفات الصوفية في معاشرة الأضداد، وموافقة النساء.

وقال سهل بن عبد الله -رضي الله عنه- سنة ثلاثمائة: لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا لأنه يحدث قوم يتصنعون للناس ويتزينون بالكلام يكون من جيد لباسهم وزهدهم كلامهم، ومعبودهم بطونهم.

فصل فى غلطات الصوفية

قال أبو عبد الرحمن السلمى[1] رحمة الله عليه: قال أبو على الروزبارى رحمه الله تعالى: إنما بنى هذا الأمر وأسس على ثلاثة أشياء أولها: اجتناب المحارم، والثانى: أداء الفرائض، والثالث: ترك الدنيا لأهلها.

والغلط وقع فى وجوه منها طبقة غلطت فى الأصول لقلة إحكامهم أصول الشرع وضعف فهمهم وإخلاصهم، كما قال الجنيد رحمة الله عليه: إنما منعوا الوصول لتضييع الأصول. وطبقة غلطت فى الفروع من الآداب والأخلاق والمقامات، وذلك لقلة معرفتهم بالأصول واتباعهم حظوظ النفوس، ولم يتأدبوا بمن يروضهم ويجرعهم المرارات، ويدلهم على المناهج ويعرفهم النفس وعيوبها فتسقط عنه حظوظها، فمثل هؤلاء، مثل من يدخل بيتا مظلما بغير سراج، يريد أن يطلب فيه شيئا، فمتى يجد ما يطلب، يفسد فى تلك الظلمة أكثر مما يصلح. وطبقة غلطت فى ألفاظ الفقر والفناء، فقوم فضلوا الفناء على الفقر، وإنما أشاروا بذلك إلى الفناء بالله عز وجل، لأن الفناء به أفضل من الافتقار إليه، ولم يشر بقولهم الفناء إلى الفناء بأعراض الدنيا.

وقال طائفة من أهل الدعاوى: إن الفقير المحتاج الذى عدم الرضا لا فضيلة له ولا ثواب على فقره، وغلطوا فى ذلك ولم يعلموا أن الفقير المضطر المحتاج المعدم الصبر والرضى على الغنى على الذى يكون غناه بالدنيا. وطبقة توهمت أن المراد بالفقر العدم وقلة الشىء فقط، فاشتغلوا بذلك ولم يلبسوا حقائق الفقر، وخفى عليهم أن رؤية الفقر فى الفقر حجاب للفقر، وليس فى الفقر حالة أقل من العدم وقلة الشىء، لأن ذلك يشركهم فيه المعدمون والسؤال وليسوا بمحمودين فى ذلك ولا رتبة لهم فى الفقر الحقيقى.

---

(١) هو الإمام أبوعبدالرحمن السلمى، المتوفى ٤١٢هـ، وهو صاحب طبقات الصوفية.

وطبقة من المتقدمة عملوا فى الكسب وأمروا به وأنكروا على من لم يكتسب، وقد غلطوا لان الكسب رخصة وإباحة لمن لم يطلق حال التوكل فإن التوكل حال النبى ﷺ والكسب سنة، فمن لم يطلق حاله يرد إلى سنته، والمؤمنون كلهم مأمورون بالتوكل قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١). والتوكل هو الثقة بما وعد الله، فمن خرج عن هذه الدرجة رد إلى السنة.

والكسب شرائط منها: أن يشتغل عن أداء الفرائض فى أوقاتها، ومنها أن لا يعتمد على كسبه، ومنها أن لا يتعلم من العلم ما لا يناول معه حراما، وأن لا يأخذ من كسبه شيئا بالرخص والتأويلات وأن يعين العاجزين عن الكسب ويتفقدهم من كسبه، فهذه بعض شرائط الكسب.

وطبقة من المريدين غلطوا فى حال الفترة، وذلك أنهم لما سمعوا بمجاهدة من كان قبلهم من المشايخ الأكابر والسادة المتقدمين لما سماهم الله تعالى بذلك ورفع قدرتهم عند خلقه اجتهدوا وعملوا فى الاجتهاد مدة، فلما طال بهم الأمر طمعت نفوسهم فى الكرامات فلم يجدوها، فلما رأوا كسلوا عن مجاهدتهم فسموا ذلك الكسل فترة وهو كسل وخدع. ولو جذبهم سبحانه جذبة حق لما كسلوا وكان قربهم رجوعا إلى المجاهدة لأن الفترة تكون استرواحا للقلوب المحبين وأبدانهم وقتا دون وقت، ثم يعودون إلى حال الاجتهاد، كما حكى عن أبى على الروزبارى رحمة الله عليه أنه قال: النهاية كالبداية والبداية كالنهاية، فمن ترك فى نهايته شيئا مما كان يفعله فى بدايته فهو مخدوع.

وطبقة غلطوا فى سياحتهم وأسفارهم فجعلوا لأنفسهم من التفرج فى البلدان ورؤية أهلها ولما ألفته النفوس فى المآكل الطيبة وزيادة على ذلك يقولون: رأينا فلانا وفلانا فيفتخرون بذلك ويصير رأى ومرأى. هذا غلط وإنما السفر المحبوب لطلب المرشد حيث ما كان وينوى فى ذلك الهجرة وإرشاده إلى طرق الله تعالى.

وطبقة غلطوا فى ترك الطعام والعزلة وتوهموا أن النفس إذا انكسرت بترك الطعام، وذلت ويؤمن شرها غير اقتداء فى ذلك بمرشد وذلك غلط أنما يؤخذ طريق تذليلها وكسر من المشايخ والأستاذين، فإنه إذا ترك الطعام أياما من غير اقتداء بشيخ ربما يقع فى العقل خلل فى الفرائض، ونقص يقع فى فريضة واحدة أضر على المريد من تمادى النفس فى كل وقت. ويجب على العبد أن لا يأكل من الطعام ما يقويه على الشهوات ولا يتركه

(١) سورة المائدة: ٢٣.

حتى يضعف عن الفرائض، بل يستعمل السنة فى ذلك وهو الأمر الأوسط.

وطبقة غلطت فى العزلة، وتوهمت أن العزلة والتكن فى الكهوف والانفراد فى الجبال والفلوات يؤمنهم من شرور أنفسهم، ويوصلهم الانفراد إلى ما وصل إليه أولياء، وغلطوا فى ذلك، لأن المشايخ دعاهم إلى العزلة والانفراد دواعى العمل وقوة الحال، وذلك جذب من الحق سبحانه، جذبهم إليه، فأغناهم به عن كل من سواه، فمن لم يكن مصحوبة قوة الحال، وغلبة الوارد، ثم تكلف للانفراد والعزلة فقد ظلم نفسه، وأدخل على نفسه بذلك ضررا عظيماً، والأصل الذى انفرد به الخواص بالعزلة، والخلوة هو حال النبى ﷺ، كان إذا دنا منه أوان الوحى يذهب إلى حراء، فيخلوا فيه الأيام ذوات العدد، وذلك من غلبة الوارد عليه من الوحى لما دنا وقته.

وطائفة توهمت أن التصوف هو القول والرقص وسماع النغمات والقصائد واتخاذ الدعوات والتكلف والاجتماعات لما رأوا من بعض الصادقين انبشاشا فى السماع فى بعض الأوقات وقد غلطوا فى ذلك ولم يعلموا أن كل قلب تلوث بشىء من الدنيا وكل نفس فيها شىء من البطالة والغفلة لا يصح لها السماع.

وطائفة غلطوا وزعموا أن اجتماعهم بالنساء والشباب وتعاطى هذه الأمور مما يحصل به البركة وإن قرب المرأة والشاب من الرجل الصالح سبب لحياة القلب، وزعموا أن النور يسرى من القلب إلى القلب، وإشباه هذه الزخارف الباطلة، فهؤلاء فرقة تشبهوا بالشياطين فإن الشيطان يسول للجهال بأمور محبة ويزينها بصور باطلة فهذه حيلة فسق وجملة مكر وخديعة وكذب، نعوذ بالله.

وطائفة غلطوا من صحبة النساء والشباب وأخوتهم، وربما يقول الرجل للمرأة الأجنبية: يا أختى وتقول له: يا أخى، وهذا الغلط خروج عن الشرع نعوذ بالله من ذلك.

وطائفة غلطوا حيث قالوا: نحن وصلنا إلى الحقيقة وتعدينا الشريعة، فهذا الكلام فى نفسه كفر فإنه قول بأن من وصل إلى الحقيقة سقطت عنه المطالبة بأحكام الشريعة، ومن اعتقد هذا فقد كفر، ولم يحمله على الكفر إلا الجهل بمضى الشريعة والحقيقة والله أعلم.

فصل فى ذكر أصحاب الصفة ﷺ

قال سيدى عبد العزيز الديرينى[١] رحمة الله عليه فى كتاب (طهارة القلوب)[٢] فى قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[٣]: هذه الآيات فى تفضيل الفقراء، وسبب نزولها أن النبى ﷺ من آمن بالفقراء فكان النبى ﷺ يجلس مع فقراء الصحابة مثل سليمان وبلال وصهيب وعمار بن ياسر وعمار بن فهيرة ونحوهم من الفقراء، فأراد المشركون أن يحتالوا عليه فى طرد الفقراء لما علموا أن علامة الرسل: أول أتباعهم الفقراء فى بعض رؤساء المشركين وقالوا يا محمد اطرد الفقراء عنك فإن نفوسنا تأنف أن نجالسهم، فلو طردتهم لآمن بك أشراف الناس ورؤساؤهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[٤]. فلم ينسوا من طردهم قالوا: إذا لم تطردهم فاجعل لنا يومًا ولهم يومًا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أى لا تتعداهم ولا تتجاوزهم بنظرك رغبة عنهم وطلبًا لصحة أبناء الدنيا، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٥]. ثم ضرب لهم مثل الغنى ومثل الفقير: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[٦]. فكان رسول الله ﷺ يعظم

---

(١) توفى ٦٩٤ هـ . انظر الكواكب الدرية ٢/ ١٠٨.

(٢) طهارة القلوب فى ذكر علام الغيوب. انظر كشف الظنون ٢/ ١١١٨.

(٣) سورة الكهف: ٢٨. (٤) سورة الأنعام: ٥٢.

(٥) سورة الكهف: ٢٩. (٦) سورة الكهف: الآيات من ٣٢– ٤٥.

الفقراء ويكرمهم، ولما هاجرا إلى المدينة هاجروا معه، وكانوا فى صفة المسجد، مقيمين متبتلين، فسموا أصحاب الصفة، وكان ينتهى إليهم من هاجر من الفقراء حتى كثروا رضى الله عنهم، وهؤلاء شاهدوا ما أعد الله لأوليائه من الإحسان وعاينوه بنور الإيمان، فلم يعلقوا قلوبهم بشىء من الأكوان بل قالوا: إياك نعبد ولك نخضع ونسجد وبك نهتدى ونسترشد وعليك نتوكل ونعتمد، وبذكرك نتنعم ونفرح، وفى ميدان ودك نرتع ونسرح، ولك نعمل ونكدح، وعن بابك أبدًا لا نبرح، فحينئذ أعمر بهم سبيله وخاطب فيهم رسوله فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أى لا تطرد قومًا إن أمسوا فعلى ذكر ربهم يتقلبون، وإن أصبحوا فإلى بابه يتقلبون، لا تطرد قومًا المساجد مثواهم والله مطلوبهم ومولاهم، ولا تطرد قومًا اتزروا بالذل والمسكنة خضوعًا وارتدوا بالهيبة الوقار خشوعًا، فالجوع طعامهم والسهر إذا نام الخلق إدامهم والفقر والفاقة شعارهم والصمت والحياء دثارهم، وتجريد مع الله فى الفلوات ولائمهم، وذكر الله فى الخلوات تمائمهم، فطموا أنفسهم عن الشهوات وحرموا أبدانهم عن اللذات وربطوا خيل عزمهم على باب مولاهم وبسطوا وجوههم فى محاريب نجواهم. (من المنسرح).

لو يعلم الناس عمن اشتغلوا ... لما تهنوا لما به شغلوا

من ذاق طعم الحب هام ولم ... يحل له منزل ولا طلل

لله قوم بروحهم سمحوا ... واستصغروا قدرها وما جهلوا

عاشوا وفازوا هم الملوك وإن ... ذلوا وإن أطلقوا وإن حملوا

الفقر فخر الأنبياء، وشعار الأتقياء ولباس العارفين، ومطية الصادقين. (من المنسرح)

من عرف الله ولم تغنه ... معرفة الله فذاك الشقى

ما ضر ذا الفاقة ما ناله ... فى طاعة الله وماذا لقى

ما يصنع العبد بعز الغنى ... العز كل العز للمتقى

روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين». فقال أنس: يا رسول الله إنك لتدعو هذاالدعاء كثيرًا، فقال: «يا أنس؛ إن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين». يقول الله تعالى: ما ضركم ما فاتكم من الدنيا، بعد أن كنت لكم حظا.

وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه: بلغنا أن نفس الفقير دون شهوة تعدل عبادة الغنى ألف سنة. وقال بعض السلف: العبادة مع طلب الدنيا، كروضة على مزبلة، والعبادة للفقير كعقد جوهر فى جيد حسناء. (من السريع)

من كـان ذا مـال كـثـيـر ولم ... يـنفع فـذاك الموسـر المعـسـر
وكـل مـن كـان قنوعـًا وإن ... كـان مـقـلا فـهـو المكثـر
الفـقـر فى النفس وفـيـهـا الغنى ... فى غني النفس الغنى الأكـبـر

هل سمعتهم أن فقيراً ادعى الربوبية، أم هل بلغكم أن مسكيناً نازع الألوهية، وكم جبار تفرعن وبغى ومترف تكبر وطغى. (من السريع)

من شـرف الفـقـر ومن فـضلـه ... على الغنى يا صـاح لو تعـتـبـر
إنـك تـعـصـى كى تـنـال الغـنـى ... ولست تعـصـى الله كى تفـتـقـر

والفقر عام وخاص؛ فالعام: الحاجة إلى الله تعالى، وهذا وصف كل مخلوق مؤمن وكافر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾(١). والخاص: وصف أولياء الله وأحبابه، وهو خلو البدن من الدنيا، وخلو القلب من التعلق بها، اشتغالاً بالله وشوقًا إلى الله وأنسًا بالفراغ والخلوة إلى الله.

أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: ياداود بلغ أهل الأرض أنى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار من اختارنى ومطيع لمن أطاعنى، ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقينًا من قلبه إلا قبلته لنفسى، ومن طلبنى بالحق وجدنى، ومن طلب غيرى لم يجدنى، فارفضوا يا أهل الأرض غرورها وهلموا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى، واستأنسوا آؤنسكم وأسارع إلى محبتكم.

وأوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام: إن لى عباداً من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكرهم، وينظرون إلى وأنظر إليهم، قالوا: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا أجنهم الليل واختلط الظلال فرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا

---

(١) سورة فاطر: ١٥.

وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إلى بإنعامي، فهم بين صارخ وباك ومتأوه وشاك وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشكون من حبي وأول ما أعطيتهم ثلاثًا: أقذف في قلوبهم نوري فيخبرون عني والثانية: لولا كانت السموات والأرض وما بينهما في موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ وروى أن داود ﷺ قال: يا رب أرني أهل محبتك، فأوحى الله إليه: يا داود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر رجلاً فيهم شباب وفيهم كهول وفيهم مشايخ، فإذا أتيتهم فاقرئهم مني السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألوني حاجة فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين ماء مطرقين مشتغلين بتعظيم الله عز وجل فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال لهم: إني رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألوني حاجة ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبابي وأصفيائي وأوليائي قال: فجرت الدموع على خدودهم. وقال شيخهم: سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمار. وقال آخر: سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن الظن فيما بيننا وبينك. وقال آخر: اللهم إنا نسألك بناء أرفع الطريق إليك.

وقال آخر: نحن مقصرون في طلب رضاك فارض عنا بجودك. وقال آخر: اللهم اغفر لنا تقصيرنا في شكرك. وقال آخر: إنك تعلم أنه لا حاجة لنا إلا النظر إلى وجهك. وقال آخر: اللهم هب لنا نوراً هدنا به إليك. وقال آخر: اللهم إنا نسألك أن تقبل علينا وتديم ذلك لنا. وقال آخر: اللهم إنا نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا. وقال آخر: اللهم إني أسألك أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بغيرك. وقال آخر: قد علمنا أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب عن كل شيء دونك. وقال آخر: كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة منتك على أهل محبتك. فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لهم إني سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد صاحبه وليتخذ لنفسه سرباً فإني كاشف فيما بيني وبينكم.

فقال داود: يارب بم نالوا هذا منك؟ قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها. ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضركم إذا احتجتم من خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى بنور

قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا انبسطت لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائى، يا داود تزعم أنك تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك لأن حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب، يا داود خالط أحبابى مخالطة وخالط أهل الدنيا مخالطة، يا داود تحبب إلى بمعاداة نفسك وامنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة، اللهم أذقنا حلاوة مناجاتك وأسألك بناء سبيل مرضاتك واقطع عنا كل ما يبعدنا عن حضرتك، ويسر علينا ما يسرته لأهل محبتك واغفر لنا ولوالدينا، ولجميع المسلمين.

فصل فى بيان آخر فى ذكر أهل الصفة وذكر أسمائهم وما كانوا عليه من الأخلاق الرضية والمقامات السنية

قال الشيخ الإمام أبو نعيم رحمه الله تعالى فى (حلية الأولياء): نذكر الآن مستعينين بالله شأن أهل الصفة وأخلاقهم وأحوالهم وتسمية من تسمى لنا بالأسانيد المشهورة، وبالشواهد المذكورة، وهم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء، كما جعل من تقدم ذكرهم أسوة العارفين من الحكام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا تلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى، كانت أفراحهم بمعبودهم ومليكهم وإخوانهم على فوت الافتتان من أمعيتهم وأورادهم، هم الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، ولم ييأسوا على ما فاتهم ولم يفرحوا بما أتاهم، حماهم مليكهم من التمتع بالدنيا والبسط فيها لكيلا يبغوا ولا يطغوا، رفضوا الحزن على ما فات من ذاهب.

قال أبو نعيم رحمه الله تعالى: زوى الله عنهم الدنيا وقبضها عنهم اتقاء عليهم وصونًا لهم كيلا يطغوا، فصاروا فى حمايته محفوظين من الأثقال ومحروسين من الأشغال فلا تداخلهم الأموال ولا تتغير عليهم الأحوال.

عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما قال: إن أصحاب الدنيا كانوا ناسًا فقراء وإن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده

طعام أربعة فليذهب بخامس أو بسادس». أو كما قال، وإن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق نبى الله ﷺ بعشرة، هذا حديث صحيح متفق عليه، قال مجاهد: إن أبا هريرة رضي الله عنه قال: مر بى رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا هريرة» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق إلى أهل الصفة فادعهم،»، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يلوون على أهل ومال، إذا أتت صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها صحيح متفق عليه.

وعن طلحة بن عمر رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا قدم على النبى وكان له بالمدينة عريف نزل عليه وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، قال وكنت فيمن ترافقت رجلاً، وكان يجرى علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مدا من تمر بين رجلين.

وعن أبى رافع رضي الله عنه قال: لما ولدت فاطمة رضى الله عنها قالت: يا رسول الله ألا أعتق عن ابنى؟ قال: «لا، ولكن احلقى رأسه وتصدقى بوزن شعره ذهبًا أو فضة، على الأوصاف والمساكين»، يعنى بالأوصاف أهل الصفة.

وكان فضالة بن عبيد يقول: كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس تخر رجال من قاماتهم فى صلاتهم لما بهم من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب إن هؤلاء مجانين. رواه ابن وهب رضي الله عنه عن أبى هانى رضي الله عنه.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: كان من أصحاب الصفة سبعين رجلاً ليس لواحد منهم رداء.

وعن الحسن رضى الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ إلى الصفة فقال: «كيف أصبحتم» قالوا بخير، فقال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خيرًا وإذا غدى على أحدكم بجفنة وريح بأخرى وستر أحدكم بيته كما يستر الكعبة» فقالوا: يا رسول الله نصيب ذلك ونحن على ديننا؟ قال: «نعم»، قالوا: فنحن حينئذ خير نتصدق ونعتق، فقال رسول الله ﷺ: «لا بل أنتم اليوم خير إنكم إذا مسستموها تحاسدتم وتقاطعتم وتباغضتم»، كذا رواه أبو معاوية رضى الله عنه مرسلاً.

قال الشيخ: وكان عدد قاطنى الصفة يختلف على حسب اختلاف الأوقات والأحوال فربما تفرق عنها أو نقص طارقوها من الغرباء والقادمين فيقل عددهم وربما يجتمع فيها واردوها من الوارد والوفود إليهم فينضم إليهم فيكثرون غير أن الظاهر من أحوالهم

والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم وإيثار القلة واختيارهم لها فلم يجتمع لهم ثوبان ولا يحضرهم من الأطعمة لونان وعلى ذلك حديث أبى هريرة ﷺ قال: رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون فى ثوب فمنهم من بلغ ركبتيه ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدوا عورتهم.

وعن واثلة بن الأسقع ﷺ قال: كنت من أصحاب الصفة ما منا أحد عليه ثوب تام قد اتخذ العرق فى جلودنا طرقًا من الوسخ والغبار، وعن إبراهيم بن موسى بن على- رضى الله عنه- قال: سمعت أبى يحدث عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ومن فى الصفة قال: «أيكم يحب أن يغدوا كل يوم إلى بطحان والعقيق فيأتى منه بناقتين كوماوتين فى غير ألم ولا قطيعة رحم؟ فقلنا: يا رسول الله كلنا نحب ذلك، قال: «لا يغدو أحدهم إلى المسجد فيتعلم ويقرأ آيتين من كتاب الله تعالى له من ناقتين أو ثلاث أو أربع ومن أعدادهن من الإبل».

قال الشيخ رحمه الله تعالى: فحديث عقبة يصرح بأن النبى ﷺ ردهم من العوارض الدنية التى تمنى الدنيا والإقبال عليها إلى ما هو أليق بحالهم وأصلح لبالهم من الاشتغال بالأحكام وما حوت عليه من منافع التبتل والأنوار ويعصمون به من المهالك والأخطار ويستريحون إليه بما يرد من الأسامى على الإسرار.

وعن ربيعة بن أبى عبد الله رضى الله تعالى عنه عمن أخبره أنه سمع أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه يقول: أقبل أبو طلحة يومًا، فإذا النبى ﷺ يقول: «الصفة» وعلى بطنه نصيل من حجر يقيم به صلبة من الجوع.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: كان شغلهم تفهم الكتاب وتعلمه ونهمتهم الترنم بالخطاب وترديده، فلما رآهم رسول الله ﷺ على ذلك قال: «الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم» قال ﷺ ليبشر فقراء المسلمين بالفوز يوم القيامة قبل الأغنياء بمقدار خمسمائة عام هؤلاء فى الجنة يتنعمون وهم لا يحاسبون». رواه جعفر بن سليمان.

وعن ثابت البنانى رحمه الله قال: كان سلمان فى عصبات يذكرون الله عزوجل، قال: فمر النبى ﷺ فكفوا، فقال: «ما كنتم تقولون؟» فقلنا: نذكر الله يا رسول الله، قال: «فقوموا فإنى رأيت الرحمة تتنزل عليكم، فأحببت أن أشارككم فيها»، ثم قال ﷺ: «الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم».

وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال: كنت من أهل الصفة فكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ فيأمر كل رجل فينصرف برجل، فيبقى من يبقى من أصحاب الصفة عشرة أو أكثر أو أقل فيأتى النبى ﷺ فنتعشى معه، فإذا فرغت قال رسول الله ﷺ: «ناموا فى المسجد» قال: فمر على رسول الله وأنا نائم على وجهى، فغمزنى برجله قال: «يا جندب ما هذه الضجعة، إنها لضجعة الشيطان».

وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن أبى النضر عن زرعة بن عبد الرحمن بن جرهد عن أبيه قال: كان جرهد رضي الله عنه من أصحاب الصفة وإنه قال: جلس رسول الله ﷺ عندنا وفخذى مكشوفة فقال: «أما علمت أن الفخذ عورة».

أصول التصوف

ب - الأصول

١ -التقوى

قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). وقال أبو سعيد الخدرى. رضي الله عنه: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال» يا نبى الله أوصنى «فقال عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم وعليك بذكر الله فإنه نور لك» ويقول سهل بن عبد الله رحمه الله: «لامين إلا الله ولا ولا دليل إلا رسول الله ولا زاد إلا التقوى ولا عمل إلا الصبر.

والتقوى: جامعة لجميع المقامات وهى كذلك الأساس الذى بنيت عليه الأخلاق فقد جاء فى الكلمات العشرة التى أنزلت على موسى ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله الملك الجبار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران» سبحنى وقدسنى لا إله إلا أنا فاعبدنى ولا تشرك بى شيئاً واشكر لى ولوالديك إلى المصير أحييك حياة طيبة ولا تقتل النفس التى حرم الله عليك فتضيق عليك السماء بأقطارها وتضيق الأرض برحبها ولا تحلف بأسمى كاذباً فإنى لا أطهر ولا أذكى من لم يعظم اسمى ولا تشهد بما لا يعى سمعك وأن تحفظ عينك قلبك فإنى أوقف أهل الشهوات على شهواتهم يوم القيامة فأسألهم عنها ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلى ورزقى فإن الحاسد عدو نعمتى ساخط لقسمتى ولا تزن ولا تسرق فأحجب عنك وجهى وأغلق دون دعوتك أبواب السماوات ولا تذبح لغيرى فإنه لا يصعد إلى من قربان الأرض إلا ما ذكر عليه اسمى ولا تغدر بحليلة

جارك فإنه أكبر مقتاً عندى وأحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك.

وشكا بعض المريدين إلى شيخه كثرة النوم فقال: إن لله نفحات بالليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطىء القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات. فقال له يا استاذ تركتنى لا أنام ليلاً ولا نهاراً. وقال إذا رأيت الناس ينامون فلا تنم وإذا رأيت الناس يضحكون فلا تضحك وإذا رأيت الناس يخوضون فلا تخض. وإذا رأيت الناس يختالون فتواضع ولا تكن جافياً ولا مارياً ولا صخاباً واعتبر بوصايا رسول الله ﷺ (اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك) وقال ابن عباس رضى الله عنهما كنت رديف النبى ﷺ فقال لى: «يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن قلت بلى يا رسول الله فقال أحفظ الله يحفظك. احفظ الله تجاهده تجاهك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة وإذا دعوت فادعو الله وإذا استعنت فاستعن بالله فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فلو اجتمع الخلق جميعاً وأردوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا على ذلك وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه عليك لم يقدروا عليه واعمل لله بالشكر فى الغنى واعلم أن فى الصبر على ما تكره خير كثير وإن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً. ودخل أبو حازم رحمه الله على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة فقال له يا أبا حازم مالنا نكره الموت؟ فقال لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم فإنكم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال فأخبرنى كيف القدوم على الله عز وجل. قال: يا أمير المؤمنين إن المحسن يقدم على الله كالغائب يأتى أهله فرحاً مسروراً وأما المسيىء فيقدم على الله كالعبد الآبق إلى مولاه خائفاً محزوناً. قال: فأى الأعمال أفضل قال: «أداء الفرائض وأجتناب المحارم» قال: فأى الدعاء أفضل؟ قال دعاء الملهوف لمن أحسن إليه. قال فأى الصدقات أزكى؟ قال: «جهد المقل بلا من ولا أذى. قال: فأى الناس أعدل» قال: من يقول كلمة حق عند من يخافه. قال: «فأى الناس أعقل قال: من عمل بطاعة الله تعالى ودل الناس عليها. قال: «فأى الناس أجهل». قال من باع آخرته بدنيا غيره، قال عظنى وأوجز قال: نزه ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك وأن يفقدك حيث أمرك فبكى أمير المؤمنين. فقال: رجل من جلسائة: لقد أسأت الى أمير المؤمنين. فقال له أبو حازم اسكت فإن الله أخذ الميثاق على العلماء ليبيننة للناس ولا يكتمونه ثم خرج فبعث إليه بمال فرده إليه وقال: «ما أرضاها لكم فكيف آخذها منكم».

وللتقوى ظاهر وباطن فظاهرها محافظة وباطنها النية والإخلاص ومن ألتزم بالتقوى يشتاق إلى مفارقة الدنيا ولا يأسف على ما ترك فيها من العمران أو المال حيث علم أن هذا زائل إيماناً بقول الحق سبحانه وتعالى«وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون».

وهؤلاء الذين عقلت قلوبهم وقال شاعرهم:

فلا عيش إلا مع رجال قلوبهم

تحن إلى التقوى وترتاح الذكر

سكون إلى روح اليقين وطيبة

كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

فإذا أردت أن تستدل على أحد المتقين فتجد فيه ثلاث خصال حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر على ما قد مضى.

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال:

«سادة الناس فى الدنيا الأسخياء وسادة الناس فى الآخرة الأتقياء، ولما سئل عن التقوى أجاب قال-هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل».

وبدوام التقوى يصل إلى مقام العبودية مع ترك التدبير والاختيار وهناك بحق اليقين فقوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) أى الخروج من المعاصى إلى الطاعة والعمل بما يرضى الحق فأين المخرج من المعاصى يا مدعى التقوى فإذا رأيت المخرج فلا دعوى فذلك ثمرة تقواك وضمان لك ودليلاً على الصواب والخير وإذا لم تر ذلك فأين تقواك وأين صدقك.

ولما نزل قول الحق سبحانه وتعالى (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ضج الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بالبكاء وجزعوا ولازالوا جادين مستمرين فى العبادة وفى البكاء حتى نحلت أجسادهم من قلة النوم وكثرة السهر والجوع وقيام الليل وصيام النهار خوفاً من عدم الإتيان بحقوق التقوى فلما علم الله عز وجل ذلك منهم مع ضعفهم وقلة حيلتهم خفف عنهم بلطفه ورحمته وأنزل وحيه بقوله عز وجل (اتقوا الله ما استطعتم) فاطمأنت قلوبهم وهدأت أرواحهم وسكتت جوارهم.

فكان هذا تشريعاً لمن بعدهم للأمة وتخفيفا على ضعافهم فكل يعمل على قدر طاقته فالقوى يعمل بالعزائم والضعيف يعمل بالرخص وجاء فى الحديث القدسى «إن الله يحب

أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه» وتحقيقا لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فالكرم أن تأخذ بالرخصه غير متشددا عند الاضطرار للرخصة فلا يصح للمريض فى رمضان أن يصوم ولكن يأخذ بالرخصة فيكفر عن صيامه بالصدقة أو يؤجل الصيام حتى يتم شفاءه، كذلك الصيام فى السفر فهو عدم الأخذ بالرخصة، حيث قال الحبيب ﷺ «ليس من البر الصيام فى السفر».

وقال الحق عز وجل ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾(١).

وسئل أحد الصالحين ما علاقة المتقى وكيف يعرف؟

فقال. «المتقى من خالف حظوظ نفسه من الشهوات وركب جادة المكابدات ولزم باب الموافقة للشريعة وأنس براحة اليقين عند ذلك يمن الله عليه بالفوائد وخرق العوائد فإذا سكنت التقوى قلبه نزلت عليه بركات العلم ونور اليقين وأشرقت عليه الفيوضات وزالت عنه الرغبة فى الدنيا.

ومن علامات التقوى الوقوف مع الحدود وعدم تعديها أو إهمالها وأن تعمل بطاعة الله على نور من الله وإياك وصحبة الأغنياء ولا تؤثر مجالستهم على مجالسة الفقراء واعلم بأن من ابتلاه الله بمجالسة الأغنياء وخاصة الظلمة منهم ابتلاه بقسوة القلب ثم موت القلب فلا يصلح لدخول حضرة الرب.

والمتقون هم الكاملون الحاملون لأوصاف الحق وحاملون لأوصاف الخلق فإذا رأيتهم من حيث الخلق رأيت أوصاف البشر وإن رأيتهم من حيث الحق رأيت الأوصاف التى زينهم بها فلبس العامة لبس الهداية ولبس العارفين لباس الهيبة، أما أهل الدنيا فلباسهم الزينة وأما لباس اللقاء فهو للأولياء ولباس التقوى لأهل الحضور مع الله حيث قال الحق ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾(٢) قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقوى

تجرد عريانا وإن كان كاسيا

---

(١) البقرة آية: ١٨٥.

(٢) الأعراف آية: ٢٦.

وقال آخر:

وخـــيـــر لبـــاس المرء طاعـــة ربه

ولا خـيـــر فـيـــمن لا يحب ويعـــشق

ومن لم يكن بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة فإن من لا تقوى عنده فهو مطموس، ومن لا مراقبة له فحاله منكوس وعلى مدار التقوى ترك ما دون الله ثم الانفراد به فلا يكون إلا الله وعلى قدر مجانبة النهى ويمراقبة النفس يدرك اليقين كمثل أنك دخلت أرضاً فيها شوك كثير كيف كنت تعمل إنك تتوقى وتتحذر وتتنقل بين الشوك على حذر فهذه هى التقوى، هكذا امتحان القلب بالتقوى ترحلاً عن حب الدنيا وحب الشهوات عند ذلك يطلعه الحق على المغيبات وإن لم يترحل فهو محجوب.

عن معاذ بن جبل-رضي الله عنه- قال أخذ بيدى رسول الله ﷺ ومشى ميلاً ثم قال يا معاذ: «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ورحم اليتيم وحفظ الجوار وكظم الغيظ ولين الكلام وبذل السلام ولزوم الإمام والتفقه فى القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وحسن العمل وأنهاك أن تشتم مسلماً أو تصدق كاذباً أو تكذب صادقا وتعصى إماما عادلاً وأن تفسد فى الأرض، يا معاذ أذكر الله عند كل شجر وحجر وأحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية».

٢-الجوع

قال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾(١) وقال عز من قائل ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت السيدة فاطمة الزهرا-رضي الله عنها- بكسرة خبز لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذه الكسره يا فاطمة» فقالت: قرص خبزته ولم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال ﷺ «أما أنه أول طعام دخل فم ابيك منذ ثلاثة أيام».

ولهذا كان الجوع من صفات القوم وهو من أركان المجاهدة ورياضة النفس فإن أرباب السلوك قد درجوا إلى إعتياد الجوع والإمساك عن الأكل وسبب ذلك لعلمهم بأن خلو البطن من الطعام يؤدى إلى تفجر ينابيع الحكمة فى القلب فإذا تفجرت ينابيع الحكمة تنور القلب فأشرقت البصيرة وقويت الفراسة وأورثه الله علما لدنياً.

(١) البقرة آية: ١٥٥.　(٢) الحشر آية: ٩.

وجاء فى الخبر أن الله تعالى قال «إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أحرمه لذيذ مناجاتى».

فقلة الأكل ومخالطة السفهاء وأهل البله الذين ليس معهم أنصاف ولا أدب، وللنفس أربعة مراكز: مركزاً للشهوة وحظه المخالفات، ومركزاً للشهوة وحظه فى الطاعات، ومراكزُ فى الميل إلى الراحات وحظه هوى النفس والتسويف والعجز عن أداء المفروضات، ومركز حب الظهور وحظه النصر على من ظلمه وهى من الشهوة الخفية للولى إذل ظلم إن لم يكن من أهل السماح وسعة الخلق.

والجوع فى مقام العبودية امتثال الأوامر واجتناب النهى ورفض الشهوات المشينات فمن وصل بقلبه بعد المجاهدة والرياضية والمكابدة إلى غلبة الشيطان والنفس والدنيا بكثرة الذكر فقد ظفر بالعبودية الحقة واستلذ بكلام الله تعالى مناجياً واستحق بذلك الخير العميم، ومن كان محصوراً فى سجن الهوى والشهوات حرم الله على قلبه الفوائد وأصبح تحت طائلة فيمن قال عنهم الحق عز وجل {سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق} والشهوة أمام الشيطان فمن أخذ بزمامه كان عبداً له فإذا أردت أن تقطع حبائل الشيطان وتضيق عليه مجارية فإنه يجرى فيك مجرى الدم فعليك بالجوع وهو طعام الزاهدين والذكر طعام العارفين وقالوا «إذا أردت أن تنجى من الآفات فعليك بخلو البطن مع قناعة القلب وعليك بالفقر الشرعى أى فقر دائم مع ذكر حاضر وصبر كامل معه ذكر دائم ودواء القلوب فى أربعة: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن بالجوع، والتضرع فى السحر مع الخشية والتذلل ومجالسة الصالحين والتعلم منهم، الجوع أعظم قائد إلى حضرة الملك القدوس فإن يكن ولابد فثلث البطن الحاكم للنفس وجوع التوابين تجربة وجوع الزاهدين سياسة للنفس وجوع الصديقين تكرمة من الله لهم والجوع عند السالكين غنيمة حتى تستتير قلوبهم.

والجوع هو أحد أركان الطريق أو معظمه وكثرة الجوع شرط والعزلة والسهر وقلة الكلام هم أركان الطريق وبالجوع تفتح ينابيع الحكمة فأخذوا فى تقليل الأكل حتى وصلوا إلى أكل لقمة واحدة كل يوم وليلة أو ثمرة أو لوزة أو زبيبة ثم تدرجوا فى مراحل الجوع يوم فثلاثة فسبع حتى وصلوا إلى سنة لم يطعموا فيها طعام إلا شرب الماء ومنهم من أكل حفظاً للبشرية وجاء فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن بها صلبه» ومنهم من إذا جاع قوى وإذا شبع ضعف فلا حرج على قدرة الله.

وقال أحدهم: لما خلق الله الدنيا جعل فى الجوع العلم والحكمة، وجعل فى الشبع الجهل والمعصية، والقلوب الشجاعة الكريمة تصبر على الجوع أكثر من صبرها على الغواية ولما كان الجوع سبباً فى صفاء الأسرار مع الاستغراق فى الأذكار أنتج ذلك تحققاً بالله ورفضا لما سواه فكانت حياتهم بالذكر تنعماتهم بالفكر وأنسهم بالقرب ومناجاتهم بالمشاهدات وغرامهم فى المكاشفات ولذتهم بالمعاينات ونارهم بالغفلات لذلك رضى الله عنهم ورضوا عنه.

٣-السهر

قال تعالى ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] وقال ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] وقال عز من قائل ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

والسهر إما لذكر الله أو لمطالعة علم أو التفكير فى مصنوعات الله سبحانه وتعالى وهذا هو السهر فى الطاعات أما خلاف ذلك فهو فى المحذورات والمخالفات وأقله ثلث الليل الأخير لأن التفكير فى ذلك الوقت ولو لحظة واحدة خير من عبادة سبعين سنة ومن شأن أهل الطريق قلة الطعام وترك فضول الكلام والسهر والناس نيام أى النوم الزائد عن الحاجة.

فقد مدح الحق سبحانه وتعالى الذين يجافون النوم سهراً لذكره وطلباً لمغفرته فالهم قلوبهم عند ذلك الدعاء وأورد على ألسنتهم وقلوبهم ذكره فارقوا ليلهم بالسهر وأكحلوا عيونهم بالسهد فما صفا لهم مضجع وقال قائلهم لما أسر تركنا الأسرة أى لما كوشفوا بالأسرار تركوا مضاجعهم أى الأسرة أى خلعوا عذارهم وتقلدوا سيوف جهادهم ينوبون النوم عن أعينهم كأنه عدو يقاتلهم وذلك ليصفوا لوقت محبوبهم يناجونه ويناغونه فى سحر الليل وقد نام وغفل الغافلون. سهروا مع ندماتهم وشربوا رحيق شرابهم فهاموا بذكره، فهم الذين يكرهون الكرى إذا لاعب جفونهم ولا يتعاطونه إلا قليلاً لذلك رق حجابهم وصفت أنفسهم والسهر من الدعائم الأساسية التى يقوم عليها المنهج الصوفى وهى أربعة: الجوع والسهر والصمت والعزلة، والسهر هو السبب فى خلو الحبيب بحبيبه فإذا خلا الحبيب بحبيبه أسدلت الستائر ورفعت الحجب فصار القول همساً وصارت المناجاة مناغاة وصفا السر بالسر وقال الحق سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٥].

٤ - العزلة والخلوة

أن يخلو الإنسان بربه فترة من الزمن هى فترة العزلة أو الخلوة فترة الكهف أو فترة الغار ويلزم فيها الذكر والمراقبة والتوبة والاستغفار وثمرتها الظفر بمواهب المنة وهى أربعة. كشف الغطاء، وتنزيل الرحمة، وتحقق المحبة، ولسان الصدق فى الكلمة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدىء به الرسول ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه-وهو التعبد. الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك وفى هذا الحديث دليل الصوفية فى الخلوة والانقطاع عن الخلق فى الزوايا والمساجد.

والخلوة تعين على التفكير فى عظمة الله وسعة قدرته وعموم نعمته وباهر حكمته، وقد كان تعبد النبى ﷺ فى خلوته بغار حراء تفكيراً واعتباراً وحض القرآن الكريم على التفكير فى غير آية منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] والخلوة أجمع لقلب المريد وأعون له على التفرغ لذكر الله وأبعد عن الرياء وتهنئته لقبول الواردات الإلهية والتجليات الربانية، وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «السنة على المعتكف أن لا يعود مريضاً ولا يشهد جنازة ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة إلا لما لابد له منه» وسموها بالصوفية تجريداً لأن المريد يتجرد من العلائق والعوائق وينقطع إلى الذكر والعبادة مدة قد تطول وقد تقصر بحسب استعداده وما قسم له ولكنهم صرحوا مع ذلك بأن المريد إذا كان له عمل يتكسب له كالتجارة أو الصناعة مثلا فلا ينبغى له تركه إلى الخلوة والتجريد بل يبقى فى عمله الذى أقامه الله فيه ويستطيع أن يذكر الله فى حالته تلك وفى أوقات فراغه ولهذا قال ابن عطاء الله فى الحكم: إرادتك التجريد مع إقامة الله وإياك فى الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد إنحطاط عن الهمة العالية، عن أبى هريرة- رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أخير معايش الناس كلهم رجلاً آخذا بعنان فرسه فى سبيل الله إن سمع فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغى الموت أو القتل فى مظانة، أو رجلاً فى غنيمة له فى رأس شعفة من هذه الشعاف أو فى بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا فى خير).

والخلوة صفة أهل الصفوة والعزلة من أمارات الوصلة ولابد للمريد فى ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم فى نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه وحقيقة الخلوة الانقطاع من الخلق لأنه سفر من النفس إلى القلب إلى الروح إلى السر ومن السر إلى واهب الكل، ودواء القلب قلة الاختلاط بالناس وعدم مجاراتهم فى اللغو والنميمة والغيبة فى حق الناس والقذف والحسد والحقد وخلافه من أمراض القلوب الخالية من التقوى والخروج من ظل المعصية إلى عز الطاعة والأنس بالوحدة والغنى بالقناعة والتبصر بعيوب النفس (الوحدة خير من جليس السوء) فمن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا والآخرة فإذا أردت أن تسلم بدينك وتستريح ببدنك فاعتزل عن الخلق فإن هذا زمان وحشة والعاقل من اختار فيه الوحدة، ومن اختار الخلوة عن الصحبة ينبغى أن يكون خاليا من جميع الأذكار إلا ذكر الله وخالياً من جميع الإرادات إلا رضى ربه وخالياً من مطالب النفس من جميع الأسباب فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى الفتنة أو البلية.

وأوصى الشبلى أحد مريديه فقال: ألزم الوحدة وامح اسمك عن القوم وأنس بالله واستعد للملاقاة وليكن الجوع طعامك وحديثك المناجاة واستقبل الجدار فإما أن تموت وإما أن تصل إلى الله، وعلى صاحب العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شرهم ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر.

ومن آداب العزلة

أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده لكى لا يستهويه الشيطان ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدى به فرضه ليكون بناء أمره على أساس محكم، والعزلة فى الحقيقة اعتزال الخصال الذميمة ولهذا قيل: من العارف؟ قالوا كائن يعنى مع الخلق بائن عنهم بالسر.

والعزلة عملاً من أعمال القلب لا الجسد وقد يحضر قلب المرء وهو بين الناس وفى غمرة ضجيجهم وقد لا يحضر وهو فى عزلة عنهم والليل مخيم عليه.

والعزلة عن الخلق إلا لضرورة من طلب علم أو تدريس للطلبة احتساباً لوجه الله تعالى ومن أظهر الانقطاع إلى الله تعالى لزمه خلع ما دونه من عنقه.

قيل لبعض الحكماء: ماذا أرادوا بالعزلة؟ قال يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم فى قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة. وقال آخر: إذا استوحش

الإنسان من نفسه لخلو ذاته من الفضيلة يكثر من ملاقاة الناس فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة.

وشروط العزلة: خروج العبد من مظالم الخلق وفق مراسم الشريعة وأن يكون له من العلم ما يصحح به ثلاثة أمور:

١- فله من علم التوحيد ما يحكم به اعتقاده على مذهب أهل السنة والجماعة، وله من علم الفقه ما يصحح به أداء ما أفترضه الله عليه وله من فقه القلوب ما يعلم به خفايا النفس وغوائلها، وهذا الأمور فرض عين عليه وإلا كانت مشاهداته معارضة لمعايير العلم الصحيح أي الكتاب والسنة.

٢- براءة القصد من أدر ان العلل فلا يكون له قصداً إلا الله وإلا صحبه الداء في العزلة.

٣- طهارة القوت من الشبهة.

أما الآداب: فتتحصر على وجه الإجمال في خمسة وهي فيما بينه وبين الخلق:

١- أن ينوي بالعزلة سلامة الناس من شره لا من شرهم ولا تكن عزلته أنفة وكبر فيقع في «أنا خير منه».

٢- الإقلال من لقاء الناس حتى لا يتشوش عليه حاله.

٣- عدم المبالاة بما يسمع من ثناء ومدح.

٤- معرفة أهله بموطنه الذي يريد أن يعتزل فيه.

٥- التوسط في جميع الأمور فلا جوع مضعف ولا شبع متخم.

أما بينه وبين الخالق فأربعة أمور هي:

١- دوام الطهارة والوضوء.

٢- ملازمة التوبة من الكبائر والصغائر بالاستغفار.

٣- المحافظة على صلاة الجمعة والجماعة.

٤- دوام الإقبال على الله بكنه الهمة سيراً بالمواظبة على أوراده ووظائفه أو بالفكر في جلال الله وصفاته وآثاره، والعزلة ترك الخلق وما يعبدون من دون الله وذلك.

لا يكون المعتزل إلا بأمرين:

١- اعتزالهم جسداً بنية سلامتهم من شره وسلامته من شروره.

٢- اعتزال النفس والشيطان والهوى والدنيا فلا يكون لواحد منهم عليه حكم ويكون الحكم كله لله، وأصل العزلة من السنن درج عليه الأنبياء والصالحون من عباد الله، لو شهد المعتزل عن الناس أن الناس خير منه ما اعتزل عنهم بل كان يطلب الخلطة بهم ويتعلم من أخلاقهم.

والخلوة الكاملة بالله وحده لا تكون إلا للقطب الغوث فى كل زمان فإذا فارق هيكله المنور بالانتقال إلى الدار الآخرة انفرد الحق تعالى بشخص آخر مكانه ولا ينفرد بشخصين قط فى زمان واحد.

وهذه الخلوة وردتا فى الكتاب والسنة ولكن لا يشعر بها إلا أهل الله تعالى وخاصته أما خلوة غير القطب إنما هى لمزيد الاستعداد والبعد عمن يشغله عن الطاعات من المخلوقين لا غير وإذا كان الفضل فى الجماعة فإن السلامة فى العزلة.

ومن أحب أن يفتح الله تعالى عليه بنور القلب فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا.

كذلك لا تصلح العزلة إلا لمن تفقه فى دينه وقد كان السلف يشتغلون أو لا بالعلم إلى سن الأربعين ثم يعتزلون للاستعانة بالعزلة على العمل بما عملوا ومن شرط الخلوة الطى وله تأثير كبير واختار القوم سن الأربعين لأن فيها يكون نتاج النطفة علقة ثم مضغة ثم صورة وهى مدة الدر الصدفة وعدد أيام توبة داوود عليه السلام.

٥ - الصمت

وهى من أركان وعمد طريق القوم ومن أعز وأعجب أحوالها ومقاماتها وهو أصحب المقامات ولا يستطيعه الا الأكابر وهذا من توفيق الله لهم.

عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.

وقال عقبة بن عامر – رضي الله عنه – : قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال ﷺ احفظ عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك.

والسكوت على قسمين: سكوت بالظاهر أي باللسان وسكوت بالباطن وهو بالقلب والضمائر.

فالمتوكل على الله يسكت قلبه عن تقاضي الأرزاق ومناقشتها والعارف يسكت قلبه مقابل الحكم بصفة الوفاق فهذا بجميل صنعه واثق وهذا بجميع حكمة قانع.

والصمت لا يكون إلا عند ذكر الله أو مطالعة علوم نافعة أو ما نحو ذلك ومن أنواع الصمت:

١– صمت من آداب الحضرة: قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٢– وصمت لحضرة الرسول ﷺ ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ [الأحقاف:٢٩].

٣– وصمت خشوع قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨].

٤– وصمت دهشة وحيرة البديهة فإذا ورد كشف عن وصف البغتة خرست العبارات عند ذلك فلا بيان ولا نطق وطمست الشواهد هنالك فلا علم ولا حس قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة:١٠٩].

وآثر أرباب المجاهدة السكوت لما علموا ما في الكلام من الآفات ثم ما فيه من حظ النفس وإظهار صفات المدح والميل إلى أن يتميز بين أشكاله بحسن النطق وغير هذا من آفات في الخلق وذلك نعت أرباب الرياضات وهو أحد أركانهم في حكم المنازلة وتهذيب الخلق فإذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم ولا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ولا تصح التوبة حتى يلزم نفسه الصمت.

وقيل إن أبا حمزة البغدادي – رحمة الله – حسن الكلام فتهتف به هاتف فقال له: تكلمت فأحسنت بقي أن تسكت فتحسن فما تكلم بعد ذلك حتى مات قريبا من هذه الحالة على رأس أسبوع أو أقل أو أكثر.

وكان الشبلي إذا قعد في حلقة ولا يسألونه يقول:

(وقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون)

وربما يقع السكوت على المتكلم لأن فى القوم من هو أولى منه فى الكلام.

ودعى إبراهيم بن ادهم إلى دعوة فلما جلس أخذوا فى الغيبة فقال: عندنا يؤكل اللحم بعد الخبز وأنتم بدأتم بأكل اللحم اشار إلى قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢].

٥- وصمت العوام بألسنتهم وصمت العارفين بقلوبهم.

٦- وصمت المحبين بالتحفظ من خواطر أسرارهم.

قال الشاعر:

رأيت الكلام يزين الفتى
والصمت خير لمن قد صمت
فكم من حروف تجر الحتوف
ومن ناطق ود أن لو سكت

وإذا استطعت أن تتعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن كان الكلام يهديك فإن الصمت يقيك وقال محبهم: تعلمت من شيخى جميع الأحوال والمقامات إلا حال ومقام الصمت فأخذت فى ممارسة الصمت والتدريب عليه فلم استطعه فقال لى شيخى جاهدها وكابدها وعلم لسانك أن يسمع من قلبك ولا يسمع قلبك من لسانك فإنك إن سكت لسانك نطق قلبك بالصدق ولو صرت رميما ما تخلصت من حديث نفسك ولو جهدت كل الجهد لم تكلمك روحك لأنها كاتمة السر والصمت عبادة من غير عناء وزينة من غير حلى وهيبة من غير سلطان وحصن من غير سور وراحة الكاتمين وغنية عن الأعتذار.

٧- وصمت الدعاة دعوة إلى الله وأن سيرهم دعوة إلى الله وجلوسهم دعوة إلى الله وأن عملهم دعوة إلى الله وأن حديثهم دعوة إلى الله.

ويقول الإمام الشافعى - رضي الله عنه - «لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت الكلمة ملكتك ولم تملكها» وكان النطق عنده مسفرة والصمت عنده مسترة فالكلمة أغلى القيم عنده. وقال: «من كتم سره كانت الخيرة فى يده» وقيل له ما يحط من شأن الرجل قال: كثرة الكلام وإذاعة السر والثقة بكل أحد والوقار فى النزهة سخف.

وكان الإمام جعفر - رضي الله عنه- إذا سئل أطال الصمت وإذا تكلم أجاب على سداد

ويخيل للسائل أنه يزيد أو يلهم.

وكان سيد الخلق عليه الصلاة والسلام جل ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام فيه دعابة قليلة وإذا مزح غض بصره ولا يقل إلا حقا طويل الصمت قليل الضحك فإذا ضحك وضع يده على فيه وإذا أهتم أكثر من مسك لحيته، وكان سكوته ﷺ على أربع: الحلم والحذر والتدبير والتفكير، فأما تدبره ففي تسوية النظر والإستماع بين الناس حتى يحسب جليسه أنه لا يخاطب غيره، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى أي تفكره فيما يبقى من أمر الآخرة وفيما يفنى من ترتيب شئون الدنيا وجمع له الحلم فى الصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفذه ولا ينتصر لنفسه، وجمع له فى الحذر أربع أخذه بالحسن ليتقدى به وتركه القبيح لينتهى عنه واجتهاده الرأى فيما يصلح أمته والقيام فيما جمع لهم من أمر الدنيا والآخرة ﷺ.

٦- الفقر

الفقراء ملوك أهل الجنة. قال النبى ﷺ «ألا أخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره».

وقال النبى ﷺ: «خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعهم مضجعا فى الجنة ضعفاؤها».

والفقر خمس حالات:

١- زاهد إن أتاه المال يكرهه.

٢- راض لا يرغب فى المال وإن أتاه لم يكرهه.

٣- قانع أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه وإن أتاه عفواً وصفواً أخذه وفرح به (قنع بالموجود وترك الطلب).

٤- حريص مشغول بطلب المال وطلبه ولو بالتعب.

٥- مضطر أن يكون ما فقده من المال يضطر إليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب.

قال رسول الله ﷺ «إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال».

وروى أن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه:

«أى الناس خير فقالوا ميسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس لها. فقالوا: فمن خير الناس يا رسول الله: قال فقير يعطى جهده».

وقال بعض الحكماء: مسكين بن آدم لو خاف من النار كما خاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعاً ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعاً.

والفقير الصابر هو الذى لا يسأل أحد وإن أعطى شكر وإن منع صبر، صابر لأحكام الله تعالى بالكتاب والسنة، وروى عن المسيح عليه السلام أنه مر فى سياحته برجل نائم ملتف بعباءته فأيقظه وقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال: ما تريد منى انى تركت الدنيا لأهلها، فقال له نم إذاً يا حبيبى.

ومر موسى عليه السلام برجل نائم فى التراب تحت رأسه لبنه ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزمل بعباءة فقال: يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه (يا موسى أما علمت أنى نظرت إلى عبدى بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها) والفقر هو التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس وقيل شعراً:

تضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس

واقنع بيأس فإن العز فى اليأس

واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم

إن الغنى من استغنى عن الناس

والفقر ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فذاك من الروحانيين، وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ فذاك أوسط القوم، وفقير إذا اضطرته الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال فكفارة مسئلته صدقة فى السؤال والفقر بساطة الشكر وثمرته المزيد منه واقنع الفقراء من ستر الحق حقيقته.

ودخل عليه الصلاة والسلام على رجل فقير لم ير له شيئاً فقال: «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم».

فحبك للفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامات الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامات المنافقين.

قال القطب سيدى أحمد البدوى - رضي الله عنه - إن الحسن البصرى - رضي الله عنه - قال صحبت الفقراء ثمانية أعوام كاملة فتعلمت منهم ستة مسائل وهى من جوهر الحكمة.

١- من لم يكن عنده علم لم تكن له قيمة فى الدنيا والاخرة.

٢- من لم يكن عنده حلم لم ينفعه علم.

٣- من لم يكن عنده شفقة على عباد الله لم يكن له شفاعة عند الله.

٤- من لم يكن عنده سخاء لم يكن له فى ماله نصيب.

٥- من لم يكن عنده صبر ليس له فى الأمور سلامة.

٦- من لم يكن عنده تقوى ليس له منزلة عند الله.

ومن حرم هذه الخصال الستة ليس له منزلة فى الجنة.

وقال الغوث الرفاعى - رضي الله عنه -: الفقراء أشراف الناس لأن الفقر لباس المرسلين وجلباب الصالحين وتاج المتقين وغنيمة العارفين ومنية المريدين ورضا رب العالمين وكرامة لأهل ولايته.

وكان رضي الله عنه يقول: «الأنس بالله لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته وصفا ذكره واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى فعند ذلك أنس بالله وحققه الأنس فأخذه عن وجد وحرمه الخوف عما سواه وكان يقول المشاهدة حضور بمعنى قرب المصون بعلم اليقين وحق اليقين والتوحيد وجدان وتعظيم فى القلب يمنع من التعطيل والتشبيه.

وكان يقول لسان الورع يدعو إلى ترك ولسان التعبد يدعوا إلى دوام الاجتهاد ولسان المحبة يدعوا إلى الفناء والمحو ولسان التوحيد يدعو إلى الإثبات والحضور.

ومن أعرض عن الإغراض أبداً فهو المتأدب، وكان يقول لو تكلم الرجل فى الذات والصفات كان سكوته أفضل ولو خطا من قاف إلى قاف كان جلوسه أفضل، وقال: سيدى أحمد الرفاعى - رضي الله عنه - الفقير متى نظر إلى ما يلبس ألتبس عليه أمره ومتى رأى الخلق دونه ظهرت عيوبه».

والمريد إبن ساعته لا يومه. والفقير يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر يدعو كل ساعة ما يصلح لها ولا يضيع من وقته لحظة مثله مثل المرآة ينظر فيها كأى شيء».

وقال أيضا من آداب الفقير أن يكون كاتماً للسر بائحاً للذكر صحيح العقد جليس الحسرات خالياً من الشهوات صدره بغير جزع ووداعته بغير هلع عيشه قناعة وجوعه طاعة إن منع صبر وإن فتح الله عليه بشيء آثر لا يعرف الراحة ولا يأمل استراحة كثير الصيام والقيام قليل الكرى والمنام اشتغاله مطالبة النفس بالتصحيح وحرس لسانه عن الكلام القبيح قد تسربل بسربال الرضا وصبر تحت مر القضاء، والفقر هو إن لا تطلب الأرزاق إلا عند خوف العجز عن القيام بالفرض، وقالوا: الفقير لا يكون لك شيء وإن كان لك تؤثر به غيرك، بمعنى قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وإذا صح الأفتقار إلى الله صح الغنى بالله لأنهما حالتان لا يتم لأحدهما إلا بالأخرى، وصفة الفقير السكون عند العدم والبذل والإيثار عند الوجود قال فارس – رحمه الله – قلت لأحد الفقراء مرة ورأيت عليه أثر الجوع والضر لم لا تسأل الناس فيعطوك ويطعموك قال: أخاف أن أسألهم فيمنعوني فلا يفلحوا فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال «لو صدق السائل ما أفلح من منعه» وهذه الإجابة التي أجاب بها الفقير مذهب في حالة معينة وإلا فإن السؤال ليس من شأن القوم، والفقير إذا لم يظهر له برهان لا يحترم له الجناب وإذا لم يكن الفقير حرفة تكفه عن سؤال الناس فهو غير متوكل لأن التوكل لا يمنع من اتخاذ الأسباب.

وقالوا: إذا الفقير سلك على يد رجل لم يصل إلى الله وانتقل شيخه ولم يفطمه من حقه أن يواصل جهاده على يد شيخ آخر يتابعه حتى يبلغ مراده ويفطمه.

والفقير في الظاهر وفي الباطن يجب عليه أن يشاور شيخه في الأمور كلها وصح عندهم (من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه) فكم لعب الشيطان بعباد كثيرون وقطعهم عن الله عز وجل لعدم اتخاذهم شيوخ لهم ينيرون لهم الطرق وليس عندهم عصا يضربون بها من أساء الأدب في حقهم وما عندهم إلا تغير خواطرهم وإنما يسددون سهماً فهم يصيبون مرماهم، وروى أن فقيراً خرج يوماً من الزاوية فرأى جرة خمر مع إنسان فكسرها فبلغ ذلك الشيخ فأخرجه من الزاوية وقال ما أخرجته لأجل إزالة المنكر وإنما هو لإطلاق بصره حتى يرى المنكر لأن الفقير بصره موضع قدمه.

وليس للفقير رأس مال في هذه الدار إلا قلبه فليس له أن يدخل على قلبه من أمور الدنيا شيء أن يكدره ولا يكمل الفقير في باب الاتباع لرسول الله ﷺ حتى يصير مشهودا له في كل عمل مشروع ويستأذنه في جميع أموره، من أكل ولبس وجماع ودخول وخروج فمن فعل ذلك فقد شارك الصحابة رضي الله عنهم في معنى الصحبة ويجب على الفقير أن

يذكر لشيخه أمراضه الباطنة وإن كانت قبيحة ليدله على طريق شفائه منها وإن لم يفعل وترك ذلك حياء طبع فربما مات بدائه لأن حياء الطبع مذموم لكون الإفصاح عن المرض فيه زوال رياستها وذمها.

الصوفى المجرد من الدنيا يعنى المجرد من حبها لأن من أحب الدنيا فلا يمكن تكون أعماله خالصة لوجه الله تعالى، أما من تجرد من حبها فأعمالها كلها خالصة لوجه الله تعالى.

والفقر الصوفى هو أن تهجر الصفات الذميمة من النفس وليس هو الفقر المادى فكثيراً ما نرى من الفقراء الصوفيين أصحاب أموال كثيرة فالفقير الصوفى هو من لم تبق منه بقية من حظوظ النفس وكدوراتها فإذا تحقق الفقير أصبح له أنوار التوجه وأنوار المواجهة للحق.

واختلفوا فى صفة الفقير الصوفى والفقير الزاهد.

فالفقير الصوفى واصل والفقير الزاهد راحل وهما بين الطلوع والنزول لا يرون فى الدارين غير الله فهما شىء واحد.

وغنيمة الفقير فى هذا الزمان غفلة الناس عنه وإخفاء مكانه عنهم فإن لقاء غالب الناس خسران.

وإذا أراد بعبد خيراً زوى عنه الخذلان وأسكنه بين الفقراء الصادقين.

وإذا أراد بعبد شراً عطله عن الأعمال الصالحة حتى تكون على قلبه أثقل من الجبال وأسكنه بين الأغنياء.

وقيل الفقر والتصوف خصال معدودة محمودة هى تجريد التوحيد ثم الإيثار وإيثار الإيثار ثم حسن العشرة ثم فهم الاستماع ثم ترك الاختيار ثم سرعة الوجد ثم الكشف عن الخواطر ثم كثرة الصمت ثم ترك الاكتساب ثم تحريم الادخار، وما ابتلى الله عز وجل الفقير بأمر إلا هو يريد أن يرقيه إلى منازل الرجال فإن صبر وكظم الغيظ وعفا وتكرم رقاه إلى الدرجات وإلا أوقعه وطرده.

وسئل عمر النسيابورى - رحمه الله - عن آداب الفقراء فقال: «هو حفظ حرمات المشايخ وحسن العشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر وترك الخصومات وملازمة الإيثار ومجانبة الإدخار وترك صحبة من ليس على طريقهم ومعاونة الإخوان فى أمر دنياهم وآخرتهم».

فاعرض هذه الصفات على نفسك فإن وفيت بها فأنت فقير، وتنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن:

عند السماع فإنهم لا يسمعون إلا من حق ولا يقومون للذكر إلا عند وجد وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة وعند مجاراة العلم فإنهم لا يذكرون إلا أحوال الأولياء.

وأخس الفقراء قيمة من يقبل مرافقة النسوان على أى حالة كانت والفقير هو الذى لا يكون له إلى الله حاجة أى أنه يكتفى بعلم الله بحاجته وأنه اشفق عليه من نفسه فلا يحوجه إلى سؤاله لأنه لا يستغنى عن مولاه طرفة عين كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾.

وإذا انحط الفقراء عن حقيقة العلم إلى ظاهره أساءوا الأدب مع الله تعالى فى أحوالهم بخلاف غيرهم، ومن غضب منهم لنفسه تعب وإن سلم الأمر إلى مولاه نصره من غير عشيرة وأهل.

ومن شروط الفقير هى حسن الخدمة وحفظ الحرمة وتعظيم النعمة ونفوذ العزيمة وهو تصميم العزم على السير إلى الوصول فإذا أكل أو ضعف جدد العزم حتى يصل فإذا خاف على نفسه الملل والرجوع روح لها بترك المجاهدة وسوف لها بالراحة وبالبشارة والوصول وإذا أخا الفقير فى الله تعالى وجب عليه أن يشاطر أخاه فى ماله كما فعل الأنصار مع المهاجرين حين قدموا إلى المدينة وهم فقراء فكل من أدعى الإخوة فى الله فامتحنه بهذا الميزان، كما ينبغى للفقير أن يتعاهد مع أخيه على أن كل من سبق لحضرة الله منهم يكون وسيلة له عند ربه ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢].

وقال الفقراء من أراد أن يرى النبى ﷺ فليكثر من ذكره ليلاً ونهاراً مصلياً عليه مع محبته، والسادة الأولياء وإلا فباب الرؤيا عنه مسدود لأنهم سادات الناس وربنا يغضب لغضبهم، وكذلك رسول الله ﷺ لأن أولياء الله يطلعون على أمور لم يطلع عليها العلماء فلا يسع الخائف على دينه إلا الأدب معهم والتسليم للقوم أسلم والاعتقاد فيهم أغنم، وأحذر من صحبتهم أن تفشى أسرارهم إلى غيرهم ومن ليس له مشربهم ولا نوقهم فإن الله تعالى ربما يمقته فيخسر الدنيا والآخرة فلا يخفى أن إظهار السر كإظهار العورة وقد حرم كشفها والنظر إليها والتحدث بها، وورد فى الحديث الشريف: «من ستر عوردة أخيه ستر الله عورته ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته حتى يفضحه».

قال شاعرهم:

شـــاور أخـــاك إن نابتك نائبـــة

يومـــاً وإن كنت من أهل المشـــورات

فـــالعـــين تكفى كـــفـــاحـــاً مـــا نأى

ودنى ولا ترى نفـــســـهـــا إلا بمرآة

وليس للعبد خير من أن يكون عبداً فقيراً ليس معه شيء لا زاهد ولا عبادة فيفنى عن الجميع فإذا فنى عن الجميع، كان الجميع وراءه، والفقر إمارة على التوحيد، ودلالة على التفريد، من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه.

٧- الإرادة والقصد

قال الله عزو وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾.

وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله فقيل كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال يوفقه لعمل صالح قبل الموت»، والإرادة بدء طريق السالكين لأنها مقدمة كل أمر فما لم يرد العبد شيء لم يفعله، فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله عز وجل سمى إرادة تشبيه بالقصد والأمر (أى الطلب) هو مقدمتها.

والمريد فى عرف هذه الطائفة من لا إرادة له.

فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً وحقيقة الإرادة هى نهوض القلب فى طلب الحق سبحانه وتعالى وترك ما عليه عادة الناس من الغفلة والركون إلى إتباع الشهوة والخروج عن العادة أمارتها ودليل على صحة الإرادة.

والمريد لا يفتر أناء الليل والنهار وهو فى الظاهر بنعت المجاهدات وفى الباطن بوصف المكابدات فارق الفراش ولازم الانكماش وتحمل المصاعب وركب المتاعب وعالج الاخلاق ومارس المشاق وعانق الأهوال وفارق الأشكال كما قيل شعراً:

ثم قطعت الليل فى مـــهـــمـــة

لا أســـد أخـــاف ولا ذئبـــاً

يغلبني شـــوقي فـــأطوي الســـر

ولم يزال ذو الشـــوق مـــغلوباً

والإرادة لوعة في الفؤاد ولدغة في القلب وغرام في الضمير وانزعاج في الباطن ونيران تتأجج في القلوب.

ولما كان هذا حالهم وسنة الله تعالى في القاصدين مختلفة فأكثرهم يوفقون للمجاهدات ثم يصلون بعد ذلك إلى سنى المعاني وكثير منهم يكاشفون في الابتداء بجليل المعاني ويصلون إلى ما يصل إليه كثير من أصحاب الرياضات إلى أن أكثرهم يردون إلى المجاهدات يستوفوا ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة.

وحقيقة الإرادة نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وتعالى مع التحبب إليه بالنوافل والإخلاص في نصيحة العامة والأنس بالخلوة والصبر على مقاساة الأحكام من استدامة الكد وترك الراحة وليس أضر على المريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص وقبول التأويلات وتحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء والجلوس مع الله بلاهم وحبس النفس عن مراداتها والإقبال على أوامر الله تعالى والرضا بموارد القضاء وطريق القصد إلى الله تعالى أربعة أشياء من حازها فهو من الصديقين المحققين ومن حاز منها ثلاثة فهو من الأولياء المقربين ومن حاز منها اثنين فهم من الشهداء الموقنين ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصالحين.

١- الذكر وبساطة العمل الصالح وثمرته النور.

٢- التفكير وبساطة الصبر وثمرته العلم.

٣- الفقر وبساطة الشكر وثمرته المزيد منه.

٤- الحب وبساطة بغض الدنيا وأهلها وثمرته الوصل بالمحبوب.

٨- المحاسبة

المحاسبة هي محاسبة النفس ومراعاة الخواطر مع الأوقات وإتهامها في جميع الأحوال.

وجاء في الأثر (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) وقال بن عربي - رحمه الله - لأحد مريديه: «ومما لابد منه محاسبة نفسك ومراعاة خواطرك مع الأوقات واستشعار الحياء من الله تعالى بقلبك فإنك إذا استحيت من الله منعك قلبك أن يخطر فيه خاطر لغير

الله، أو يتحرك بحركة لا يرتضيها الله»، ولقد كان لنا شيخ يقيد حركاته فى كتابه بالنهار فإذا أمسى جعل صحيفته بين يديه وحاسب نفسه على ما فيها وزنت أنا على شيخى بتقييد خواطرى.

ويرى المحاسبى: أن المحاسبة والموازنة تكون فى أربعة مواطن للنفس: فيما بين الإيمان والكفر وفيما بين الصدق والكذب وبين التوحيد والشرك وبين الإخلاص والرياء.

والمحاسبة هى أن توازن بين عمل الكمالات وعمل المتناقضات لتتعرف على المسيىء منها وعلى الحسن والعمل بعد ذلك بما هو أحسن وموافق للشرع، فمحاسبة العوام بين الطاعة والمعصية، ومحاسبة المريدين بين الذكر والغفلة فيحاسبها أشد الحساب كما يحاسب شريكه فيعلم من اين مطعمها وملبسها ومشربها من حلال كان أم من حرام ويتهمها فى كل شىء.

قال الغوث الرفاعى - ﷺ -: «من لم يحاسب نفسه على كل نفس ويتهمها فى جميع أحوالها لا يكتب عندنا فى ديوان الرجال»، ويقول لا يبلغ الفقير مقام الكمال حتى يصبر ويرضى أن يضاف إليه سائر النقائص التى فى إخوانه ويستر إخوانه ويؤثرهم على نفسه رضاء بعلم الله تعالى وقدره فيهم ويعذرهم ويساعدهم بقدر استطاعته وأن ينظر إليهم بعين الحقيقة فيعذرهم ولا ينظر إليهم بعين الشريعة فيمقتهم وأن يعاتب نفسه ويزجرها.

ويقول ابن السماك معاتباً نفسه: «تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين ومع ذلك الجنة تطلبين وتطمعين أن تدخلينها هيهات هيهات للجنة قوم آخرين ولهم أعمال غير ما نحن عاملين».

يا أيتها النفس الغارقة فى ملذاتها وشهواتها إلى متى تعملين عمل الضالين؟ فلم يرضوا عن أنفسهم إذا لم تطعك فاستعن عليها بالله وبرسول الله والصالحين.

٩- السفر إلى الله

السفر هو السير إلى الله عز وجل وأول شىء فى السفر إلى الله هو التمسك بالشريعة حيث هى أصل الرياضة أو المجاهدة وجميع أعمال الطاعة وهى التى أعطت هذه العلوم والآثار الطاهرة.

وقال الجنيد - رحمه الله -: «جاء علمنا هذا من الكتاب والسنة».

ومن آداب السفر إلى الله تعالى حسن الظن بالناس وسلامة الصدر والدعاء للمسلمين وخدمة الفقراء وإرشاد الناس والإحسان إليهم وتقوى الله فى السر والعلانية.

والسفر بالقلب أربع:

١- بالسير إلى الحق فى منازل النفس إلى الوصول إلى الأفق المبين ومبدأ التجليات الأسمائية.

٢- بالسير فى الحق بالتعلق باسمائه وصفاته إلى الأفق الأعلى ونهاية الحضرة الوحدانية.

٣- بالترقى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين وإليه الإشارة بقول الأستاذ فى التائية سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ:

على الدرة البيضاء كان اجتماعنا

وفى قاب قوسين اجتماع الأحبة

فإذا ارتفاع عن ذلك فهو مقام أو أدنى

٤- بالسير الحق عن الحق للتكمين وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع.

ومن آداب السفر لا تصحب من يتكرم عليك فإن ساويته فى النفقة أضر بك أن تفضل عليك استعبدك. قال بعض الواصلين: إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى عرضت له الخوادع والقواطع فينخدع أولاً بالشهوات والرياضات والملاذ والمناكح والملابس فإن وقف معها انقطع وإن رفضها ولم يقف معها وصدق فى طلبه ابتلى بتقبيل يده والتوسعة فى المجلس والاشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته ونحو ذلك فإن وقف معها انقطع معها عن الله وكانت حظه وإن لم يقف معها ابتلى بالتجريد والتحلى ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود وإن لم يقف معها وسار ناظراً إلى مراد الله تعالى منه وما يحبه منه بحيث يكون عند الوقوف على محابه ومراضيه اينما كانت وكيف كانت تعب بها أو استراح تنعم أو تألم أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان ونفسه عنده أهون عليه من أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاه سيده وأمره، فهذا هو العبد الذى قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البته والهالك حقاً من ضل فى آخر سفره وقد قارب المنزل.

١٠ - الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٣].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال.. قال رسول الله ﷺ (ثلاث لا يغل عليهم قلب مسلم إخلاص العمل لله تعالى ومناصحة ولاة الأمور ولزوم جماعة المسلمين).

سئل رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سر من أسراري أودعته قلب من أحببته من عبادي».

وقال ﷺ : «من أخلص العبادة لله تعالى أربعين يوماً فتح الله قلبه وشرح صدره وأطلق لسانه بالحكمة ولو كان أعجميا».

والإخلاص نور من نور الله استودعه قلب عبده المؤمن فقطعه به عن غيره وهو لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله وأصل الإخلاص تحقيق الذل والافتقار وهو عين العز والغنى بالمولى عز وجل.. والاخلاص هو زينة الباطن بالمراقبة وزينة الظاهر بالمجاهدة فلا يشوبه حظ النفس ولا هوى ولا طمع.

ويقول الإمام القشيري - رحمه الله -: «الإخلاص إفراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه وتعالى دون شيء آخر من تصنيع لمخلوق أو اكتساب صفة حميدة عند الناس أو محبة أو مدح من الخلق.

والإخلاص هو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين وجاء في الأثر «الإخلاص ارتفاع رؤيتك عن فعلك والفتوة أن تعذر إخوانك في زلاتهم ولا تعاملهم بما يحتاجوا إلى الاعتذار منه».

وقال سيدي عبدالرحيم القنائي - رضي الله عنه - «سيد المخلصين يوسف عليه السلام وسيد الأوابين داوود عليه السلام وسيد الراضين عيسى عليه السلام وسيد العلماء موسى عليه السلام وسيد النادمين يونس عليه السلام وسيد الطب إدريس عليه السلام وسيدة النساء مريم عليها السلام».

وقال الإمام الجنيد - رحمه الله - «الإخلاص ما أريد به الله من أي عمل كان»، وقال السوسي - رحمه الله - «الخالص من الأعمال ما لم يعلم به ملك فيكتبه ولا عدو فيفسده ولا النفس فتعجب به»، ومن تكلم في الإخلاص ولم يطالب به نفسه ابتلاه الله تعالى بهتك

سره بين أقرانه وإخوانه وأن يكون ظاهر الإنسان وباطنه وسكونه وحركاته خالصة لله لا يشوبها حظ نفس فهو الغنى بمولاه، وأصل الإخلاص لتحقيق ذلهم وافتقارهم واشتداد وتمكين حالهم للوصول إلى رتبة ولى فى نهايته أو صديق فى بدايته لأن غايات الأولياء بدايات الصديقين فخذ السر جهراً إليك وأحبس عليك بكلتا يديك ولا تكترث بحسادك ولا تتكلم إلا عن وجود ولا تأكل إلا عن فاقة ولا تنم إلا عن غلبة ولا تسكت إلا عن خشية.

قال عز شأنه: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾.

والفرقان نور كاشف يفرق بين الحق والباطل فى الملتبسات وتظهر به خفايا المشكلات إدراكاً وتعبيراً.

قال تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة فى أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾.

والحكمة الوجه الحق فى ذاته وسره ونفعه وغايته فى المعرفة مهما رق إدراكها، وفى التعبير الموصل للمقصود من حيث المعنى ومن حيث القالب الذى يصاغ به.

وقال جل وعلا: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾.

وقال تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

وروى عن أبى أمامة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه» أى إذا وقع بصره عليها من غير قصد فيصرفه عنها تورعاً وتلك العبادة التى يجد حلاوتها فى قلبه هى نور من عند الحق يشغله عن محارم الله عز وجل ويقف به على حدود الشبهات ويجد لذته فى صدره ويسمى هذا النور نور الإخلاص وهو بداية الفيض الخاص وذوق حلاوة القرب ولا يزال ينمو ويتزكى بالصدق مع نور التمكين فيصل إلى اليقين.

قال تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾.

وهو بصر القلب لا بصر العين وهذا مقام التقوى وفى مقام الإخلاص هم مبصرون دائماً ركبت لهم عيون جديدة فإن جاءهم الشيطان ومهما تلون وتخفى فى احتياله فهم بالنور الكاشف الذى منحوه عارفون به وعارفون احتياله وألاعيبه حيث قال النبى ﷺ لعمرو بن الخطاب - رضي الله عنه -: «لو لقيك الشيطان سالكاً فجاً لسلك فجاً غير فجك» من إخلاصهم نور الله بصائرهم فلم يستطع الشيطان مواجهتهم أو غوايتهم ولم تدر أنفسهم

من سر إخلاصهم ولم يستطع الملك كتابة أعمالهم إلا ظاهرها أما عن باطنها فلا يعلمه إلا الله تعالى.

وجاء فى الأثر أن أحد المؤمنين صفر ليسقى فرسه فأراد الملك المكلف بالحسنات أن يثبته حسنة فمنعه الملك الثانى بحجة أنه ليس فيه ما يثبت أنه حسنة فأرسل الحق عز وجل لهما ملكاً آخر فقال لهما اكتباه تصفير والله أعلم بالتفسير.

فقلب المؤمن سر الحق فيه لم يطلع عليه غيره.

وقد جاء فى الأثر أيضاً: أن أحد المؤمنين المخلصين وقف على جبل عرفات فى حجة له فدعا (الحمد لله على نعمة الإسلام) ولم يدعو غيرها ثم عاد فى حجته الثانية فدعا بنفس الدعاء ثم عاد فى حجته الثالثة وأراد أن يدعو بنفس الدعاء فإذا منادياً يقول له ولم يراه (نحن فى كتابة ثواب قولك المرة الأولى ومازلنا ولم ينتهى حتى الآن) هذا هو الإخلاص وسره.

قلوب أنارت بسر الإخلاص فعرفت كيف تدعو بما أودع فيها.

فالإخلاص ليس مرحلة من مراحل التصوف تنتهى فى فترة من الفترات بل هو مَقيم فى كل حال وكل مقام حيث لا يصح من دونه أى حال وأى مقام فهو حال كل مقام ومقام كل حال.

وقال المصطفى – ﷺ –: «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليماً ولسانه صادقاً ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة».

١١- الرسوخ والتمكين

ولما كان الرسوخ والتمكين فى المقام متلازمان ولا يفصل بينهما إلا شعرة رقيقة جداً ظن البعض أنهما مقاماً واحداً واعتبرهم الآخرون مختلفين ولكن لا اختلاف بينهما ولا فرق لذلك اعتبرناهما مقاماً واحداً فالراسخ فى المقام هو المتمكن فيه المدرك مركزه ومجاله فالتمكين ابتداء الرسوخ والرسوخ هو الاستقرار فى المقام ولو مدة قصيرة تعد رسوخاً وقد يطول الرسوخ حيث قال الحق تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

ولشدة تمكنهم وطول مكوثهم فى الرسوخ فى العلم أى ملازمتهم للعلم وتمكنهم فيه

من ممارسة واجتهاد فيه ومعرفة دقائقه سموا بالراسخين لأنهم أرجعوا الأمر كله لله.

ولما تعاملوا مع العلم بعقولهم أنار قلوبهم ومدحهم الحق بأنهم أولوا الألباب أى أولوا القلوب المستنيرة.

وقال شاعرهم:

مـــــــــازلـت أنـزل فــى ودادك مـنـزلاً

تتـــحـــيـــر الألبــــاب دون نزوله

وصفة صاحب التمكين صفة أهل الحقائق وصل ثم أتصل وفى أصول طريق القوم أنه يجوز دوام التمكين.

فقد جاء فى الحديث الشريف قال: رسول الله ﷺ: «لو بقيتم على ما كنتم عليه عندى لصافحتكم الملائكة»، وقال: «لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى عز وجل».

ويتلون السائر حسب الحال أو المقام فإن رضيت النفس فى مجارى الأقدار وهو مقام الرضا والتسليم وهو جد أهل الطمأنينة من العارفين الواصلين بعد المجاهدة والمكابدة على السير بالتصميم والعزم إلى الوصول إلى تمام المشاهدة فهم السائرون فتارة يغلبون أنفسهم وتارة تغلبهم فهذا قبل التمكين وقد يكون التلوين بعد التمكين وهو تلوين العارف مع المقامات فيتلون فى كل مقام ويظهر عليه الهيبة تارة والخوف تارة والرجاء والقبض والبسط تارة ويظهر عليه الورع والكشف وتارة يظهر عليه الرغبة والأخذ وتارة يظهر عليه الشوق والقلق وتارة السكون والطمأنينة.

وفى مقام الرسوخ والتمكين ومراتب الكشف قالوا علمنا كله إشارة فإذا صار عبارة خفى ثم إن هذه الأمور إنما هى كشوفات تشرق على الأرواح والأسرار تكون لوائح ثم لوامع ثم تتصل الشروق ويدور النور حتى يقع الرسوخ والتمكين ودوام السير يؤدى إلى الوصول ومن مقام التمكين إلى مقام كشف الغطاء وكلما زاد يقيناً ولكن مراتب الكشف لا نهاية لها (وقل ربى زدنى علماً) فيعلمون أن الحقيقة كامنة فى نفوسهم إلا أن القواطع والعوائق النفسية من حب الشهوات غطت القلوب وغلفتها وحجبت الأرواح عن الكشف عن أصلها ولما عجنت شهوات النفوس بطينتها فى أصل النشأة كانت الحجاب للقلوب عن كشف أسرار الغيوب لحكمته وعدله إلا من أسعده الله بولايته وسبقت له سابقة عنايته.

١٢ - الزهد

هو وصف من أوصاف القلوب يصف الله به قلب من أحبه ولكن له علامات تدل عليه وهو فراغ القلب مما سوى الرب سبحانه وتعالى.

والصادق من الزاهدين إذا رأيته هبته وإذا فارقته هان عليك أمره.

والعارف إذا رأيته هبته وإذا فارقته هبته، والزهد والعلم والعبادة حجاب وإذا صح الزهد صح التوكل والزهد أفضل من التوكل لأن الزاهد تارك للشيء والمتوكل يسير ومعه الشيء والزاهد لا يصحب الدنيا ولا تصحبه ولا يذمها ولا يمنحها.

والزهد ثلاثة أشياء

القلة والخلوة والجوع، ولا يكون السائر زهداً إلا ومعه ورع فالورع عما ليس لك والزهد فيما لك.

وقال النبي ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتى زاهداً فى الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة»، ودرجة الزهد هى درجة كمال الأسرار من المقربين وزهدهم فيما سوى الله تعالى.

والزهد له ثلاثة أوجه

الأول: هو ترك الحرام وهو زهد العوام، والثانى: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله وهو زهد العارفين، ومن أحب أن يسمع كلامه فليس بزاهد لأن كلامه صادر عن شهوة حب الكلام وإذا أراد أن يعرف الناس فذلك من شهوة حب الظهور وغاية العبد ترك ومخالفة الشهوات الدنيوية وأن يترك سبعين بابا من الحلال خوفاً من الوقوع فى الحرام.

والعارف بالله همه ما يأمله والزاهد همه ما يأكله والزاهد يقول: (كيف أصنع) والعارف يقول: (كيف يصنع) فانكشفت للعارفين من الدنيا قبائح أسرار الأفعال فزهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا المفاخر والتكاثر بالأموال واقبلوا بهممهم على حضرة الاقبال والجلال واثقين فيها بالوصال ليس دون انفصال ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال وقيل الظمآن يجزيه من الماء أيسره.

والزاهدون هم علية القوم فى حالهم ومقامهم زاهدوان فى حب الرئاسة والعلو فى الناس وإن أحببت أن تذوق شيئاً عن طريق القوم فانظر إلى الزاهدين واتبع حالهم،

فالزهد فى الدنيا هو سرور القلب بفقد الشىء مع ملازمة تحمل الأذى من جميع الخلائق وكل ما أتاه منهم يقول أنا أستحق أعظم من ذلك.

ويرى أنه استحق النار وعولج بالرماد فهم لا يحملون فى سيرهم إلى الدار الآخرة أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة.

وقالوا الزاهد فى الدنيا هو الأساس لجميع أحكام الطريق فمن لم يزهد فيها لا يكون صادقاً ولا يصلح له بناء وأن يفرح بالفقر وأن يترك حظوظ نفسه فى الدنيا والآخرة ويعبد الله تعالى امتثالاً لأمره ومحبته ومشاهدته وأن يسد على نفسه أبواب الشهوات ويصبر للمجاهدات والعبادات حتى تتجرد نفسه لتحمل التبعات.

قال المرسى أبو العباس – ﷺ –: رأيت الفاروق فى المنام فقلت يا أمير المؤمنين ما علامة حب الدنيا قال: (خوف المذمة وحب الثناء) فمن يحب المدح ويخشى المذمة فليس بزاهد فى الدنيا.

والزاهد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى موطن قلبه ومعشعش روحه فيكون غريباً فى الدنيا.

أما العارف فإنه غريب فى الآخرة لأنه كشف له عن صفات معروفة فصار غريباً عن الآخرة لأن سره مع الله بلا أين.

وهؤلاء العباد تصير الحضرة معشعش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون فإن نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين فلم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة بل كانوا فى ذلك كله بآداب الله وآداب رسله وأنبيائه بما اقتضى منهم مولاهم.

والزهد فريضة وفضيلة وقربه فالفرض فى الحرام والفضيلة فى التشابهه والقربة فى الحلال.

ويقول الجنيد – رحمه الله – الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد لا يفرح بموجود ولا يتأسف على مفقود وهو لا يعنى عدم امتلاك الأشياء وإنما يعنى أن لا يتعلق القلب بها.

قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

وكان سيدى أبو الحسن الشاذلى – ﷺ – يقول: اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا ومن دعائه (اللهم وسع رزقى فى دنياى ولا تحجبنى بها عن أخراى). والزهد أساس الأحوال المرضية والمراتب السنية وهو زول قدم القاصدين إلى الله عز وجل

والمنقطعين إلى الله تعالى والراضين عن الله والمتوكلين على الله.

وقال يحيى بن معاذ الرازى – رضي الله عنه – الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر عورته ومسكنه حيث أدرك والدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والإعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والذكر رفيقه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع أداته والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر مقبره والتوكل حسبه والفعل دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى.

قال سيدى إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان من أين تأكل؟ فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى من أين يطعمنى؟ قال شقيقى البلخى قال لى إبراهيم بن أدهم: أخبرنى عما أنت عليه قلت: أن رزقت أكلت وإن منعت صمت قال: هكذا تعمل كلاب بلخ!! قلت كيف تعمل أنت؟ قال: «إن رزقت آثرت وإن منعت شكرت».

سئل الزهدى – رحمه الله – يوما ما الزهد فى الدنيا؟.

فأجاب ألا يغلب الحرام صبرك ولا يمنع الحلال شكرك. وقال أبو حفص سألت أبا يزيد عن الزهد فقال: ليس الزهد منزلة فقلت: لماذا؟

قال لأنى كنت ثلاثة أيام زاهداً فلما كان اليوم الرابع خرجت منه فقال أبو حفص: وكيف ذلك؟ قال زهدت فى أول يومى فى الدنيا وما فيها واليوم الثانى زهدت فى الآخرة وما فيها واليوم الثالث زهدت فى ما دون الله.

فلما كان اليوم الرابع لم يبق لى سوى الله شىء فهمت فسمعت قائلاً يقول يا أبا يزيد لا تقوى معنا فقلت إنما أردت هذه الكلمة فسمعت قائلاً يقول وجدت وجدت.

والزاهد المستغنى: غنى عن فقد المال وغنى عن وجده.

ودرجة الزهد هى درجة كمال الأبرار من المقربين المشغولين فالزاهد مشغول عن الله بزهده والكاره للدنيا مشغول عن الله والراغب فيها مشغول عن الله والمستغنى يستوى عنده المال والماء والذهب والحجر وغيرهم.

قال أبو يزيد ـ رحمه الله –: أوقفنى الله بين يديه وقال يا أبا يزيد بأى شىء جئتنى؟ قلت بالزهد فى الدنيا قال إنما مقدار الدنيا عندى جناح بعوضة ففيما زهدت قلت إلهى استغفرك من ذلك جئت بالتوكل إليك قال عند ذلك قبلناك.

الزاهد يعالج الصبر والمشتاق يعالج الشكر والواصل يعالج الولاية وإذا أراد الله

بعبده خيراً جعل فيه ثلاثة خصال: فقهاً فى الدين وزهد فى الدنيا، وتبصرة بعبوديته وهو خلو الأيدى من الأملاك والقلوب من التتبع أى الجود بما فى اليد وليس الإنقطاع عن الدنيا وليس الزاهد هو من يملك ولكنه المالك المستغنى عما فى يده والذى لا يملك مع الله سبب.

والزهد فى الدنيا يورث حقيقة الإيمان والإيمان بالله يوجب لك التصديق بلقائه وعلمك بكل آت قريب يوجب لك شهود قرب ذلك فيورثك الزهد فى الدنيا لأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك وتأتى همتك من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد فى الدنيا مثبت لها إنه شهد لها بالوجود إذ إثباتها مزهودا منها وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها.

قال رسول الله ﷺ: (الدنيا جيفة قذرة) وقال ﷺ: (الدنيا حلوة خضرة) ليس هناك تعارض فجيفة قذرة فى مرأى أهل البصائر وحلوة خضرة فى مرأى أهل الأبصار (أهل الدنيا) وإن شئت قلت (جيفة قذرة) التنفير وحلوة خضرة التحذير وإن شئت قلت: فلا تغرنك بحلاوتها وخضرتها فإن حلاوتها فى التحقيق مرارة وخضرتها يبس ولهذا لما سئل الله ﷺ عن أولياء الله قال: (هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها).

ولنا المثل الأعلى فى الزهد عثمان، وعلى، وابن عوف والزبير من الزهاد مع ما تداولته أيديهم من المال وكمثلهم كان الحسن بن على وأبو حنيفة والليث بن سعد ذو مال وزهاداه والأخيران لبسا ثياباً أنيقة ولم تمنع أناقة اللباس أن يكونا من أزهد الأئمة، وكان مالك حسن الثياب، سئل الإمام جعفر - رضي الله عنه - لم يرى الناس ظلمة قائمة على الزهاد؟ فأجاب: هذه الظلمة القائمة التى يراها مخيلة على حياة الزهاد هى ظلمة موهومة تراها النفوس المظلمة ولكنها فى داخل أنفس الزهاد نور ساطع هم أشعلوه لئلا يخوضوا متاهات الظلم وراء الظالمين.

وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته فكانوا عبادا عقلاء عن الله عز وجل أكياساً محبين سمعوا الله جل ذكره ذم الدنيا ووضع من قدرها ولم يرضها داراً لأوليائه استحيوا من الله عز وجل جزاء ولكن وافقوا الله فى محبته كراماً (والله لا يضيع أجر من أحسن عملا) فأهل الموافقة لله تعالى فى الأمور هم أعقل العبيد وأرفعهم عند الله قدراً.

قال رجل فى مجلس الإمام الشافعى:

ما نفر الناس من الأمام «على بن أبى طالب» إلا أنه كان لا يبالى بأحد فقال الشافعى: «كان فيه أربعة خصال ما أجتمعت خصلة واحدة لإنسان إلا ويحق له ألا يبالى بأحد كان زاهداً والزاهد لا يبالى بالدنيا وأصلها وكان عالمًا والعالم لا يبالى بأحد وكان شجاعاً والشجاع لا يبالى بأحد وكان شريفاً والشريف لا يبالى بأحد».

وقال رسول الله ﷺ: «ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة أن تكون بما فى يدى الله تعالى أوثق منك بما فى يدك وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصيبت بها أرغب منك فيها لو أنها فيها بقيت لك لأن الله تعالى يقول: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم).

وجاء فى الأثر مر موسى عليه السلام برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بعباءة فقال: يا رب عبدك هذا من الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها.

وروى أن المسيح عليه السلام مر فى سياحته برجل نائم يلتف فى عباءته فأيقظه فقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال: ما تريد منى إنى قد تركت الدنيا لأهلها فقال له: نم إذاً يا حبيبى.

وقال أحد الحكماء عن الزهد: «هو التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس» وقال شاعرهم:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس

واقنع بيأس فإن العز فى اليأس

واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم

إن الغنى من استغنى عن الناس

الأمير الزاهد: قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الشام «وأبو عبيدة بن الجراح» أميراً عليها من قبله فتلقاه أمراء الأجناد فقال: أين أخى أبو عبيدة؟ قالوا: يأتى وجاء أبو عبيدة على ناقة مخطومة بحبل فسلم على أمير المؤمنين فقال له عمر: اذهب بنا إلى منزلك قال أبو عبيدة فلم ير أثاثاً ولا رياشا فقال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لبدا (بساط من صوف) وصفحة وشناً (قربة صغيرة) وأنت أمير.. أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى

جونة (سلة صغيرة) فأخذ منها كسيرات فبكى عمر فقال أبو عبيدة: قد قلت إنك ستعصر عينيك على يا أمير المؤمنين!!

قال المسيح عليه السلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه قال: فاذهبوا وابنوا بيتاً على الماء فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء فقال: كيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا؟!

١٣- الورع والقناعة

الورع: هو التجنب عن كل ما فيه شبهة مضرة فورع العامة فيه شوب انحراف شرعي وورع الخاصة عما يدعو إلى التفرق وأصل الطاعة الورع والتقوى وأصل التقوى محاسبة النفس ولسان الورع يدعو إلى الأفلات ولسان التعبد يدعو إلى دوام الإجتهاد ولسان المحبة يدعو إلى الذوبان والهيمان ولسان المعرفة يدعو إلى الصفاء والمحو ولسان التوحيد يدعو إلى الإثبات والحضور ومن أعرض عن الإعراض أبداً فهو الحكيم المتأدب.

قال أبو ذر الغفاري – ﵁ – قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» تورعاً حتى لا يشغل نفسه بشيء يشغله عن الله تعالى ومن لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

فكيف يكون زاهداً من لا ورع له فتورع عما ليس لك ثم أزهد فيما لك.

والورع على وجهين ورع في الظاهر وهو ألا يتحرك إلا لله تعالى، وورع في الباطن، وهو أن لا يدخل قلبك سواه تعالى فأهل الورع والزهد هم جلساء الله تعالى غداً.

والورع أعلى مراتب التقوى ويوجب القناعة والرضا والتسليم فمن قنع بما قسم الله تعالى له استغنى ومن مد بعينيه إلى ما في يد غيره مات فقيرا ومن لم يرض بما قسم الله عز وجل أتهم الله تعالى في قضائه ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره.

قال الشيخ أبو الحسن – ﵁ –: الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه فقد أنتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وعلى البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا ينبسطون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون هم الذين هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون في عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى، أما أدنى الأذى فالله يعوضهم عنه ثواباً لورعهم

مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى ومن لم يزداد بعلمه وعمله افتقاراً لربه وتواضعاً لخلقه فهو هالك.

قال رسول الله ﷺ: «من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من علمه».قال أبو العباس - رضي الله عنه - في الورع: «ما دخل بطني حرام قط» وكان يقول: «الورع من ورعه الله»، وورع الخصوص هو لا يفهمه إلا القليل فإن من جملة ورعهم تورعهم أن يسكنوا لغير الله أو يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره ومن ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب ومن ورعهم عن الوقوف مع العادات والإعتماد على الطاعات والسكون إلى أنوار التجليات ومن ورعهم أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة تورعوا عن الدنيا وفاءً وعن الوقوف مع الآخرة صفاءً

كل ورع لا يثمر لك العلم والنور فلا تعد له أجراً وكل سيئة يعقبها الخوف والهرب إلى الله تعالى فلا تعد له وزراً.

وأربعة من أخلاق الأبدال: استقاء الورع وتصحيح الأرادة وسلامة الصدر للخلق والنصيحة لهم والورع مقروناً بالقناعة أول الرضا والورع أول الزهد.

قال رسول الله ﷺ: «كن ورعاً تكن أعبد الناس وكن قنوعاً تكن أشكر الناس وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا واحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً).

والعاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل وأمر الدين بالعلم والإجتهاد.

وقال بعض العارفين: وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع.

موضع العز في الطاعة والذل في المعصية والهيبة في قيام الليل والحكمة في البطن الخالي والغنى في القناعة.

ودعاء أحدهم في القناعة فقال (بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أني أسألك قناعة تغنيني وتوكلاً يكفيني ويقيناً يشفيني وورعاً يحجزني وهدى يرشدني وتوفيقاً يسعدني وعلماً اعمل به وعملاً أخلص فيه وإخلاصا أدوم عليه وارزقني حلالاً وأطعمني طيبا واجعلني تقيا وأحيني مؤمناً وأمتني مسلماً وابعثني آمناً وأحشرني سالماً مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصالحين والشهداء وحسن أولئك رفيقا) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ج- الأخلاق

١- الصدق

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال النبى ﷺ: «لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

الصدق بلوغ الغاية عزماً وحزماً فى التحقيق بالكمالات وتتعادل جميع خصال الخير فى النفس وتبلغ الذروة فى تعادلها.

ومن الناس من يكون حبه صادقاً هادئاً خلواً من الشوق المزعج والوجد المحرق ومنهم من زاد صدق حبه فكان حاله شبيهاً بحال الظمآن أجهده الظمأ بالنسبة للماء والجائع أشتد به الجوع بالنسبة للطعام واستولى عليه الحب الصادق الثائر الذى اشتعلت ناره وتأجج إيواره فلا راحة له ولا سكون ولا صبر ولا تصبر وكلما زاد صدقه اتسع مجال حبه وزاد وجده وهيامه، وفى مقام الصدق يكون المحب غريقاً مغلولاً مسيراً إلى الحق مع كمال عقله وحبه وأخلاقه فيه سجينة بريئة من التكلف.

والمحب فى مقام الصدق لا يزعزعه إمتحان والبلاء يكون عنده بالخير كما يكون بالشر ولا تطغيه رغبة ولا تعوقه رهبة ولا تزيده الفتنة إلا ثباتا فصبره هو الصبر وشكره هو الشكر.

قال تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) جرفه الحب فكله حب فسار به من الإخلاص الى صدق المحبة وفيها صدق الرجاء وصدق الخوف وصدق الصبر وصدق الشكر والصدق فى كل خلق حميد.

وليس المراد بالصدق صدق اللسان فقد مضى وهو من مستلزمات مقام التوبة وإنما المراد هنا صدق الحال وفى الحديث: «اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى وسمعى

وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد».

ويتدرج في مقام الصدق من أحب الله وأحب في الله لله وفي حب الله حب أحبابه فيه ويقدر قربهم من الله سبحانه أحبهم الله قال تعالى (يحبهم ويحبونه) وفي الحديث القدسي (وجبت محبتي للمتحابين في) والحب أبرز الصفات في مقام الصدق وعليه مداره قال عز من قائل (ليجزى الله الصادقين بصدقهم). ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

فالصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه وحقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك فيه إلا الكذب وعلامة الصادق أن لا يبالي ولو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره أن يطلع الناس على السيىء من عمله فإن كراهيته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصديقين.

الصادق لا يكذب بلسانه لأن الكذب مركب العطب، والصدق مركب السلامة والخلاص في الإخلاص والصديق لا يكذب قلبه وكذب القلب أن يعقد العزم ولا يفعل ومن كذب القلب الإستماع للكذب وكذاب القلب يتمنى الأماني ولا يحفظ جوارحه وحواسه عما نهى الله عنه.

والصدق هو إيجاب صفة الموصوف هي له أو سلب صفة عن الموصوف ليس له، ويقال الصدق والكذب في الأقاويل والصواب والخطأ في الضمائر والخير والشر في الأفعال والحق والباطل في الأحكام والنفع والضر في الأشياء المحسوسة.

والصادق مراده الله تعالى وأخوان الصدق أحبابه، والخلوة بيته والوحدة أنسه والنهار غمه والليل فرحه ودليله قلبه وهو غني عن علم العلماء وإذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه على الصوفية.

ومن صدق الإيمان إسباغ الوضوء على المكاره بالليل والتحلي بالصدق في الأقوال والأفعال وتحمل الصبر في كل الأمور واستعمال الصدق بينه وبين الله تعالى شغله صدقه مع الله عن الفراغ والصادق لو خلا بالمرأة الحسناء لا يلتفت إليها لأنه يرى الشهوات بعينه ولم يشته الخطايا بقلبه لأنه مشغولا بربه فهم أهل خصوصيته.

فإذا أردت أن تكون صادقاً فاطلب من نفسك الصدق فى معرفتهم ومعرفة خصوصيتهم وأن تحبهم وتطلب فى محبتك لهم ما تنال منهم ما تريد ولا تطلب منهم أن يشغلوا قلوبهم بك وتهمل أنت أمر نفسك فإن ذلك قليل الجدوى.

والمريد الصادق أول ما يشهد فى شيخه الكمال يجده فى حضرة الحق التى بها أرواح أئمة الهدى أجمعين بالنسبة إليه فلا يفارقه وكيف يشتغل عن بيت وضعه الحق لنفسه ببيت وضعه للناس فلا يجوز له الرحيل لزيارة مكة أو المدينة أو بيت المقدس حيث موضع آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن كمال مشهد شيخه مظهر أرواح الأنبياء والمتلقى عنها مواجهة ومشافهة.

ومن أحب أن يكون فى حفظ رب العالمين فليحترم أولياءه العارفين بصدق ومن أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق فإن الله مع الصادقين.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء:٨١] إلى قوله تعالى: (وكنا لهم حافظين) فانظر كيف يحفظ الله الشياطين لما كانوا فى خدمة أوليائه العارفين، فمعنى حفظ رب العالمين أن يحفظ العبد من الوقوع فى المخالفات ومن الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد موته أكثر ما ينفعه حال حياته.

وإخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا وهم أعز من الكبريت الأحمر فإذا عثرت على أحد منهم فتمسك به فإنه قرة العين وريحانة الدنيا وسعادة الآخرة.

٢- الأدب

هو حسن الظن بالناس وسلامة الصدر والدعاء للمسلمين وخدمة الفقراء وإرشاد الناس والإحسان إليهم وتقوى الله فى السر والعلانية.

قال الله عز وجل: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧] وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٧].

جاء فى التفسير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - (فقهوهم وادبوهم).

وروى النبى ﷺ إنه قال: «إن الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى».

والأدب يوجب التوحيد والتوحيد يوجب الإيمان فمن لا إيمان له لا توحيد له والإيمان يوجب طاعة الشريعة فمن لا شريعة له فلا إيمان له ولا توحيد، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له فلا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد، قال الشاعر:

يزين الغـــريب إذا مـــا اغـــترب

ثلاثة فـــمنهن حـــسن الأدب

وثانيـــة حـــسن أخـــلاقـــه

وثالثـــه اجـــتناب الريب

فمن قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بإخلاص وكمال الأدب لا يصفو إلا بالإخلاص ولم يصل أولياء الله إلى ما وصلوا إليه بكثرة الأعمال وإنما وصلوا إليه بالأدب.

وإذا صحت المحبة تأكد على المحب ملازمة الأدب وبالأدب تفهم العلم وبالعلم يصح لك العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة تقيم الزهد وتوفق له، وبالزهد تترك الدنيا وبترك الدنيا ترغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال رضا الله عز وجل.

وقال أبو العباس بن عطاء الادمى - رضي الله عنه - (من تأدب بآداب الصالحين صلح لبساط الكرامة ومن تأدب بآداب الأولياء صلح لبساط القرب ومن تأدب بآداب الصديقين صلح لبساط المشاهدة ومن تأدب بآداب الأنبياء عليهم السلام صلح لبساط الأنس والانبساط ومن تأدب بآداب الشرع تأدب به مريديه ومن تهاون بالآداب هلك وأهلك من معه ومن لم يأخذ الآداب من حكيم أو شيخ مربي مرشد فلا يتأدب به مريد ومن لم يتأدب مع شيخه وقال له عند الأمر (لم) فهذا ذنب عند أهل الطريق.

لا يشعر به المريد ويعتبر إساءة أدب وإذا سأل المريد شيخه إلى أين ذاهب أو (من أين أتيت) أو (كيف حالك) فهذا أيضاً إساءة أدب لأن (لم) معناها الشك والإنكار على شيخه وإلى (أين ذاهب) معناها أنه يريد أن يعرف وجهة الشيخ لكن الشيخ له وجهة إلى الله فعندما يسأل إلى أين ذاهب فقد شك في وجهة الشيخ.

كما أن سؤاله من (أين أتيت فإتيان الشيخ من عند الله ورجوعه، والسؤال عن الرجوع تنزلاً في المقام ولا يجوز سؤال المريد لشيخه عن تنزلاته وصعوداته.

أما سؤاله (كيف حالك) فحال الشيخ في تقلب المنازل والمقامات وتقلب في الأحوال السامية فلا يجوز للمريد التجسس على سر شيخه وكل ذلك سوء أدب يخشى على المريد

منه العطب.

هنا قالوا لا تجالس العارفين إلا بالأدب فربما من جالسهم بغير أدب وقع فى المقت ومحى اسمه من ديوان القرب ومن لم تؤدبه الصوفية فليس بأديب.

وقال ابن عطاء الله - رضي الله عنه -: «من لزم نفسه بآداب الشريعة نور الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ فى أوامره وأفعاله وأخلاقه»، وقال كل ما تسأل عنه فاطلبه فى مفازة العلم فإن العلم لم تجده ففى ميدان الحكمة فإن لم تجده فزنه بميزان التوحيد فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاث فاضرب به وجه الشيطان.

ومن الآداب أن يكون المريد جوال الفكر جوهرى الذكر كثير حلمه، عظيم حكمه، أوسع الناس صدراً وأذلهم نفساً كثير العطاء قليل الأذى ضحكة تبسماً واستفهامه تعليما مذكراً للغافل معلماً للجاهل لا يؤذى من يؤذيه ولا يخوض فيما لا يعنيه، لا يشمت بمصيبة، ولا يذكر أحد بعيبه نازحاً عن المحرمات واقفاً على الشبهات عوناً للغريب أباً لليتيم ألين من الزبد وأصلب من الحديد، لا يكشف سراً ولا يهتك ستراً بشره فى وجهه ذكر الله تعالى فى قلبه، لطيف الحركات حلو المشاهدات حسن المذاق لين الجانب طويل الصمت حليماً إذا جهل عليه صبورا على من أساء إليه يبجل الكبير ويوقره ويرحم الصغير ويؤدبه أميناً على الأمانات بعيداً من الخيانات ألفه التقى وخلقه الحياء كثير الحذر قليل الذلل، حركاته أدب، كلامه عجب، راضياً وقوراً شكوراً لا نماماً ولا مغتاباً ولا حلافاً ولا خواناً ولا كذاباً ولا عجولاً ولا طياشاً ولا فحاشاً ولا حقوراً ولا ضغوناً ولسانه مخزون وقلبه محزون وفكره يجول فيما هو كائن ويكون والله الموفق لمن يشاء من عباده وهذه صفات أهل الأدب.

قال الإمام الرفاعى - رضي الله عنه - شعرا:

ألا قل لمن بات لى حاسداً
أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت الأدب على خالقى
كأن لم ترض بما قد وهب

وأفضل شىء أن يورث الآباء الأبناء لأنه يكسب المال بالأدب وبالجهل يتلف فيقعد عدماً منه فميراث الأدب خير من ميراث الذهب والفضة لأن الأدب قرين وبالعلم وبالعم يحفظ المال.

وقال الإمام على - رضي الله عنه -: المال يحرسك وبالعلم تحرس المال.

ومن الأدب إذا أشتهر المريد بالزهد ورمى الدنيا أن يتظاهر بإمساكها بين الناس ليقطع نسبة الزهد إليه والمدار على القلب «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» وإذا التزم المريد حرمات المشايخ وخدمة الإخوان والخروج عن الأسباب وحفظ آداب الشرع على نفسه فقد تأدب بآداب الصالحين.

وقال الدينورى - رحمه الله -: «ما دخلت قط على أحد من شيوخى إلا وأنا خال من جميع ما لى أنتظر بركات ما يرد علىّ من رؤيته وكلامه فإن من دخل على شيخه بحظ نفسه أى بنية الامتحان ومعرفة ما عنده انقطع عن بركات رؤيته ومجالسته وكلامه»، وقال: «لو جمعت حكم الأولين والآخرين وادعيت أحوال الأولياء والصادقين لم تصل إلى درجة العارفين حتى يسكن به سرك إلى الله تعالى وتثق فيما ضمن لك». لأن سر الخصوصية للشيخ يحرم على من ليس عنده أدب.

وكمال الأدب لا يصفو إلا للأنبياء والصديقين والناس فى الأدب على ثلاث طبقات:

أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب، وأما أهل الدين فأكثر آدابهم فى رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات.

أما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم فى طهار القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب.

ويقول الإمام القشير - رضي الله عنه -: «العبد يصل بطاعته إلى الجنة وبأدبه فى طاعته يصل إلى الله تعالى»، وقال: «غلطت فى ابتداء أمرى فى أربعة أشياء توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكرى ومعرفته سبقت معرفتى ومحبته أقدم من محبتى وطلبه لى أولا حتى طلبه».

وقال أبواليزيد البسطامى - رضي الله عنه -: «مددت رجلى فى محرابى فهتف بى هاتف من يجالس الملوك ينبغى له أن يجالسهم بحسن أدب لأن من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل»، وقالوا إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب وإذا صحت المحبة تأكد على المحب ملازمة الأدب.

ومد ابن عطاء رجله يوماً بين أصحابه وقال: «ترك الأدب بين أهل الأدب أدب».

ومن آداب الصوفية: أن المريد يقول فلان من أصحابى إن كان أقل منه بدرجات وإن كان مساوياً له أو فوقه فليقل أنا خادمه أو مريده هكذا درج السلف.

ومن تأدبه الصوفية فهو أديب لأن الصوفية يعلموه الأخلاق الحسنة وكمال الأدب وقيل لأحدهم يا مسيء الأدب فقال ليس بسيىء الأدب فقيل له: من أدبك؟ فقال: أدبتنى الصوفية فمن لا أدب له لا دخول له ومن أساء الأدب طرد، فالأدب مع الشيخ ثم الإخوان وإساءة الأدب مع أهل الرتب توجب العطب.

ومن الأدب فى الزيارة أن لا يشغل الزائر المزور عن الله تعالى بدخوله عليه ولا يضيع عليه وقت الصلاة وأن تكون وقت فراغه من عبادته وقس على ذلك عدم تعطيله عن الحرفة التى تكفه عن سؤال الناس.

كذلك لا يزره إلا أن كان يعرف من نفسه القدرة على كتمان ما يرى فى المزور من العيوب وإلا فترك الزيارة أولى كذلك إذا عثر على ورقة فيها أحاديث أو علم لا يجوز أن يطلع عليها أو ينسخها إلا بإذن صاحبها وأدباً من المستأذن وحفظاً لحقوق الآدنين قال ﷺ: «من اطلع فى كتاب أخيه بغير إذن منه فكأنما أطلع على النار».

وكان سيدى أحمد بن حنبل – رحمه الله – من أدبه العالى فى إجلال أهله يكاد يستأذن عليهم إذا دخل من مسجده إلى بيته فيضرب برجله قبل أن يدخل حتى يسمع خفق نعله وربما تنحنح ليعلم من فى البيت بدخوله.

كان سيدى أحمد الرفاعى – قدس الله سره – يوماً بين الفقراء مريديه وقد كثر الجمع فسئل ما هذا الأمر العظيم؟ فقال: هذا لعب إبليس يريد ثبور هذه النفس وذلك ما يظن ثم أخذ قبضة من تراب وقال: «من هو مخلوق من هذا أين له قدرة ولسان ينطق به»، وقال لهم: «إن كان فيكم من يعرف به عيباً فليدلنى عليه» وكرر هذا القول فلم يتكلم أحد منهم فقال أحدهم: «ما فى هؤلاء الجماعة من يعرف عيبك غيرى» فقال له الغوث الرفاعى – رضي الله عنه –: «جزاك الله خيراً قل ما ذاك العيب حتى أنتهى عنه وأتركه»، فقال: «عيبك أن مثلنا تلامذة لك فإن قلبنا الحق معك فليس معك عيب وإن ردنا عليك فلك عيب»، فبكى الإمام الرفاعى والحاضرون ثم قال: «إن سلم الركب سلم من فيه فى التعدية».

ومن الأدب مع الله عز وجل معرفة قدره إذ يجب على المسلم معرفة قدر الله وأنه بين

يديه وآخذاً بناصيته ولا الإتكال على غيره حيث لا مفر ولا ملجأ إلا إلى الله وقال عز وجل: ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات:٥٠].

ومن الآداب التى يتأدب بها المسلم عند تلاوة القرآن:

١- أن يكون طاهراً مستقبل القبلة ما أمكن والجلوس فى أدب ووقار.

٢- أن يرتله ولا يسرع فى قراءته لقول ﷺ: «من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث ليالى لم يفقهه».

٣- التزام الخشوع عند التلاوة لقوله ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا».

٤- تزيين الصوت به لقوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم».

٥- أن يسر للتلاوة أن خشى على نفسه رياء وسمعه أو كان يوشوش على مصلى لما ورد عنه ﷺ: «المجاهر بالقرآن كالمجاهر بالصدقة» إلا إذا كان مقصوداً الفائدة كحمل النفس على تلاوته.

٦- التدبر والتفكر واستحضار القلب وتفهم معانيه وأسراره.

٧- عدم الغفلة ولعن نفسه بنفسه لأنه إن قرأ (لعنة الله على الظالمين) كان كاذباً أو ظالماً فإنه يكون لاعناً لنفسه.

وهناك آيات تحض على الأدب مع سيدنا محمد ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]. ﴿إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ ، والأدب مع النفس هى تزكيتها وتطهيرها بالتوبة والمراقبة والمحاسبة والمجاهدة.

ومن الأدب مع الوالدين اطاعتهما فى كل شىء ما عدا المعصية كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

وقال ﷺ: «إنما الطاعة فى معروف» وقوله: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

٣- الصحبة

قال الله عز وجل: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الأستاذ الإمام أبوالقاسم - ﷺ -: «لما اثبت الله سبحانه وتعالى للصديق الصحبة بين إنه أظهر عليه الشفقة فقال الله تعالى (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) فالحر شفيق على من يصحبه».

وعن أنس بن مال قال: قال رسول الله ﷺ: «متى ألقى أحبابى؟ فقال أصحابه: بأبينا أنت وأمنا أولسنا أحبابك؟ فقال: أنتم أصحابى أحبابى قوم لم يرونى وآمنوا بى وأنا إليهم بالأشواق أكثر».

والصحبة على ثلاثة قسام

- صحبة مع من فوقك وهى فى الحقيقة خدمة وصحبة من دونك وهى تقضى على المتبوع بالشفقة والرحمة وعلى التابع بالوفاق والحرمة.

وصحبة الاكفاء والنظراء وهى مبنية على الإيثار والفتوة فمن صحب شيخاً فوقه فى الرتبة فأدبه ترك الاعتراض وحمل ما يبدو منه على وجه جميل وتلقى أحواله بالإيمان به.

أما إذا صحبت من هو فى درجتك فسبيلك التغاضى عن عيوبه وحمل ما ترى منه على وجه من التأويل الجميل ما أمكنك فإن لم تجد تأويلاً عدت إلى نفسك بالتهمة وإلى إلتزام الأئمة فإذا اشتد الحب لصاحبه عمى عن عيوبه لأن لاحظه بعين الوداد فاستحسن منه كل ما يرى وفى معناه أنشدوا:

وعـــين الرضـــا عن كل عـــيب كليلة

ولكن عــين الســخط تبــدى المســاويا

وتكلم الإمام سعيد الحيرى - ﷺ - عن الصحبة فقال:

١- لصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة.

٢- لصحبة مع رسول الله ﷺ وآله واتباع سنته ولزوم ظاهر العلم.

٣- لصحبة مع الأولياء بالاحترام والخدمة.

٤- لصحبة مع الأهل بحسن الخلق.

٥- لصحبة مع الإخوان بدوام البشر وفرط الوجه ما لم يكن إثماً.

٦- لصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم.

٧- لصحبة مع الأغنياء بالتعزز عما فى أيديهم «تواضع».

٨- لصحبة مع الفقراء بالتذلل «شرف».

وعلامة السعادة أن تطيع الله وتخاف أن تكون مردوداً والشقاوة أن تعصيه وترجو أن تكون مقبولاً.

وصحبة العارفين هى أمر ضرورى مؤكد فلا تصحب إلا من يدلك على الله وحاله ينهض حالك فالمرء على دين خليله وهو مرآته فلا تسأل عن الخل بل اسأل عن خليله إذا أردت أن تصاحبه لأن الخليل شاكلة خليله فمن صاحب ظالم فهو ظالم مثله لأن مشاهدة الظلم تورث قسوة القلب والغفلة عن الله تعالى والرضا عن النفس ومصاحبتها تورث مصاحبة الشيطان ومتابعته.

ومن البلاء العظيم صحبتك من لا يوافقك ولا تستطيع تركه ومفارقته وصحبة الأصاغر مع الأكابر من التوفيق والفطنة ورغبة الأكابر فى صحبة الأصاغر من الخذلان والحمق وصحبة العارفين تؤدى بك إلى حسن الخلق وتوصلك إلى الله تعالى ولا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال:

الجود من القلة، والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضا بالقضية فيما يرضى الحق أى الرضا بالقضاء والقدر.

وقال ﷺ: «حب لأخيك المسلم كما تحب لنفسك».

وكان ﷺ يؤاخى بين أصحابه فآخى بين عبدالرحمن بن عوف وبين الربيع بن الأنصارى فهو الخبير بنفسيات أصحابه وكان يضم الشاكل على شكله أى الأخ لأخيه ظاهراً وباطناً ومن شدة أخوتهم فى الصحبة حتى كان الرجل منهم يطلق إحدى زوجاته ليزوجها لأخيه ويقسم معه ماله.

٤- الحياء

قال الله تعالى: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾.

وعن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان» وجاء فى الحديث القدسى: (يقول الله تعالى: عبدى إنك ما استحييت منى أنسيت الناس عيوبك وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت من أم الكتاب زلاتك ولا أناقشك الحساب يوم القيامة)، وقال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: «إنا نستحى يا نبى الله والحمد لله».

قال ﷺ: «ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى وليحفظ البطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

ويقول بن عطاء - رضي الله عنه -: «العلم الأكبر هو الهيبة والحياء فإذا ذهبت الهيبة والحياء لم يبق فى العلم خير» فالهيبة فى القلب يوجب الحشمة من الرب والوحشة من الخلق ولا يساير صاحب الهيبة أهل الدناءة ولا يستخفوه فهو فى ثوب هيبته.

والهيبة من الله سبباً فى ترك محارم الله تعالى لأنهم علموا أن الحق ناظر إليه فخافوه ومن الحياء لا يخافون أحداً غيره.

والحياء هو اسم التعظيم محوط بورود الهيبة والجلال، فحياء العامة بنظر الحق إليهم وحياء الخاصة بالنظر فى علم القرب وحياء خاصة الخاصة بمشاهدة كشف جميعه لا يمازحه حجاب تفرقة غيرية والصدق هو الموافقة للحق فى الأقوال والأفعال والأحوال فصدق الأحوال بواطنه موطأة الضمير واللسان وصدق الأفعال بالوفاء لله تعالى بالتحمل مع غير مداهنة وصدق الأحوال باجتماع الهم عن الحق سبحانه وتعالى.

وفصل الإمام أبوبكر الحسين بن على أنواع الحياء:

١- حياء جناية: هيام آدم فى الجنة بعد الجناية.

٢- حياء تقصير: هو حياء الملائكة (ما عبدناك حق عبادتك).

٣- حياء الجلال: تسربل إسرافيل عليه السلام بجناحيه حياء من الله.

٤- حياء الغيرة: ستر النبى ﷺ عائشة عن عيينة بن حصن.

٥- حياء الكرم: تاديب الصحابة (فإذا طعمتم فانتشروا فى الأرض).

٦- حياء المعروف: قوله ﷺ: «يسألونى ويأبى لى البخل».

٧- حياء الخلق: خروج عمر بن الخطاب للصلاة من غير طهارة حياء من الناس.

٨- حياء التحقيق وإسقاط رؤية الخلق بلا علة خروج أحدهم للصلاة.

٩- حياء الاستحقار قوله تعالى لموسى عليه السلام (سلنى حتى عن ملح عجينك وعلف حمارك).

١٠- حياء الصيانة والعفة: قول عثمان - رضي الله عنه - ما زينت فى الجهالية ولا فى الإسلام.

١١- حياء الوقار فى قوله ﷺ: «ألا استحى ممن تستحى منه الملائكة».

١٢- حياء الحشمة كقول على للمقداد سل رسول الله ﷺ عن المذى فإن ابنته عندى.

١٣- حياء التعجب والاستبعاد فى حديث أم سلمة عن هل ترى المرأة فى المنام؟ وحياء عائشة.

١٤- حياء العزوبة قول بنت شعيب (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء).

١٥- حياء الأمثال لبيان الحق (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما).

١٦- حياء الحق فى قوله (والله لا يستحى من الحق).

١٧- حياء المراقبة فى الاتعاظ فى قوله لعيسى عليه السلام (عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى).

١٨- حياء المراجعة ليلة الاسراء والمعراج «إنى قد استحيت من ربى فى المراجعة للصلاة».

١٩- حياء قصر الأمل فى قوله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء».

٢٠- حياء الإحسان فى حق المتورعين عن محارم الله عز وجل كما أخبر النبى ﷺ فى الحديث القدسى إن الله تعالى يقول: (إنى لأستحى أن أحاسبهم إذا حاسبت الخلائق).

٢١- حياء المعاودة فى السؤال كما ورد فى الخبر (إن العبد إذا دعا الله تعالى يارب فيعرض عنه ثم يقول يارب وإلى الثالثة والرابعة فيقول الله إنى أستحيت من عبدى من كثرة ما يقول يارب يارب).

٢٢- حياء المعاتبة: كما ورد أن الله تعالى يعاتب عبده يوم القيامة فيقول: (يارب عذابك

أولى من عتابك).

٢٣- حياء التوكل: لقول عمر إنى استحى من ربى عز وجل أن أخاف شيئاً سواه.

٢٤- حياء الصلاح: جاء فى الخبر (استحى من الله كما تستحى من صالح قومك).

٢٥- حياء العين: كما ورد أن سفيان الثورى مع رابعة قالت: «إنى استحى أن أسأل الدنيا ممن يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها».

٢٦- حياء الواجب: كما أثنت عائشة على نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء عن السؤال فى دم الحيض.

٢٧- حياء الحرمة: قول أبا موسى الأشعرى لعائشة: «أنى أريد أن أسالك وأنا أستحى» فقالت: «سل ما كنت سائلا عنه أمك».

٢٨- حياء الرحمة: كما جاء فى الحديث «إن الله يستحى من ذى الشيبة أن يعذبه بالنار».

٢٩- حياء الغرور: كقول أبى الدرداء لأهل حمص «ألا تستحون من ربكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون».

٣٠- حياء المعرفة: كما رأى أحد الصالحين فى منامه قائلاً يقول يا أهل البصرة يا أشباه اليهود «كونوا على حياء من ربكم».

٣١- حياء الإيمان: كما ورد فى الحديث «الحياء من الإيمان والحياء فى الجنة».

٣٢- حياء الزينة: كما ورد فى الحديث «ما كان الرفق فى شىء إلا زانه».

٣٣- حياء الخير: وهو قوله ﷺ: «الحياء خير كله خير الدنيا والدين».

ومعنى الحياء: خلق يبعث على ترك القبيح وفعل المليح ينشأ من علم القلب بأن الله رقيب عليه فيحفظ ظاهره وباطنه من مخالفة الأحكام ويستقبح ما صدر من الهفوات التى تباعد عن دار السلام.

وكيف يا مسكين تغلق بابك وترخى سترك وتستحى من الناس ولا تستحى من الملكين اللذين معك ولا تستحى من القرآن الذى هو فى صدرك ولا تستحى من الجليل سبحانه وتعالى وهو لا تخفى عليه خافيه.

قال معاوية بن أبى سفيان - رضي الله عنه -: «إنى لأستحى أن أظلم من لا يجد على ناصراً

إلا الله».

وروى أن الوليد بن المغيرة سمع النبى ﷺ يتلو قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر) فقال: «والله إن له لحلاوة وأنه عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ما يقول هذا غير نبى».

قال رسول الله ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان»، وقال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وقالت عائشة – رضى الله عنها –: «مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق الكلام، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة للصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الزمام للجار، وحفظ الزمام للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء».

اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك فرقاً وأسكن فى نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك وأجعل حبك اللهم أحب إلينا عمن سواك واجعلنا نخشى لك ممن سواك.

وقال رسول الله ﷺ: «إن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء».

وعن أبى سعيد الخدرى – رضي الله عنه – أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه».

وقال رسول الله ﷺ: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

وقال صالح بن عبدالقدوس – رحمه الله –:

إذا قل مـــاء الوجـــه قل حـــيـــاؤه

ولا خـــيـــر فى وجـــه قـــد قل مـــاؤه

حـــيـــاؤك فـــاحـــفظه عليك وإنما

يدل على فـــعل الكريم حـــيـــاؤه

وجاء فى الأثر «إذا لم تستحى فافعل ما شئت» فإذا أردت فعل شىء فإن كان مما لا يستحى من الله فى فعله فافعله وإلا فلا

قال الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي

ولم تستح فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير

ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحيا بخير

ويبقى العود ما بقي اللحاء

ودعا القوم رجلاً كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال: «إنى دخلت البارحة فى الأربعين وأنا استحى من سنى».

وقال الشاعر:

فسرى كإعلانى وتلك خليقتى

وظلمة ليلى مثل ضوء نهارياً

سئل أبوسعيد الخراز: ما يشيد الحياء ويقويه؟ قال الخوف لله عز وجل عند الهوى الخاطر الواقع فى القلب فيفرغ القلب ويستوحش عندما يعلم أن الله تعالى يرى ما فيه فيثبت الحياء من الله فإذا دام على ذلك زاد الحياء وقوى وللشيخ المربى أحوال عندما يريد تأديب مريديه فيكشف عن خواطرهم من مخالفات حتى يلتزموا الأدب والحياء من الله، فيحكى أن أحد المريدين صرخ فى حلقة الذكر ولما انتهى الذكر ناداه الشيخ قائلاً له ما هذه الصرخة أننى سمعتها منك فخجل المريد وعند ذلك قال الشيخ أما تستحى لقد تتبعت صرختك فوجدتها ذهبت إلى أحد القبور؟ وقد دفنت فيه امرأة كان المريد له علاقة بها فتذكرها أثناء الذكر فصرخ فقال المريد تبت يا سيدى.

وللعارفين مع الناس أحوال ليرجعوهم عما فى أنفسهم من شهوات وحظوظ النفس ولتأديبهم مع الله ومع أوليائه فيكشفون لهم عما فى قلوبهم من الخبايا والعلل والأمراض النفسية عسى أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله تعالى.

وحكى أن أحد من الناس وكان ذو سلطان فوقف على أحد الأولياء وكان الولى ذو بصيرة وكشف فاستخفه الرجل فى نفسه وكان مشغولاً بامرأة كانت له علاقة بها فنظر إليه الولى وقال أما تستحى من الله تعالى فتعاظم الرجل وثار فى وجه الولى فعند ذلك كشف له الولى عما فى خاطره وفضحه على الملأ وأمره بالتوبة فتاب الرجل وحسنت توبته.

٥- التواضع

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٢].

عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان» فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً فقال: إن الله تعالى جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس».

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يعود المريض ويشيع الجنائز ويركب الحمار ويجيب دعوة الضعيف».

والخشوع هو الانقياد للحق والتواضع هو الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم والخوف الدائم اللازم للقلب والتواضع يورث المحبة والقناعة تورث الراحة وهو تذلل القلوب لعلام الغيوب.

قال الله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾.

والتواضع فى ثلاثة:

١- إنكساره لربه دائماً هيبة منه وإجلالاً له.

٢- تواضعاً لعباد الله.

٣- تعظيماً لأولياء الله عز وجل.

والتواضع هو الانكسار لله عز وجل اشتغالاً بذكره وأعظم الذكر بالاسم (الله) المفرد لأنه سلطان الاسم الجامع وهو الاسم الأعظم عند بعض الصوفية والذكر يهذب الأخلاق ويؤدب النفس ويسمو بالروح.

قال تعالى: (ولذكر الله أكبر) والتأدب مع أولياء الله تعالى فلا يعترض عليهم ويعظمهم كذلك والتواضع لعباد الله صغيرهم وكبيرهم من الأنس والجن والملائكة والحيوانات والجمادات فإن العارف من تواضع مع الحجر والمدر ومع الأشياء كلها قياماً بحق الربوبية.

قال أحد الصالحين: إنى والله ما رأيت وليا لله عز وجل إلا تواضعت له بقلبى

وتتلمذت عليه فكل ولى عنده بركة يأخذ منها على قدره ويعلم أنه أتاه لله فيتأدب عند الأخذ منه أبداً مع الله صاحب الآنية، وأنا مذهبى أنى لا أرفع رأسى أبداً إن جاءتنى امرأة من الصالحات فأكون تلميذاً لها وإنى تربيت منذ صغرى مع المجاذيب وفى الكبر تلمذنى الحال مع الرجال فالآن أسوق الناس إلى الله تعالى.

وإنى حتى الآن لا أرى لنفسى حق على أحد ولم أقف معها فى حال ولا مقام ولا أرى فى خلق الله من هو أشر منى.

إذا زاد فى الولى ثلاثة أشياء زاد فيه ثلاثة: إذا زاد خلقه زاد تواضعه وإذا زاد ماله زاد سخاؤه وإذا زاد عمره زاد اجتهاده.

وعلامة الأولياء ثلاثة: تواضع عند رفعة وزهد عند قدرة وإنصاف عن قوة.

قال رسول الله ﷺ: «إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء فتصدقوا يزدكم الله».

وكأنى واقف بين يدى الله تعالى فقال: «لا تأمن مكرى فى شىء وإن أمنتك فإن علمى لا يحيط به» وإن الله تعالى لا يمقت العبد على مد رجليه مع استصحاب التواضع للاستراحة من التعب وإنما يمقته على تعب يصحبه التكبر».

وتواضع للمتواضعين قال تعالى: (واخفض جناحك للمؤمنين) ولجميع خلق الله وإياك أن تتواضع للمتكبرين وقيل فى المثل التكبر على المتكبر صدقة ولمن يسألك أن تتواضع له فإن سؤاله إياك يدل على تكبره فى الباطن وتواضعك واحترامك له يكون عوناً له على التكبر.

ولا ترى فى خفض الجناح وكسر الجانب إلا رحمة من الله.

وكمال التواضع رضا من الله على عبده وكمال ذكر الله عين الوصول والمشاهدة والتواضع هو من عمد التصوف وأسسه وقد كتب فيه القوم فأفاضوا بذكر الأحاديث والآثار والأخبار.

وقال الإمام الغوث الرفاعى - رضي الله عنه -: «من ترك فضول الكلام رزق الخشوع والتواضع ووفق للحكمة ووجد حلاوة العبادة ومن ترك المزاح وفق للبهاء ومن ترك الضحك وفق للهيبة ومن ترك التجسس وفق للإصلاح وستر عيوبه ومن ترك التوهم فى صفات الله وفق للتقى ووقى من الشرك والنفاق».

وهذه الصفات المذكورة بعض من صفاتهم المشهورة لأنهم عملوا أعمالاً عن الخلق مستورة فهى لهم عند الله مدخورة وكذلك يثبت أقدامهم ويزيل أوهامهم فهم فهموا ما عند الله (وما عند الله خير للأبرار) وأشاروا إلى الله «إذا رؤى الولى ذكر الله واعرضوا عما سوى الله فاغناهم به فخرقت أنوارهم الحجب وجالت حول العرش أسرارهم وجلت عند الرحمن أقدارهم وعميت دون الله أبصارهم وهو كما يقول رسول الله ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله استكمل الإيمان».

٦- الفتوة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣].

وقال ﷺ: «لايزال الله تعالى فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة أخيه المسلم».

ويقول الأستاذ أبوعلى الدقاق - رضي الله عنه -: «لا يكون كمال هذا الخلق إلا لسيدنا رسول الله ﷺ فإن كل واحد يوم القيامة يقول نفسى نفسى ونبينا ﷺ يقول أمتى.. أمتى».

وقال الإمام الجنيد - رحمه الله -: «الفتوة بالشام واللسان بالعراق والصدق بخراسان».

وأزيد: والأمانة باليمن والرباط والعلم بمصر والزهد بالمغرب والرياضة بالسودان والقبلة بالحجاز.

والفتوة حسن الخلق وهى الإنصاف والإنتصاف وأن يستوى عندك المقيم والطارىء وكف الأذى وبذل الندى.

وقيل سأل شفيق البلخى - رضي الله عنه - جعفر بن محمد - رضي الله عنه - عن الفتوة فقال: ما تقول أنت فقال شفيق إن اعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا فقال جعفر - رضي الله عنه -: الكلاب تفعل ذلك. فقال شفيق يا ابن بنت رسول الله ما الفتوة عندكم؟ فقال: إن أعطينا آثرنا وإن منعنا شكرنا.

ويقول عبدالله المرتعشى - رضي الله عنه -: دخلنا مع أبى حفص - رضي الله عنه - على مريض نعوده ونحن جماعة فقال المريض أتحب أن تبرأ فقال: نعم. فقال لأصحابه: «تحملوا عنه فقام العليل» وخرج معنا وأصبحنا كلنا أصحاب فراش نعاد.

ولما سئل الإمام الرفاعي - ﷺ - عن الفتوة قال: «هو الصفح عن عثرات الإخوان وأن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك»، والفتى من لا خصم له فهو خصم لربه على نفسه بأن لا يتفاخر على من آمن بالله وهدى بالإيمان وتوكل على الرحمن والصديق الذي يحل أكل ماله بغير إذن والذي تسكن النفس إليه ويستريح القلب له.

قال الشاعر:

أصحب من الإخوان من قلب

أصفى من الياقوت والجوهر

ومن إذا لسرك أودعته

لم يظهر السر إلى المحشر

الفتوة: وربما كان رأى العين والاشتراك فى الخصائص أنجح فى إجمال الصور فلندع البيان لشهود العيان.

يقول بشر بن الحارث الحافى «بشر الحافى» سئل سفيان الثورى عن الفتوة فقال: «الفتوة العقل والحياء ورأسهما الحفاظ وزينتهما الحلم والأدب وشرفه العلم والورع وحليتهما المحافظة على الصلوات وبر الوالدين وصلة الرحم وبذل المعروف وحفظ الجار وترك التكبر ولزوم الجماعة والفؤاد وغض الطرف عن المحارم وبذل السلام وبر الفتيان العقلاء الذين عقلوا عن الله تعالى أمره ونهيه وصدق الحديث واجتناب الحلف والإيمان وإظهار المودة وإطلاق الوجه وإكرام الجليس والإنصات للحديث وكتمان السر وستر العيوب وأداء الأمانة وترك الخيانة والوفاء بالعهد والصمت فى المجالس من غير وعى والتواضع من غير حاجة وإجلال الكبير والرفق بالصغير والرأفة والرحمة للمسلمين والصبر عند البلاء والشكر عند الوفاء وكمال الفتوة خشية الله عز وجل فينبغى للفتى أن تكون فيه هذه الخصال فإذا كانت كذلك كان فتى بحق».

ومن أخلاق الفتوة: أن يحسن خلقه مع من يبغضه ويبذل المال لمن يكرهه ويحسن الصحبة مع من ينفر منه قلبه وموافقة الإخوان فى كل ما لا يخالف العلم.

٧- الإيثار

قال الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه وإنما يصير إلى أربعة أذرع وشبر وإنما يرجع الأمر إلى الآخرة».

والإيثار هو سخاء وخروج الدنيا من القلب وبذلها عن الوجد والصبر عند الفقد وأقبح القبيح صوفي شحيح والزهد عند المحققين إذا وجدوا آثروا وإذا فقدوا شكروا ومن آثر أستاذه على نفسه كشف الله له عن حظيرة قدسه، وأذاقه طعم الحرية فلا تسترقه الدنيا ولا تؤسره النفس بحظوظها وشهواتها ومن أراد ذلك فليطهر السريرة بينه وبين الله.

وقال يحيى بن معاذ – رحمه الله –: «أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد وأبناء الآخرة يخدمهم الأحرار والأبرار».

ومن أخلاق الصوفية: الإيثار والمواساة ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعاً وقوة اليقين شرعاً يؤثرون بالموجود ويصبرون على المفقود.

ومن علامات الإيثار تفريق ما يجمعه من مال حال ويضعه في موضع حلال وتركه في الطلب لما هو مفقود فارغاً منه قلبه.

والإيثار بالقوت لجميع الناس لا تفرقة بين من يعرفه ومن لا يعرفه ويحب أن يؤكل طعامه قاصداً به وجه الله المنعم.

فمن رأى نفسه مالكاً لشيء لا يصح منه الإيثار لأنه يرى نفسه أحق بالشيء وما وصل إليه فهو أحق به ولكن الفتوة في الإيثار كل ما وصل إليه فهو أمانة عنده يوصلها لصاحبها أو يؤديها إليه مؤثراً بها على نفسه ويرى أنهم أحق بها منه والإيثار عين الفتوة.

٨- الشكر

قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

وفي الحديث عن عطاء – رحمه الله – قال: دخلت على عائشة – رضي الله عنها – مع عبيد بن عمير فقلت: «أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجباً؟ إنه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي أو قالت في لحافي حتى مس جلدي

جلده قال: يا بنت أبي بكر ذريني أتعبد لربي قالت: قلت: إني أحب قربك وأحب أن تعبد ربك فأذنت له، فقام إلى قربة من ماء فتوضأ وأكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت له: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال أفلا أكون عبداً شكورا».

ولم لا أفعل وقد أنزل الله على ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الآية ١٩ سورة آل عمران.

وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع والثناء على المحسن بذكر إحسانه فشكر العبد لله تعالى وثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه وإحسان العبد شكر الرب على توفيقه لطاعته وإنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له والشكر نطق اللسان بالشكر وإقرار القلب بإنعام الرب والاعتراف للمنعم وإقرار للربوبية والشكر زيادة الله للشاكرين.

بمعنى إذا شكر زاده الله توفيقاً فزاد شكراً وحمداً:

قال شاعرهم:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة

على له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله

وإن مدت الأيام واتصل العمر

وقال آخر:

لو كان جارحة مني لها لغة

تثني عليك بما أوليت من حسن لكان

ما زاد شكري إذا شكرت به

إليك أزيد في الإحسان والمن

وقال بعض الكبراء الشكر هو الغيبة عن الشكر برؤية المنعم. اللهم أجعلنا من الشاكرين وأمنحنا المزيد المتواصل لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

والله يرزق العبد حلاوة ذكره فإن فرح وشكره أنسه بقربه وإن قصر فى الشكر أجرى الذكر على لسانه وسلبه حلاوته.

فهم فى أنسه مشاهدا للمنة وحافظاً للحرمة على وجه معرفة العجز عن الشكر.

والشكر ينقسم إلى:

١- شكر باللسان: وهو الإعتراف بالمنعم بنعت الإستكانة.

٢- وشكر بالبدن والأركان: وهو الإتصاف بالوفاء والخدمة.

٣- شكر بالقلب: هو الإعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة.

ويقال شكر هو شكر العالمين: يكون من جملة أقوالهم وشكر: هو نعت العابدين ويكون نوعاً من أفعالهم.

وشكر: هو شكر العارفين: بإستقامتهم له فى عموم أحوالهم.

ويقال الشاكر: الذى يشكر على العطاء والشكور الذى يشكر على البلاء.

قال الجنيد كنت بين يدى السرى ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: ألا تعصى الله بنعمة من نعمه فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك، قال الإمام الجنيدى - رحمه الله - فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى.

وشكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى.

وقيل التزم الحسن بن على - رضي الله عنه - على الركن وقال «إلهى نعمتنى فلم تجدنى شاكراً وابتليتنى فلم تجدنى صابراً فلا أنت سلبت النعمة بتركى الشكر ولا أدمت الشدة بتركى الصبر. إلهى ما يكون من الكريم الا الكرم».

وقيل أربعة لا ثمرة لأعمالهم: مسارة الأصم وواضع النعمة عند من لا يشكر والباذر فى السنجة والمسرج فى الشمس.

وقيل مر بعض الأنبياء عليهم السلام بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير فتعجب منه فأنطقه الله معه. فقال مذ سمعت الله تعالى يقول (ناراً وقودها الناس والحجارة) وأنا أبكى من خوفه قال: فدعا ذلك النبى أن يجير الله ذلك الحجر فأوحى الله تعالى إليه أنى قد

أجرته من النار فمر ذلك النبى فلما عاد وجد الماء يتفجر منه مثل ذلك فعجب منه فأنطق الله ذلك الحجر معه فقال له لم تبكى وقد غفر الله لك؟ فقال: ذلك كان بكاء الحزن والخوف وهذا بكاء الشكر والسرور.

وفى الخبر الصحيح «أول من يدعى إلى الجنة الحامدون الله على كل حال» وقيل الحمد على ما وقع والشكر على ما صنع.

وقيل قال داوود – عليه السلام – إلهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك فأوحى الله تعالى إليه الآن قد شكرتنتى والتحدث بنعمة الله شكر قال تعالى: (وأما بنعمة ربك فحدث) والعمل بالطاعة شكر (اعملوا آل داوود شكرا).

والإعتراف بأن كل نعمة بك أو فى أحد من العباد فمن الله (وما بكم من نعمة فمن الله) ما الذى يصير به الشاكر شاكراً؟

إن كان ذا علم فبالتبين والإرشاد وإن كان ذا مال ينفق فى سبيل الله وأن يكون العبد ذاكراً تالياً مصلياً مراقباً لا يشغله إلا واجب شرعى لابد منه مع الزهد.

والتقوى مع دوام العمل يصل إلى المقام مع ترك التدبير والاختيار وكذلك زوال الهوى ووفرة العلم وانقطاع مادة الجهل عن باطنه.

اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر نعمتك، فالشكر أعلى المنازل لأنه يتضمن الرضا وزيادة.

ولذلك هو نصف الإيمان والله تعالى يسمى نفسه شاكراً وشكوراً وحسبك بهذا محبته للشاكرين وهو القائل جل ثناءه (لئن شكرتم لأزيدنكم) والشكر انفتاح القلب لشهود منه الرب.

ولو علم الشيطان طريقاً يوصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها ألا تراه كيف قال؟ (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين). ولم يقل لا تجد أكثرهم صابرين ولا خائفين ولا راجين.

يقول سيدى – عبد الرحيم القنائى – رضي الله عنه –: سيد الشاكرين أويس القرنى اليمنى حبيب رسول الله ﷺ: وسيد الكتاب معاوية – رضي الله عنه – وسيد العاشقين لرسول الله ﷺ: أبو هريرة – رضي الله عنه – وسيد الفقهاء أبو حنيفة النعمان – رضي الله عنه – وسيد العدالة عمر بن عبد العزيز وسيد المدققين الإمام مالك – رضي الله عنه – وسيد المحققين الإمام أحمد بن حنبل وسيد الخير الخضر عليه السلام.

د - الحقائق

١ - القرب

القرب هو الطاعة وقالوا القرب أن يتدلل عليه ويتذلل له لقوله (واسجد واقترب) والتدلل بمعنى الإستعطاف والطمع التام فى الإحسان كما يفعل المتدلل فالسجود والإقتراب ضراعة تامة. ولا يكون القرب منك إلا بصفة من صفات العبودية أى بالتذلل للحق كذلك بالأفعال والأقوال والطاعات، نادى الحق أحدهم فى الوقفة فقال له (يا عبدى لا يكون القرب منك بصفة من صفاتى بل بك يكون القرب إليك منك أى بصفة من صفات العبد وهى الذل والانكسار إلى الله تعالى فقال العبد يا رب: تقرب إليك أقوام بأفعالهم وطاعتهم فوصلتهم تفضلاً منك وليست لى أفعال أتقرب بها إليك وأنا أملك شوقاً إلى القرب منك ولا سبيل لى إليه من حيث أنا).

وأنشد النورى رحمه الله:

يا من أشاهده منى فأحسبه
منى قريب وقد عزت مطالة إذا
سلت نفسى سلوة عنه ردنى
إليه شهود ليس تفنى عجائبه

وقال الشبلى - رضي الله عنه -: (قد تحريت فيك فخذ بيدى يا دليلاً لمن تحير فيك).

ومن علامات القرب من الله تعالى ثلاثة:

ترك الخط - والقيام بالحق - والتواضع لله فى الخلقه، ومن أصول الطريق يجب على المريد أن يتقرب إلى الله تعالى بما شرعه وسنه رسول الله ﷺ.

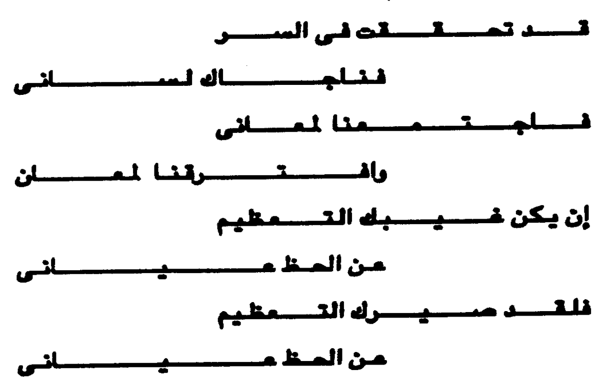
قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام (واسجد واقترب).

وقد ورد فى الحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب، سأل أحدهم إنى لا أجد الحضور؟ فأقول : «يا الله أو يارب يارب فأجد ذلك أثقل من الجبال» قيل له: لأن النداء لا يكون من وراء الحجاب – وهل رأيت جليساً ينادى جليسه وإنما هى إشارات وملاحظات ومناغاة وملاطفات وهو الذى وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب ولكنه مشعر بمحو ومؤذن بسكر يكون ذلك لمن غابت نفسه فى نور روحه لغلبة سكره وقوة محوه.

فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس والنفس من الروح ويعود كل من العبد الى محله ومقامه فيقول: «يا الله ويارب» بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى مقام حجبها ومحل عبوديتها والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال وهذا أتم وأقرب من الأول لأنه فى حق القرب باستقلال الروح بالفتوح وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الإفتقار وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس.

فالله تعالى يقرب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه فانظر ماذا يقرب من قلبك؟

ولا يكون العبد بالقرب إذا لم يغب عن رؤية القرب بالقرب فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذاك عين القرب وقال قائلهم:



قـــد تحـــقـــقـــت فى الســـر

فـنـاجـــــاك لســــــانى

فـــاجـــتـــمـــعـنا لمعـــانى

وافـــتـــرقـنـا لمعـــان

إن يكن غـــيـــبـك التـــعظيم

عـن الحـظ عـــيـــانى

فلقـــد صـــيـــرك التـــعظيم

عـن الحـظ عـــيـــانى

فلقد صيرك الوجد

من الأحشاء دانى

والقرب من الله يزيد هيبته وذلك لجلال الله وعظمته ومن هنا ينشأ الحياء وهو أدنى مقام من مقام القرب وينال مقام القرب بإتباع السنة وتنال المعرفة بأداء الفرائض وتنال القربة بالمواظبة على النوافل وتنال المحبة.

والقرب هو الإناخة على باب الحبيب والتزام أعتابه وإن طرد وبعد وكثرة العبد تأتى صفوة القرب فما قرب إلا بعد بعد.

والمقربون هم عشاق المنعم الجميل وفى القرب والبعد يا عبد تعرفت إليك وما عرفتنى ذلك هو البعد تسمع خطابى لك من قبلك ولا تعلم إن ذلك الخطاب منى ذلك هو البعد ترى نفسك وأنا أقرب إليك من نفسك ذلك هو البعد إن رأيت غيرى لم ترن (لأنهار أغيار) أى شواغل عنى.

وقال لى إن هلكت فى سواى كنت لما هلكت فيه.

سئل الإمام الرفاعى - ﷺ -: كيف وصل المقربون إلى مقام الكشف والمشاهدة؟ فقال؟: بترك الإختيار وطاعة الملك وكثرة التواضع والإنكسار.

وفى حضرة القرب من أدت به عبادته إلى القرب فهو فى حجاب القرب حتى يغيب بالقرب عن القرب لعظم القرب فمن أراد الكرامة فى القرب فعليه بالطاعة والإعراض عن المعصية.

وسأل الرجل أحد العارفين وقال له (دلنى على عمل أتقرب به إلى ربى من غير تعب قال:- حب أولياء الله ليحبوك فإن الله تبارك وتعالى ينظر إلى قلوب أوليائه فى كل يوم وليلة سبعين مرة فلعله أن نظر إلى اسمك فى قلب وليه فيغفر لك وأن رأى صورته معلقة فى قلبك جعلك من المحبين لأن حبيب الحبيب حبيب وما تعلقت الصورة إلا فى ستائر الحب معنونة بالقرب.

وعلامات القرب من الله تعالى على عبده إمتثال أمره وإجتناب نهيه والإكثار من ذكره والاستسلام لقهره ومحبة رسول الله ﷺ ومحبة أهل بيته ومحبة أوليائه وصحبتهم وخدمتهم والثقة بربه والتوكل عليه فى جميع أموره وعدم التدبير والإختيار مع ربوبيته والرضا والتسليم بجميع أحكامه الجلالية والجمالية وتحقيق معرفته ودوام شهوده والحضور معه فى جل أوقاته.

والجد والعزم مطلوب للسير لمعرفة الله تعالى ورسوله بالعيان فالتوكيد والعزم يكون بليغا عظيماً فالحضرة مهرها النفوس والمهج قليل فى حقها فالله تعالى عزيز لا ينال إلا برفع العزيز عندك وهو نفسك فبقدر إتعابها تكون راحتها وبقدر ربيعها والغيبة عنها يعظم مقامها فبقدر الكد والجد تدرك المعالى:

بقـــدر الكد تكتـــسب المعـــالى

ومن طلب العـــلا ســـهـــر الليـــالى

تريد العـــــز ثم تنام ليــــلاً

يغـــوص البـــحـــر من طلب اللآلىء

وإن كان المطلوب متوسطاً لعلم الرسوم وحفظ القرآن فالتوكيد والعزم يكون متوسطاً فقد يدركه أهل الرئاسة والجاه وأهل الأسباب والشواغل القلبية بخلاف المقام الأول فلا يدركه إلا أهل التجريد ظاهراً وباطناً وإن كان المؤكد أمراً دنيونياً فالتوكيد والعزم فيه على قدر الهمة، فالمقام الأول مع المقربين، والمتوسط مع الأبرار والصالحين، والثالث مع الغافلين.

قال الشيخ أبو العباس المرسى – رضي الله عنه – لله رجال محو أوصافهم بأوصافه وأفعالهم بأفعاله وذواتهم بذاته وحملهم من الأسرار ما يعجز عنه عامة الأولياء فكلما يتجلى الله تعالى فى قلب العارف الذى هو بدل من الله فى ملكه وتصريفه يتجلى هو فى الوجود بجلاله وجماله وهو على أربعة أنواع:

١– إما أن يكون بدلاً من الحق نائباً عنه فى الكل وهو مقام الغوث الجامع لأن المدد كله منه للدائرة كلها حساً ومعنى.

٢– وإما أن يكون بدلاً منه فى البعض كمقام الأقطاب والأوتاد والأبدال والنجباء والنقباء والصالحين فإنهم يتصرفون فى بعض المملكة على حسب ما ملكهم الله التصرف فيه.

٣– وإما أن يكون بدلاً منه لاشتماله على علوم وأنوار وأسرار لم توجد لغيره وهذا مقام الأفراد، فإن الفرد أكبر من القطب الجامع فى العلم بالله، قال الشيخ أبو العباس المرسى – رضي الله عنه –: (كان الجنيد قطباً فى العلوم وكان البسطامى قطباً فى الأحوال وكان سهل قطباً فى المقامات).

وقد يدعى بعض المريدين الكاذبين الأحوال ومقام الأبدال ويترامى على مقامات الرجال وهو بعيد عنها وهذا خطأ جسيم والعياذ بالله من الدعاوى العريضة من القلوب المريضة.

٢- الأنس

الأنس هو إنبساط المحب الى المحبوب وارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة ومعنى ارتفاع الحشمة أن يكون الرجاء عليه من الخوف وهو أن يستأنس الأذكار فيغيب عن رؤية الأغيار، وكذلك المستأنس تذهب عنه الوحشة فى المواطن التى يفزع فيها الناس فيستوى عنده العمران والخراب والقفار والجماعة والوحدة وذلك الذى استولى عليه من قرب الله عز وجل عذوبة ذكره ويغلب ما سواه من العوارض الظاهرة والباطنة فهذا ظاهر الأنس الذى يمكن أن يذكر وما بقى من مقامات الأنس أكثر وأعز من أن يكون فى كتاب إلا أن يجرى منه شيء عند المذاكرة مع أهله.

ومن علامات المستأنس بالله تعالى أن يكون واجداً لذكر الله فى قلبه وجداً لقربه منه لا يفقده على كل حال وفى كل وقت وفى كل موطن ويكون الله عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء وذلك إذا سكن قلبه نور قرب الله تعالى منه فيه، ينظر إلى الأشياء وبه تستدل على الأشياء وهكذا يروى عن عامر ابن عبد الله - ﷺ - أنه قال: (ما نظرت إلى شيء قط إلا كان الله تعالى أقرب إلى منه) ومن صفات المستأنس بالله أن يكون متبرماً بالأهل والخليقة كلهم مستعذباً للخلوة والوحدة ويكون فى البيت المظلم متبرماً للمصباح إذا رآه بل يجيف به ويسبل ستره ويواجد قلبه ويألف مليكه فيكون به أنيساً ومناجاته متنعماً ويكون متفرغاً من طارق يطرقه فينغص عليه خلوته ثم تراه مستوحشاً من ضوء الشمس إذا دخل عليه فى صلاته ويتثاقل بلقاء الخلق ويملهم ويكون لقائهم ومجالستهم عليه غراماً وخساراً، فإذا جن الليل ونامت العيون وهدأت الحركات وسكنت حواس الأشياء خلا عند ذلك بربه فهاج شجونه وتصعدت انفاسه وطال أنينه وتنجز الموعود من مأموله وما قد غذاه من فوائده وألطافه فظفر عند ذلك ببعض سؤله وقضى بعض أوطاره.

وقد جعل المستأنس الهموم هماً واحداً والقصد واحداً والمحبة محبة واحدة والقلب منفرداً لله فبذلك ينال القرب من الله والسكنى فى قصور المعارف والتفكه فى بحار الأنواق وانفراده الوجهة للواحد الخلاق وفى الحديث قال - ﷺ - «من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه» أى هم المعاد وهم المعاش وقال الإمام الجنيد - رحمه الله -: كنت أسمع السرى يقول: يبلغ العبد حداً لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر وكان فى قلبى منه شيء حتى بان لى أن الأمر كذلك.

وحال الهيبة والأنس وإن جلتا فأهل الحقيقة يعدونهما نقصاً لتضمنهما تغيراً للعبد

فإن أهل التمكن سمت أحوالهم عن التغير وهو محو فى رجود العين فلا هيبة لهم ولا أنس ولا علم ولا حس، والحكاية المعروفة عن أبن سعيد الخراز – رضي الله عنه – قال (تهت فى البادية مرة فكنت أقول:

أتيـــه فـــلا أدرى من التـــيـــه من أنا

سوى مـا يقـول الناس فى وفى جنسى

أتيـــه على جن البـــلاد وأنســـهـــا

فـإن لم أجد شـخـصـاً أتيه على نفسى

قال فسمعت هاتفا يهتف بى ويقول:

أيا من يرى الأسـبـــاب أعلى وجـوده

ويفـــرح بالتـــيـــه الدنى وبالأنس

فلو كنت من أهل الوجـود حـقـيـقـة

لغبت عن الأكوان والعرش والكرسى

وكنت بلا حـــال مع الله واقـــفـــاً

تصـــان عن التـــذكـــار للجن والأنس

وإنما يترقى العبد عن حالة الأنس بالوجود إذا ارتبط بالحق وتبرم من نفسه وخرج من حوله وقوته وإن أراد أن يصل إلى الصفا حيث يتجلى الله عليه بقدر صفاته وإلى أقصى ما يصل إليه السالكون إليه يحاول أن يفنى فى الله بحيث يصبح صورة تامة بقدر الإمكان مما يحب الله فيصبح ربانياً.

ومقام الأنس محل المشاهدة والمكافحة والمواجهة ولا يحجبه فتور ولا قصور ولا ملل بل لم تزل فيها عزيمة ولا أنس بغير حضور ولا وصل إلا بمداومة المحبة، والفتح بالليل أقرب من الفتح بالنهار لأن فى الليل لذة معينة وتجلى النهار أقوى من تجلى الليل لأن الجمعة فى النهار وفى الجمعة ساعة إستجابة، وقال الحق عز وجل (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) ولكن الأنس لا ياتى إلا ليلاً وان يناغى الحبيب حبيبه إلا ليلاً قال تعالى (وبالأسحار هم يستغفرون) وفى الحديث القدسى على لسان المعصوم – ﷺ – (يتجلى رب العزة فى الثلث الأخير من الليل ويقول هل من مستغفر فاغفر له وهل من تائب

فاتوب عليه) أو كما قال، والمستأنس صاح وحق الأنس صحو بحق ثم يتباينون فى الشرب ولهذا قالوا أدنى محل الأنس إنه لو طرح فى لظى لم يتكدر عليه أنسه، والأنس أتم من القبض كما أن الهيبة أعلى من القبض فهو إنقطاع إلى الله واستغراق فيه، فإذا رأيته يؤنسك بخلقه ويوحشك من ذكره فقد طردك وإياك أن تطمع فى الأنس بالله وأنت تحب الأنس بالناس وإياك أن تطمع فى حب الله وأنت تحب الفضول وإياك أن تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس وإذا قصر العبد فيما بينه وبين الله تعالى أخذ منه ما كان يؤنسه وهو استبشار القلب بقربه وسروره به وهدوءه فى السكون إليه وأمنه فى حال الورع.

ليس كل من يصلح للمجالسة يصلح للمؤانسة وليس كل من يصلح للمؤانسة يؤتمن على الأسرار فإنه لا يؤتمن على الأسرار إلا الأمناء، وفى مجالسة الأضداد ذوبان الروح وفى مجالسة الأشكال تلقيح العقول ومن البلاء العظيم صحبة من لا يوافقك ولا تستطيع تركه، من أنس بالله أنس به كل شيء ومن خاطبه الله خاطبه كل شيء ومن وصل الى الله تأخر عنه كل شيء إجلالاً له ومن عرف الله جهله كل شيء والكامل من أودعه الله عز وجل من العلوم والأسرار، والأنس بالله لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته وصفا واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى فعند ذلك أنسه الله تعالى به قال شاعرهم:

ومنفـــرد بالله هـام بحـــبـــه
فليس لـه أنس بشيء ســـوى الرب
تفـــرد فى الدنيـــا بطاعـــة ربه
فـــأورثه علم الكتـــاب بلا ريب
وآثر حب الله فـــانكشـــفت له
عـجـائب أسـرار ثواباً على الحب
فمن كـان فى دعوى المحبة صادقاً
تجلت له الأنوار من غـيـر مـا حـجب
فـيـرتع فى روض المعـارف دائمـاً
ولذتهـا أشـهى من الأكل والشــرب

تخاطبه الأحوال من كل جانب
فيفهم عنها بالضمير وبالقلب
يكاشف بالأسرار من ملكوتها
فيأتى عليه الفيض من عالم الغيب

٣- التوكل

قال تعالى (ومن توكل على الله فهو حسبه) وقال (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين).

التوكل: هو الإعتصام بالله والإعتماد عليه والرضا بالله تعالى وكيلاً وترك تدبير النفس والإنخلاع من الحول والقوة وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم ويرى ما هو فيه وأنه هو الكفيل به طارحاً البدن فى العبودية وتعلق قلبه بالربوبية مع الطمأنينة للكفاية فإن أعطاه شكر وإن منعه صبر فلا يظهر الإنزعاج ولا يتعاطى الأسباب مع شدة فاقته.

والمتوكل يستوى عنده الكثير والقليل استسلاماً لجريان القضاء والأحكام أى ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك والثقة بما فى يد الله تعالى واليأس عما فى يد الناس وفراغ السر عن طلب الرزق وعدم الشك فى الرازق والتفويض إلى ملك الملوك.

التوكل: صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين، وقيل التوكل صفة الأنبياء والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ، والتوكل فى النفس ووجوده فى القلب هو التصديق لله عز وجل والاعتماد عليه والسكون إليه والطمأنينة إليه فى كل ما ضمن وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق وكل أمر تكفل به الله والعلم بأن كل ما يحتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة فالله مالكه والقائم به لا يوصله إليه ولا يمنعه غيره من خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى والثقة به والعلم الخاص واليقين الثابت أن يد الله المبسوطة إليه الموفية له كل ما يطلب فلا يصل إليه معروف إلا بعد أمره ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه ويقول أحدهم توكلت على الله وهو يكذب عليه ولو توكل عليه رضى بفعله، سلم الأمر إليه بصميم الإيمان من قلبه، ولا يصح التوكل إلا لمتق ولا تتم التقوى إلا لمتوكل فإن المحققين ينظرون إلى

البواعث والثمار فإذا فقدت الثمار علموا أن علمهم وعملهم مدخولان وإذا فقدت البواعث الصحيحة فى الأصول فلا يعتبرون بأعمالهم فدققوا النظر فى البواعث والأصول والثمار ولا يكون التوكل إلا مع اليقين ولا يكون يقين وتوكل إلا مع الإيمان لأن اليقين عبادة ومقام التوكل يستدعى قوة القلب وقوة اليقين، وقال سهل - رضي الله عنه - من طعن على التكسب فقد طعن فى السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن فى التوحيد.

وقال الحلاج - رحمه الله - لإبراهيم الخواص: ماذا صنعت فى هذه الأسفار وقطع هذه المفاوز؟ قال: بقيت فى التوكل أصحح نفسى عليه، قال الحلاج أفنيت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد؟.

التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالتوكل يسكن إلى وعده تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه.

وفى مقام التوكل:

١- مقام الخواص الأقوياء وهم الأقوياء بدون زاد يدورون فى البوادى والأمصار ثقة بالله تعالى فيجوع الواحد منهم أيام عدة ولايشكو الجوع ولا يشعر به وقد تطول به المدة ولهم فى ذلك حكايات كثيرة فمنهم من لا يأكل إلا بعد سبعة أيام ومنهم شهراً ومنهم أكثر من ذلك توكلاً على الله واهب الرزق والحياة.

٢- ومنهم من يعتكف فى بيته أو مسجده فى القرى والأمصار تاركاً الكسب والأسباب الظاهرة معول همه على فضل الله وما يحمله إليه أهل البلد الذين عرفوه.

٣- ومنهم من يخرج ويتكسب وهو متوكل على الله وهذا التكسب لا يخرجه عن مقام التوكل حيث نظره إلى الكفيل وليس إلى بضاعته ولا قوته ولا جاهه.

والكسب إما لعياله أو للمساكين وهذا أشرف من حال القاعد فى بيته فإن الصديق الاكبر - رضي الله عنه - لما بويع بالخلافة أصبح يأخذ الأثواب تحت حضنه والزراع بيده ودخل السوق ينادى وقالوا كيف تقول ذلك وقد أقمت بخلافة النبوة؟ فقال لا تشغلونى عن عيالى فإن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع.

سئل الخواص عن أعجب ما رأى فى أسفاره فقال: لقينى الخضر عليه السلام ورضى عنى فسألنى الصحبة ولكنى فارقته خيفة أن تسكن إليه نفسى فيفسد على توكلى بسكونى إليه، قال أبو الحسن الشاذلى - رضي الله عنه -: من أجل مواهب الله الرضا بمواقع

القضاء والصبر عند نزول البلاء والتوكل على الله عند الشدائد والرجوع إليه عند النوائب فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الاعمال على بساط المجاهدة ومتابعة السنة والاقتداء بالأئمة فقد صحت ولايته لله ولرسوله والمؤمنين قال تعالى (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون).

قال الإمام الغزالي: قد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وهذا ظن الجهال وهو مخالف للشرع فإنما يظهر أثر التوكل فى حركة العبد وسعيه إلى مقصده والتوكل فى الرزق:

قال رجل لحاتم الأصم من أين تأكل؟ قال: «من خزائنه» فقال الرجل: «أيلقى عليك الخبز من السماء فقال: لولم تلقه الأرض له لكان يلقه من السماء فقال الرجل: أنتم تأولون الكلام» فقال: لأنه لم ينزل من السماء إلا الكلام «فقال: الرجل أنا لا أقوى على مجادلتك» فقال حاتم: «لأن الباطل لا يقوم مع الحق (اللهم إنى أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك).

دخل أحد الأثرياء الصالحين مسجداً ليصلى فرأى صبياً لم يتجاوز الثانية عشر قائما يصلى فى خشوع ويركع ويسجد فى هدوء واطمئنان فلما فرغ الصبى من صلاته دنا منه الثرى وسأله إبن من أنت يا بنى؟ فرد الصبى إنى يتيم فقدت ابى وامى قال الثرى: أترضى ان تكون لى ولدا؟ فقال الصبى أتطعمنى إذا جعت؟ قال نعم، قال الصبى اتسقينى إذا عطشت؟ قال نعم، قال الصبى: أتكسونى إذا عريت؟ قال نعم، قال الصبى أو تحيينى إذا مت؟ فدهش الثرى فقال هذا ما لا سبيل إليه فقال الصبى: فاتركنى إذن للذى خلقنى ويرزقنى ويميتنى ثم يحيينى فتركه الثرى وهو يقول من توكل على الله كفاه.

ويقول أبو عبد الله المغربى – رحمه الله –: «التوكل النظر الى الله تعالى دائما بلا عين تطرف والذكر له بلسان لا يتحرك والجولان فى مصنوعاته بلا روح تغفل» وطعم «الفتح الواسط» من طعام بشر الحافى ثم مضى وهو يحمل ما تبقى من طعام فقال بشر: للحاضرين أتدرون لم أخذ الباقى؟ ليريكم أنه إذا صح التوكل لم يضر العمل.

قال أبو حمزه الخرسانى: حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشى فى الطريق إذ وقعت فى بئر فنازعتنى نفسى من استغيث فقلت: لا والله لا أستغيث فما أستتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال نسد رأس هذا البر لئلا يقع فيها أحد فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر فهممت أن أصيح ثم قلت فى نفسى:

أصبح إلى من هو أقرب منهما وسكنت فبينما أنا بعد ساعة إذا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول لي: تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك منه فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع فمر وذهب وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وأنا أقول:

أهابك أن أبدي إليك الذي أخفي

وسري يبدي ما يقول له طرفي

نهاني حيائي منك أن كتم الهوى

وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف

تلطفت في أمري فأبديت شاهدي

إلى غائبي واللطف يدرك باللطف

تراءيت لي بالغيب حتى كأنما

تبشرني بالغيب أنك في الكف

أراك وبي من هيبتي لك وحشة

فتؤنسني باللطف منك وبالعطف

وتحيي محبا أنت في الحب حتفه

وذا عجب كون الحياة في الحتف

وحكى أن حذيفة المرتعشي وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم وصحبه، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه، فقال: بقينا في طريق أياماً لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى إبراهيم بن أدهم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع فقلت: هو ما رأى الشيخ فقال: علي بدواة وقرطاس فجئت به فكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر

أنا جائع أنا ضائع أنا عاري

هى سنة وأنا الضـمـين لنصـفـهـا

فكن الضـمـين لنصـفـهـا يا بارى

مـمـحى لغـيـرك لهب نار حـضـنتـهـا

فـأجـر عـبـيـدك من دخـول النار

والنار عندى كـالشـواء فـهل ترى

أن لا تـكـفـى دخـــول الـنـار

ثم دفع إلى الرقعة وقال: أخرج قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك، قال فخرجت فأول من لقينى رجل كان على بغلة فدفعتها إليه فأخذها وبكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟

فقلت: هو فى المسجد الفلانى فدفع إلى بصرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلاً آخر فقلت له: من صاحب هذه البغلة؟ فقال لى: هو نصرانى فجئت إلى إبراهيم بن أدهم فأخبرته بالقصة فقال: لا تمسها يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة وافى النصرانى وأكب على رأس إبراهيم بن أدهم يقبله وأسلم.

٤ - المراقبة

قال تعالى (وكان على كل شيء رقيبا) المراقبة هى مراقبة الله تعالى وهى شغل عبيدة المخلصين على الدوام وجاء فى حديث المصطفى - ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذه إشارة إلى حال المراقبة لأن المراقبة علم العبد باطلاع الحق عز وجل عليه واستدامته لهذا العلم مراقبته لربه على دوام الأوقات وتنشأ المراقبة الصحيحة لله تعالى من إصلاح الجسد بواسطة القلب وإصلاح القلب يكون بإصلاح الطعمة أى الطعمة الحلال وإصلاح الطعمة يكون بالكسب الحلال فى الكون مع التوكل على الله تعالى، والتوكل هو حقيقة المراقبة ابتداء من الحق ومن العبد فى الإنتهاء اكتساباً فلذلك قال - ﷺ: أفلا أكون عبداً شكوراً وعلى المريد أن يراقب شيخه فى جميع عبادته وأن يستمد قلبه من شيخه وأن يلاحظ أن استمداده من شيخه هو الإستمداد من النبى - ﷺ - لأن الشيخ الصادق نائباً عنه.

ما هى المراقبة وما الفائدة منها؟

هى مراقبة النفس لله تبارك وتعالى ويلزمها المسلم فى كل وقت حتى يتم له اليقين بأن

الله مطلع عليها وبذلك تصبح مستغرقة بملاحظته عز وجل شاعرة بالأنس به مقبلة عليه راغبة فى جواره تجد راحتها.

قال سيدى أبو السعود بن أبى العشائر الواسطى - رضي الله عنه -: المراقبة لله هى مفتاح كل سعادة وبها يطهر القلب ولا يستقيم لمريد أمره فى الطريق إلا بإدخال النفس فى كل شىء يقحمها ويؤلمها من الطاعات وذلك حتى تذل وترجع مطيعة لصاحبها فإن النفس إذا استولت على الإنسان أسرته وصارت الولاية لها على القلب فإن تحركت تحرك القلب وإن سكنت سكن القلب، كان يقول: من أعرض عنه الخلق كلهم فتغير منه شعرة فهو واقف مع نفسه فى حجاب عن ربه ومن فى حجاب بعيداً عن ربه ومن تغير فى حال الذل ولم يكن كما فى حال القرب فهو محب للدنيا بعيداً من حضرة ربه، وكان يقول: كلما أشغل القلب عن ذكر الله فهو دنىء كلما أوقف القلوب عن طلبه فهو دنى وكلما أنزل الهم بالقلب فهو دنى والأمر وراء ذلك كله.

وبالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة والمراقبة هى اليقين بالله أى عليه رقيب يقول الإمام القشيرى فى المراقبة: من حفظ الله مع الأنفاس وراقب الله تعالى فى عموم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله وذلك خلال المحاسبة والمراقبة وهما الجانب النفسى ومنهما يتهيأ للدخول فى الطريق الموصل إلى القرب الخاص، ويحذر الإمام أبو مدين الغوث من الدعاوى ويقول: إن الله لا يعبد بالأمانى ومن تعلق بدعوى الأمانى لا يفارق التوانى والدعوة من رعونة النفس والمدعون معرضون لفتنة البدعة وفتنة النساء ويقول إحذر صحبة المبتدعة إبقاء على دينك واحذر صحبة النساء إبقاء على إيمان قلبك.

والمراقبة: دوام استشعار القلب نظر الحق إليه مع هيبة الجلال وإسقاط الوهم ودوام الحضور مع الحق مع التعظيم والتنزيه فالمراد عندهم المراقبة ذلك الحال من الإستيلاء إذا دام فصار مقاماً فيصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال منكراً تحت الهيبة مستمتعاً بأنوار الجمال فرحاً بالقرب، قال ﷺ:- اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل والمال والولد، ومن كلام يحيى بن معاذ الرازى - رضي الله عنه -: لم يتقدم القوم عند الله بفقر ولا غنى ولكن بالطعم والمعرفة وقيل له: ما عبادة العارف؟ قال: الدنيا دار سير إلى الله تعالى فإن لم يسر بأعمال جوارحه فهو سائر بقلبه فخطوة القدم ذراع وخطوة القلب ألف فرسخ لأن أعمال الجوارح مصدرها القلب ومن راقب الله عز وجل فى خواطره عصم فى جوارحه فإن الأعضاء تابعة للقلب كالملك وجنوده.

وحقيقة المراقبة: التحقيق بمعية الحق عز وجل (وهو معكم أينما كنتم) التحقق الذى يستولى لقهره على الحقيقة ولا يستطيع قلبه الغفلة حتى لو فرض أنه أرادها لم يصل إليها فكيف والمقام لا يتأتى فيه أن يخطر فيه؟

قال العارف ابن الفارض - رضي الله عنه :

لو خطرت لى فى سـواك إرادة

على خاطرى سهواً قضيت بردتى

أى بردته عن مقامه فهو عريق بالحق فى قرب الحق بلا صور منحه الله سبحانه بالقرب الخاص (والسابقون السابقون أولئك المقربون) والقرب العام (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد).

المراقبة فى الله تعالى:

مر ثعلبة بن عبد الرحمن الأنصارى خادم رسول الله ﷺ يوماً بباب رجل من الأنصار فبصر بامرأة الأنصارى وهى تغتسل فكرر النظر إليها ثم تذكر أن الله تعالى يراه وأحس بذنبه فخرج هائماً على وجهه إلى الجبال بين مكة والمدينة وبعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وسلمان الفارسى فى طلبه فلقيهما راع من رعاة المدينة فقال له عمر: هل لك علم بشاب بين هذه الجبال فقال: لعلك تريد الهارب من جهنم قال عمر وما علمك بأنه هارب من جهنم ؟ قال: لأنه إذا كان نصف الليل خرج علينا من الشعب واضعاً يده على أم رأسه يبكى وينادى: يا ليتك قبضت روحى بين الأرواح وجسدى بين الأجساد ولا تجردنى ليوم القضاء، فما أتى به إلى رسول الله - ﷺ - قال: ما الذى غيبك عنى؟ قال: ذنبى يا رسول الله قال: أفلا أعلمك آية تمحو الذنوب والخطايا قال: بلى يا رسول الله قال ﷺ قل: (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) قال: إن ذنبى أعظم من ذلك، قال ﷺ: بل كلام الله أعظم وأمره بالانصراف إلى منزله فانصرف ومرض ثلاثة أيام، وجاء سلمان إلى النبى ﷺ وقال له: إن ثعلبة لمائت ويذهب الرسول إليه ويأخذ رأسه فيضعه فى حجرة فينزل رأسه عن حجر النبى - ﷺ - ويسأل رسول الله لما أنزلت رأسك عن حجرى فيجيب لأنه ملآن من الذنوب ويسأله الرسول ماذا تشتهى «فيقول ثعلبة» مغفرة ربى ونزل جبريل على النبى قائلاً له: يا أخى إن ربك يقرئك

السلام ويقول (لو لقينى عبدى بقراب الأرض خطايا ثم تاب لقيته بقرابها مغفرة) فأعلم الرسول ثعلبة بذلك ففاضت روحه وصلى عليه رسول الله عليه وسلم ودفنه.

٥- الاستقامة

قال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وعن ثوبان مولى النبى - ﷺ - استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير دينكم الصلاة ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن ولن تحصوا أى لن تستطيعوا القيام بها كاملة فاستقيموا على قدر طاقتكم واستطاعتكم.

قال أبو على الشبوى: رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت له: روى عنك يا رسول الله إنك قلت شيبتنى هود فما الذى شيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال لا ولكن قوله تعالى فاستقم كما أمرت، والاستقامة: درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ومن لم يكن مستقيماً فى حالته ضاع سعيه وخاب جهده قال الله تعالى (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) ومن لم يكن مستقيماً فى صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره ولم يبن سلوكه عن صحة.

فمن شروط المريد البادىء الاستقامة فى أحكام البداية لا تشوب معاملاته فتور وأهل الوسط لا يصحب منازلهم وقفة (أى استحسان أعمالهم وطاعتهم) وأهل النهاية وهم العارفون من حقهم الاستقامة فى آداب النهاية ولا تتداخل مواصلتهم حجب.

والاستقامة: لا يطيقها إلا الأكابر من الأولياء لأنها الخروج من المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدى الله تعالى على حقيقة الصدق، وهى على ثلاثة مدارج التقويم من حيث تأيب النفوس ثم الإقامة من حيث تهذب القلوب ثم الاستقامة من حيث تقريب الأسرار.

وقالوا كن صاحب استقامة ولا طالب كرامة فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة والاستقامة فى الأقوال بترك الغيبة وفى الأفعال بنفى البدعة وفى الأعمال بنفى الفترة وفى الأحوال بنفى الحجبة.

والاستقامة: هى التوجه إلى الله تعالى وعدم الالتفات إلى الكونين وحظ الدارين وقالوا: «الاستقامة خير من ألف كرامة» لأنها الثبات على تحمل أعباء الطريق وكوراتها والعبور من ظاهر الشريعة إلى بطنها والثبوت فى طمطام وتموج بحر الحقيقة مع عدم الالتفات إلى السلامة أو العطب والتبرى من طلب القرب أو الوصول.

٦- الصبر

قال الله تعالى: (واصبر وما صبرك إلا بالله) وقال جل شأنه: (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت: «قال رسول الله ﷺ: «إن الصبر عند الصدمة الأولى».

والصبر هو الرضا بحكم الله والتسليم لأمر الله تعالى وأن يفرح بالمصيبة كما يفرح بالنعمة قال الله تعالى: (وبشر الصابرين) وهو ترك الشكوى والرضا والتلذذ بالبلوى واليقين والمشاهدة بالبصيرة والصبر زاد المضطرين والرضا درجة العارفين فمن لا صبر له لا إيمان له والصبر من الإيمان بمنزله الرأس من الجسد.

يقول الإمام الجنيد – رحمه الله –: «المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن وهجران الخلق فى جنب الله تعالى شديد والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد والصبر هو تجرع المرارة من غير تعبيس والصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب وفناء فى البلوى بلا ظهور الشكوى ومقام الصبر مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية بالشكر، وقوله تعالى: (واصبر) أمر بالعبادة وقوله: (وما صبرك إلا بالله) عبودية.

فمن ترق من درجة الصبر لله إلى درجة الصبر بالله قد انتقل من درجة العبادة إلى درجة العبودية فالصبر لله تشعر بالاستقلال بالفعل والصبر بالله تؤذن بالتبرى من الحول والقوة وأنشدوا فى صبر المحبة وكيف يصبرون؟

الصبر يحمد فى المواطن

إلا عليك فإنه لا يحمد

وقال آخر:

سأصبر كى ترضى وأتلف حسرة

وحسبى أن ترضى ويتلفنى صبرى

وقيل: تجرع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً وإن أحياك أحياك عزيزاً، والصبر لله عناء والصبر بالله بقاء والصبر فى الله بلاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وأنشد

بعضهم:

وكيف الصبر عمن حل منى

بمنزلة اليمين من الشمال

إذا لعب الرجال بكل شيء

رأيت الحب يلعب بالرجال

وأنشد آخر:

والصبر عندك فمذموم عواقبه

والصبر فى سائر الأشياء محمود

ومن صبر على الصبر فهو الصابر ومن لم يكن عنده صبر ليس له فى الأمور سلامة، والصبر من أخلاق الرجال والرضا من أخلاق الكرام ومن صبر على البلاء ورضى بالقضاء فقد كمل أمره والزهد فى الدنيا هو الصبر وارتقاب الموت.

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «أول شيء كتبه الله فى اللوح إنى أنا الله لا إله إلا أنا وأن محمداً رسول الله من استسلم لقضائى وصبر على بلائى وشكر نعمائى كتبه صديقاً وبعثه مع الصديقين ومن لم يستسلم لقضائى ويصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى فليتخذ إله غيرى».

قال سيدى عبدالرحيم القنائى – رضي الله عنه –: «سيد الصابرين أيوب عليه السلام».

الصبر على الامتحان: على المريد أن يصبر على ما يقع له فى الطريق من الامتحانات فإذا رمى عليه بالإنكار والزور والبهتان وهو صادق مع الله ظهرت براءته.

قال الله عز وجل على لسان يوسف عليه السلام: (ما أبرأ نفسى) (قال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى)، وإذا رمى المريد الكاذب بالبهتان قال: «أنا منزه عن ذلك وصار يزكى نفسه عند ذلك يقال له: أنت لا تصلح لتقريب الملوك إلى سياسة الدواب وعلف الماشية، وإذا قبل المريد النصيحة أمن من الفضيحة».

قال أبوبكر الوراق – رحمه الله – مفتاح كل بركة الصبر فى موضع سلوكك إلى أن تصح لك الإرادة فإن صحت لك الإرادة فقد ظهرت عليك أوائل البركة.

ومن علامات وجود الطريق الصبر على العزلة وكان الواحد منهم فى مركز الصبر من الثابتين ويكون به من الأمراض العديدة التى لو وضعت على الجبال لذابت ومع ذلك صابر لا يجزع ويسأل الله اللطف وهو هجيرهم.

والصبر على ثلاثة أقسام

صبر على الموجبات وصبر على المحرمات وصبر فى البليات وصبر الأكابر على كتم الأسرار وفقد الركون إلى الآثار وعدم الوقوف مع الأنور وصبرهم على حمل الأذى والثبوت تحت مجارى القضاء وصبرهم على حمل أثقال العباد والصبر مع الله فيما أراد وصبرهم على القيام بأحكام العبودية والثبوت فى مجارى أحكام الربوبية وصبرهم على مكارم الأخلاق والقيام مع الله بشرط الوفاق على الشريعة وصبرهم على جمع الهم عليه والرجوع فى كل أمورهم إليه وصبرهم على الجلوس للخلق والدلالة على الملك الحق.

وكان الشيخ أبوالعباس المرسى - رضي الله عنه - يقول: «والله ما جلست للناس حتى هددت بالسلب وقيل لى لئن لم تجلس لنسلبنك ما وهبناك». قال حكيم: «لقد نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله تعالى». فإذا أتاك ظالم فعليك بالصبر والاحتمال واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان ظلم غيرك لك وظلمك لنفسك والزم الصبر والاحتمال واعفو عنه واصفح تثاب سعة الصدر ونور الرضا وترحمه فيرحم بك فتلك درجة الصديقين الرحماء.

قال رسول الله ﷺ: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منها لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولئن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل إمرىء منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً وينكرهم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكامل ثوابه ثم قرأ قوله تعالى: (وما عند الله باق وليجزى الذين صبروا أجرهم) الآية.

روى جابر - رضي الله عنه -: أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن «الإيمان فقال» الصبر والسماحة وقال أيضاً ﷺ «الصبر كنز من كنوز الجنة» فالصبر يحمل على ترك ما نهيت عليه النفوس والسماحة تحمل على بذل ما أمرت به، قال سهل التسترى - رحمه الله -: الصبر انتظار الفرج من الله تعالى وهو أفضل الخدمة وأعلاها والصبر فى الصبر معناه

أن لا تطالع فيه الفرج.

وقال فى قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) أى استعينوا بالله واصبروا على أمر الله واصبروا على أدب الله سبحانه، ومن لم يصبر على صحبة مولاه ابتلاه الله بصحبة العبيد وفى محن الوجود الإنسانى أسباب شتى للقنوط والقلق والصبر ترياق وشفاء لها وهو أكبر الفضائل للبناة أثراً فى عمارة الدنيا ومعالجة أعبائها والناس أحوج إليه فى كل حالاتهم وإذا كان الفقر أدعاها إلى الضيق فهو أولاها بالصبر.

والصبر درجات، قالوا كان صبر يوسف عليه السلام عن طاعة إمراة العزيز أكمل من صبره على النقم التى أنزلها به إخوانه بإلقائه فى الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه لأنها أمور جرت عليه بغير اختياره، أما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا فيه محاربة النفس مع دواعى هواها من شباب والعزوبة والغربة والجمال فى كل جانب وغياب الرقيب ودعوة المرأة وتوعدها والسلطة بيدها، ذكر الله تعالى الصبر فى القرآن الكريم فى نحو من تسعين موضعا وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

ومن دعاء الصابرين

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وآخره نجاحاً، اللهم أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة ومغفرة، والحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته وذل كل شىء لعزته وخضع كل شىء لملكه واستسلم كل شىء لقدرته والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته وأظهر كل شىء بحكمته وتصاغر كل شىء لكبريائه، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين وأكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة واهدنا إليك ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

٧- الإسلام والإيمان

أول الإسلام أن يشهد العبد أن لا إله إلا الله وتلك شهادة واجبة باللسان والقلب وشهادة قاطعة بألا إله إلا الله ولا معبود سواه وأن يشهد أن محمدا رسول الله ولا تتم شهادة ألا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمداً رسول الله.

والمسلم الحق هو من سلم الناس من لسانه ويده وقلبه، عن عمر - رضي الله عنه - قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد فجلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، تأدباً كهيئة المتعلم، وقال يا محمد أخبرنى عن الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» قال صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه!! قال: «فأخبرنى عن الإيمان؟ قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال صدقت: «فأخبرنى عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرنى عن الساعة؟ : «قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال: «فأخبرنى عن اماراتها»، قال: «إن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان» فانطلق الرجل فلبثت ملياً ثم قال: «يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».. رواه الشيخان.

وليس الكلام هنا عن الإسلام والإيمان ولكن الكلام هنا عن مقام الإسلام ومقام الإيمان كمنزل لسير المريدين فى طريق السلوك يقول الله عز وجل لعبده فى الوقفة: «هو أن تسلم بقلبك وتسلم إلى الوسائط بيدك وأن تكون معى بهمتك ومع سواى بعقلك فتكون مجموع الهم علىّ ولاحظ لغيرى فيك إلا حضورك معه بعقلك فقط فلا تأس على ما فاتك ولا تفرح بما آتاك ولا تغضب مما أساءك ولا تزهو بنجاحك ولا تفتخر بمكانك ولا تتكبر بعلمك ولا تغتر بنعمتى ولا تيأس لبلائى ولا تستقرك المستقرات من دونى، وأن تمضى كما أمرتك دون أن تعقب فيكون شأنك شأن ملائكة العزائم، ولا يصحب كمال الإسلام اعتراض ولا يصحب كمال الإيمان تأويل ولا يصحب الإنسان سوء الأدب ولا يصحب المعرفة همة ولا يصحب الإخلاص فى العمل لذة ولا يصحب العلم الجهل والإسلام هو التسليم بلا اعتراض.

والإيمان خروجك عن الشهوات والعبادات واليقين وخروجك عنك وإذا زاد إيمانك نقلت من حال إلى حال وإذا زاد يقينك نقلت من مقام إلى مقام ولا يكمل إيمان عبد حتى يصير الغيب عنده كالشهادة فى عدم الريب ويسرى منه الإيمان فى نفس العالم كله ولا يصلح التعبير عن حقيقة الإيمان لأنه شىء وقر فى الصدر ولا يمكن التعبير عنه.

قال الإمام السيد محمد راضى أبوالعزائم - رضي الله عنه - عن حلاوة الإيمان: يجب على المريد المخلص أن يتلقى علوم القوم، تلك العقيدة من كتاب الله تعالى وأقوال رسوله ﷺ عن عالم متمكن عارف بالله تعالى ثم يزيد إيمانه بالفكر فيما أمره الله بالفكر فيه مما ورد فى آيات القرآن الكريم بعد معرفة أسرار الكائنات وفهم آياته الدالة على عجيب القدرة وسر تصريفها وغرائب الحكمة وجلى أنوارها حتى يكون آنساً بمشاهدة الحق ظاهراً فى آياته باطناً فى عظموت كمالاته.

وأن يكون هذا العالم قد كوشف بما انطوى فى الكائنات من أسرار نظامها وأحكام ترتيبها وما فيها من الخصوصيات، كل ذلك مشاهد لأهل المراقبة ورياض نزهة لأهل المجاهدة المتشوقون لخفى الأسرار المشتاقون إلى شهود الأنوار.

والإيمان: هو التصديق بما يخبر به المخبر كما أن الاعتصام عن وصول المكروهات والاحتراز منها والمحافظة على الطاعات امتثالاً لأمر الله تعالى ويصون الإرادات بالشهورية عن الاثنينية بتوفية حقوق الربوبية مع اثبات تلك الهوية.

قال الإمام جعفر - رضي الله عنه -: «حدثنى أبى عن آبائه أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام، يا داود إنه ما اعتصم عبد من عبادى بأحد من خلقى دونى عرفت ذلك منه إلا وقطعت عنه أسباب السماء وأسخت الأرض من تحته».

٨- الإحسان

ليس القصد هنا التكلم عن الإحسان عامة ولكن عن مقام الإحسان فقط، فمقام الإحسان: حضور بلا غيبة ويقظة بلا فتور وتوحيد بلا شرك ومشاهدة بلا حجاب وهذه واجبة عند الموحدين والإحسان كما جاء فى الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكون تراه فإنه يراك» وهو يشتمل على مقام المراقبة ثم المشاهدة فمقام المراقبة يوصل إلى المشاهدة القلبية أما المشاهدة البصرية فى الدنيا خاصة بنبينا محمد - ﷺ - لم تعد

لغيره، قال بن عباس - رضى الله عنهما -: «إن الله أعطى الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لسيدنا محمد ﷺ، وكل من دخل مقام الإحسان فقد بلغ رشده واستوى ولو كان صبياً».

قال تعالى: (فلما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين)، أى على إحسانهم ومشاهدتهم لمعبودهم من سياسة الداعى إلى الله أن يؤلف الناس عليه أولاً بالإحسان وطيب الكلام وتخفيف المأمورات فإذا رسخوا فله التحكم فيهم كيف شاء وعليه يحمل أمر بعض العارفين لمريده أن يعتزل زوجته وأولاده وعشيرته إذا خاف عليه الفتنة والاشتغال عن الله بهم لهذا وجبت الهجرة من أرض الفتنة كما وجبت الهجرة من أرض المعصية.

وفى مقام الإحسان: حسن الظن بربك من حيث محبة جماله وجلاله فإن ذلك وصف له لا يتحول ولا تحسن الظن بربك لأجل إحسانه إليك فربما قطع ذلك عنك فتسىء الظن به فليحذر السالك من علة هذا المقام، ومقام الإحسان ثمرته كشف البصيرة وعين البصيرة من نور الإحسان وهو قبل مرتبة الصديقية الكبرى والصديقية قبل مرتبة النبوة وهو مقام الإيقان الذى فيه الخضر عليه السلام والحق أنها ترقيات فى مقام الإحسان إذ ليس بعد مقام الإحسان إلا مقام الصديقية الكبرى ثم مرتبة النبوة التى لا يطمع فيها طامع أو بمعنى آخر عرش الصديقية أرض النبوة.

كما جاء فى حديث الإسلام والإيمان والإحسان، ومقام الإحسان يشمل المعرفة الحقة وهى للغوث فما فوق وهى الخلافة الحقيقية والإنسان الحق كان قبل عرض الأمانة ظلوماً جهولاً.

وهو مقام الكمل والكامل من يهضم نفسه حتى يزكيه ربه أى ينزل فى قلوب عباده تعظيمه ويطلق ألسنتهم بحسن محامده أولاً فالوحى قد انقطع وما بقى إلا الإلهام الصحيح وهو أعز من الكبريت الأحمر، وقالوا فى هذا المقام: من المحال أن ينفتح باب الملكوت والمعارف وفى القلب شهوة كما أن من المحال أن ينفتح باب العلم بالله من حيث المشاهدة وفى القلب لمحة للعالم بأسره الملكى والملكوتى.

وإذا فتح على السالك فتح التعرف بالله تعالى لا يبالى قل العمل أو كثر وصاحب مقام الإحسان له عيون إدراك ثلاثة، عين يدرك بها المعرفة، وعين يدرك فيها أنوار الحقائق، وعين يدرك بها أنوار المعرفة كما أن العيون ثلاثة:

عين البصر وتدرك المحسوسات، وعين البصيرة وتدرك المعنويات، وعين الروح تدرك

الملكوتيات، والحكمة ثمرة مقام الإحسان وهى إصابة الحق فإذا وردت على القلب دلت على مكامن الهوى وجلت أصداء عيون البواطن.

ومقام الإحسان هو مقام التصوف فهو عبودية وتعبد من عقائد الإيمان وأعمال الإسلام لذلك قال مالك - رضي الله عنه -: «ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه وتصوف قد تحقق»، فالمتكلم فى أحكام الإسلام يسمى فقيها والمتكلم فى أحكام الإيمان يسمى أصوليا والمتكلم فى أحكام الإحسان يسمى صوفيا ويسمى علمه تصوفاً فغاية التصوف تفسير مقام الإحسان لأنه دال بأوله على خشية الله وبأوسطه على معاملته وبآخره على معرفته وهو أشرف العلوم.

وفى الحديث ثلاثة منازل هى التى ينزلها المريد ثم يرتحل عنها:

١- منزل الإسلام: وهو محل تطهير الجوارح الظاهرة من الذنوب وتحليتها بطاعة علامة الغيوب فمن بلغ حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل.

٢- منزل الإيمان: وهو محل تطهير القلوب من المساوىء والعيوب وتحليتها بمقامات اليقين لتتهيأ لحمل معرفة رب العالمين ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل.

٣- منزل الإحسان: أى مقامه وهو محل الشهود والعيان ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى.

٩- الرضا والتسليم

قال الله تعالى: (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) وقال رسول الله ﷺ: «بينما أهل الجنة فى مجلس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم وقال يا أهل الجنة سلونى فقالوا نسألك الرضا عنا، قال تعالى: رضاى قد أحلكم دارى وأن لكم كرامتى هذا أوانها فاسألونى قالوا: نسألك الزيادة قال فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر أزمتها زمرد أخضر وياقوت أحمر فجاءوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها فيأمر الله سبحانه وتعالى بأشجار عليها الثمار وتجىء حوار من الحور العين وهن يقلن نحن الناعمات فلا نبؤس ونحن الخالدات فلا نموت أزواج قوم مؤمنين كرام ويأمر الله سبحانه وتعالى بكثبان من مسك أبيض أذفر فتثير عليهم ريحا يقال لها (المثيرة) حتى تنتهى بهم إلى جنة عدن وهى قصبة الجنة فتقول الملائكة يا ربنا قد

جاء القوم فيقول الله مرحباً بالصادقين مرحباً بالطائعين قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله عز وجل فيتمتعون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم بعضاً، ثم يقول أرجعوهم إلى القصور بالتحف، قال: فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضاً، فقال رسول الله ﷺ فذلك قوله تعالى (نزلاً من غفور رحيم) فالراضى بالله تعالى الذى لا يعترض على تقديره ولا يحس بالبلاء ولا يعترض على الحكم والقضاء والرضا باب الله الأعظم فمن أكرم بالرضا فقد لوقى بالترحيب الأوفى وأكرم بالتقريب الأعلى.

والرضا: ترك الإختيار قبل القضاء وفقدان المرارة بعد القضاء وهيجان الحب فى حشو البلاء، قال سيدنا موسى – عليه السلام – إلهى دلنى على عمل إذا عملته رضيت به عنى فقال: «إنك لا تطيق ذلك فخر موسى – عليه السلام – ساجدا متضرعا فأوحى الله تعالى إليه يابن عمران إن رضاى فى رضاك بقضائى، قيل لسيدنا الحسين رضي الله عنه أن أباذر يقول الفقر «أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة» فقال رحم الله تعالى أباذر أما أنا فاقول من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمن غير ما أختاره الله عز وجل له.

وقيل: كتب سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى أبى موسى الأشعرى «أما بعد فإن الخير كله من الرضا فإن استطعت أن ترضى فافعل وإلا فاصبر»، والرضا هو نهاية التوكل وقيل أنه حال نازل بالقلب وليس كسيباً، قال رسول الله – ﷺ «اللهم أنى أسالك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك».

والرضا عن الله تعالى وعن قضاء الله لا عن النفس أى ألقى بنفسك على باب الرضا وانخلع عن عزائمك وإرادتك والراضى هو أقهر الناس لنفسه راضياً بالمقدور وإن لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر ومعنى الرضا عن الله هو السكون تحت مجارى الأقدار، والرضا عن الله هو أتباع أوامره واجتناب نواهيه والرضا بالقضاء بعد وقوعه هو الرضا إما قبل أن يقع فهو مجرد عزم على الرضا ولذلك كان دعاؤه – ﷺ –: «أسالك الرضا بعد القضاء».

قالوا فى الرضا: ترك الإختيار وسكون القلب تحت جريان الحكم وسرور القلب بمر القضاء ونظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد فإنه أختار الأفضل والرضا فى الدنيا تحت مجارى الأحكام يورثه الرضوان فى الآخرة بما جرت به الأقلام يريد بقوله عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) والتسليم توءم الرضا ومن أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه ويقل

غمه من سماع الكلام الذى يغمه فليعتزل الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة.

والتسليم أن تعلم أن ربك أشفق عليك من نفسك والعذاب عذاب الفراق، وقالوا على المريد التسليم الكامل لشيخه والتفانى فى خدمته واتباع أوامره وألا يعزم على أمر حتى يستأذنه فإنه سبب نجاحه.

أما مقام الرضا والتسليم

فهو حقيقة الإيمان وصريحة عندهم فإيمانهم بالقدر خيره وشره وحلوه ومره فقد أستوى عندهم الخير والشر والحلو والمر والعز والذل والمدح، والذم والمنع والعطاء والقبض والبسط وخلافه فوصلوا إلى كمال المعرفة وخنوص اليقين.

والبعد مع المحبة والرضا خير من القرب مع البغض والغضب، قال الشيخ تاج الدين رحمه الله لأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، واختلف أهل الله أيهما أتم مقام المحبة أم مقام الرضا؟! فقيل مقام الرضا أتم فالمحب يرى دوام شهود الحبيب والراضى عن الله راض عنه اشهده أم حجبه والمحب يحب دوام الوصلة والراضى عن الله راض عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو مع ما يريد لنفسه بل إنما هو مع ما يريد الله له والمحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له.

١٠- الوصول

الوصول: هو أن يشغلك تعظيم الله عن تعظيم سواه وأن تنفصل بسرك عما سوى الله ولا ترى تعظيم غيره ولا تسمع إلا منه والاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه.

وهو كذلك مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار كقول حارثة كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً «وكقوله ﷺ اعبد الله كأنك تراه» وقالوا: الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول، إن الله عز وجل إذا أحب عبداً أن يوصله إختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد، الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبداً والمتصل الذى بجهده يتصل وكلما دنا انقطع وهذا حال المريد فى أول أمره حتى اذا وصل لا يخشى عليه القطع.

أمـا المريد فـهـو دائمـاً فى تلقى الواردات بالكشوف وهو فى ترقى دائم، واعلم أن الاتصـال والمواصلة أشـار اليـه الشيـوخ وكل منه وصل إلى صـفـوة اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة فى التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والأختيار وهذه رتبة فى الوصول ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلى طريق الصفات وهو رتبة فى الوصول.

ومنهم من يترقى لمقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيباً فى شـهـوده عن وجـوده وهذا نوع من تجلى الذات لخـواص المقـربين وهذا مـقـام رتبـة فى الوصول، وفوق هذا مقام حق اليقين ويكون فى الدنيا للخواص وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى رتب الوصول فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة إنه فى أول المنزل فأين الوصول؟ هيـهـات لطريق الوصـول لا تنقطع أبدا الآباد فى عـمـر الآخـرة الأبدى فكيف فى العـمـر القصير الدنيوى؟

وأهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظون من التقلب وممنوعين من الخلق أبداً.

وسئل أحدهم: متى الوصول؟ قال: كن به لا بنفسك يكن لك والكرامة من علامات أهل الوصول فإن قلت: وهل من علامة لأهل الوصول أعلم بها أنى قد وصلت إلى مقام الكرامة؟ فأقول عن الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامة.

ومن العلامة تسخير كلبك وهو غضبك فاصرفه وقى الناس شره ومن الكرامة أو من العلامة إمضاء السبيل وقال أحدهم رأيت وأنا نائم بعد أن هممت أن أدخل الجنة وقد ترآى لى قصرى فيها ومنزلتى وعندما هممت أن أدخل سمعت منادى ينادى من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هى لمن أمضى السبيل. فقلت وما هو إمضاء السبيل؟ فقيل لى: «كنت تقول للشىء إنه فى سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك».

وقال أحد العارفين: ما جهلت منذ عرفت ولا قطعت منذ وصلت وما آنست بسواه ولا رافقت أحداً غيره وإنى منقطع إليه بالكلية مقر له بالربوبية فقلت من أين المأكل والمشرب فقال: تكفل بى المحبوب فقلت: أما تخاف من بعد السفر وطول المشقة فأنشد:

من ذا يخوفنى فالعمر أقطعه

إلى الحبيب وقد قدمت إيمانا

الحب أقلقنى والشوق أزعجنى

فلا يخاف محب الله إنسانا

فإن أجوع فذكر الله يشبعنى

ولا أكون بحمد الله عطشانا

وإن ضعفت فوجدى فيه يحملنى

إلى الحجاز ومن أقصى خراسانا

مقامات الواصلين ومراتبهم

أول منه من الله تعالى للمريد أن يحادثه ليعرفه إليه فإذا عرفه العارف وأخلص له العمل والنية وصبر له ورضى بحكمه أشهده فإذا أشهده ثبته وإذا ثبته أعطاه عهد ولايته فإذا أعطاه عهد ولايته اصطفاه فإذا أصطفاه إئتمنه فإذا كشف له عن خزانة أسراره فهو الخليل، والخلة فرع من مقام المحبة وليس بعد مقام الخلة إلا مقام المحبة ينتقل العابد من موقف الإطلاع إلى موقف القطع إلى موقف السكون.

العلم الموصل: هو علم التصوف أو العلم بالله أو العلم الوهبى الذى يكون بعد العلم الكسبى والعمل به وهو ما يعبرون عنه بالعلم اللدنى وعلامات الوصول إلى الله تعالى ثلاثة:

١- الإستماع من الله تعالى.

٢- الفهم عن الله تعالى.

٣- الأخذ عن الله تعالى.

وقال فى الوقفة عند الوصول (سر إلى وأنا دليلك لا تقف مع شىء واعبر كل شىء وجزه، كل عابد جهته إليها يتوجه وكل سائر معه طريقه فإن أحببت العالم دعاك إلى العلم وأن أحببت العارف دعاك إلى المعرفة فجزهم أجمعين، وإن كان لك فى الوصول نيه فلا تبقى منك بقية).

١١- العبودية والحرية

قال الله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

عن أبى سعيد الخدرى - ﷺ - قال، قال رسول الله ﷺ (سبعه يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه ورجل دعته إمراة ذات حسن وجمال فقال: إنى أخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه).

العبودية أتم من العبادة فعبادة ثم عبودية ثم عبودة فالعبادة للعوام من المؤمنين أصحاب المجاهدات والعبودية للخواص أرباب المكابدات والعبودة عدم البخل بروحه فى سبيل الوصلة بربه. والعبادة لمن له علم اليقين والعبودية لمن له عين اليقين والعبودة لمن له حق اليقين وليس شىء أشرف من العبودية ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ولذلك قال الله سبحانه فى وصف النبى - ﷺ - ليلة المعراج وكان أشرف أوقاته فى الدنيا (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام) وقال تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به.

والعبودية صفة للعبد لا تفارقه كذلك إن الربوبية نعت للحق سبحانه لا يزول ولا يصح التعبد لأحد يجزع من أربعة أشياء. الجوع والعرى والفقر والذل.

والعبودية صفة للعبد لا تفارقة كذلك إن الربوبية والتبرى من الحول والمنة والإعتراف بما يعطيك ويوليك من الحول والمنة.

ويقول ابن عطاء الله السكندرى - ﷺ -: العبودية فى أربع خصال: الوفاء بالعهد والحفظ للحدود والرضا بالموجود والصبر عن المفقود والعبودية: عبودية تعريف وعبودية تكليف فعبودية التعريف هى سماء الروح فى جنة المعارف وعبودية التكليف هى أرض النفس لتعبده بالتكليف، وكذلك هى امتثال الأمر واجتناب النهى ورفض الشهوات والمشينات فمن وصل بتطهير قلبه عن الشيطان والنفس والدنيا وبكثرة الذكر إلى العبودية فقد ظفر بخير عميم.

إظهار العبودية بالطاعات: بأن تؤدى كل طاعة فى وقتها، وقيل لأحد المشايخ ما الذى استفدته من الطاعة؟ قال «العلم الزائد والنور النافذ والمحبة».

وما الذى استفدته من المعصية؟ قال «الغم والحزن والخوف والرجاء» وقيل له بما توصى قال: عليكم بالمطهرات الخمس فى الأقوال وهى:

١- سبحان الله

٢- الحمد لله

٣- لا إله إلا الله

٤- الله أكبر

٥- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وعليكم بالمطهرات الخمس فى الأفعال وهى:

١- الصلوات الخمس

٢- التبرى من الحول والقوة وهى لا حول ولا قوة إلا بالله

٣- الصدق وترك اللغو

٤- الأمانة

٥- كثرة الذكر.

قال أبو يزيد - رَحِمَهُ اللهُ - فى العبودية: مجرى طريق العبودية لله تعالى ومنازلها على ثلاثة أوجه عام وخاص وخاص الخاص ويقسمه حسب أوضاع الناس فيه فأما مجرى حفظ عبودية العوام فعلى خمسة أوجه:

١- عبد مذنب غير تائب قد غرته الدنيا فاغتر بها ونسى الآخرة ورضى بحطام الدنيا فهذا عبد لم يهاب من ربه ولا يرى حق ربه ولا يحفظ حرمته وهو عبد سوء لا يخاف من الله ويخون الوعد ولا يخشى الوعيد فإن تاب تاب الله عليه وإن مات على غير توبة فهو فى مشيئة الله وإن شاء عذبه وإن شاء غفر له فهو عدل منه.

٢- عبد مراء بعلمه تحمدة الناس له وحسن الثناء عليه مجتهد فى العبادة والخدمة لله عز وجل يريد بها العز عند الناس والشرف والذكر فى الآفاق قد رضى عن الآخرة بالدنيا ومن الدنيا بثناء الناس فهذا عبد خاسر غافل.

٣- عبد مطيع لله تعالى فى تأدية حقه سامع له مؤد لفرائضه مجتنب للمعاصى كلها

متباعد عن الآثام متابع لأمره عز وجل مقتد بسنة رسول الله ﷺ فهذا عبد ناصح لله ولنفسه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وهو محمود عند الله وعبادته قائمة على حفظ العبودية لله مستقيم عليها.

٤- عبد راغب في أعمال البر مقبل في إقامة التطوع بعد أداء الفرائض كثير النوافل فاعل للخيرات بائع دنياه بآخرته يحمل أيامه في طاعة الله فهذا عبد عامل لله تعالى طالب الثواب ملتمسا رضاه راغبا في ما عند الله تابعاً لأنبيائه ورسله فطوبى له.

٥- عبد مجتهد في ارتياد مرضاة الله تعالى مؤدب لنفسه قائم عليها باستخراج العيوب منها محارب لعدوه صاحب اجتهاد وسهر وبكاء وفزع مخالفاً لنفسه غير متبع هواها زاهداً في إربها يروم كسرها يحملها على المحجة الواضحة مرة تقوم ومرة تسقط وهو دائم المحاربة مع العدوة أي أن ينصره الله عليها فهذا عبد صالح يحفظ حق عبودية معبوده.

أما مجرى عبودية الخاص فعلى وجهين:

١- عبد تائب نادم على إلى ربه ما ضيع من أمر ربه مقبل إليه بقلبه هارب من الخلق إليه.

٢- عبد حزين خائف قد عرف الوعد والوعيد راج راغب راهب كريم على ربه صادق مستقيم شاكراً لآلاء الله راضي بقضائه متنعم به.

أما مجرى عبودية خاص الخاص فهي على وجهين أيضا:

٣- عبد زاهد في كل ما شغله عن ربه عز وجل قد ولى وجهه عن الدنيا وأقبل على الآخرة واستأثر ذكر مولاه على سائر خلقه.

٤- عبد مفوض أمره إلى الله تعالى قانع ساكن قلبه إليه راكن إلى ما عنده منيب إليه يريد الأنس والزلفى لديه لا يريد من الدنيا والآخرة غيره، سئل أحدهم: متى يكون الرجل كاملاً على معنى العبودية؟ فقال إذا لم يكن له إرادة، فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: «تكون إرادته وتمنيه وشهوته داخله في محبة ربه ولا تتقدم له إرادة في شيء حتى يعلم ... الله عز وجل ومحبته فيه».

قال رسول الله ﷺ (أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن) وقال: (ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن).

يقول أبو العباس – رضي الله عنه –: «الصوفى فى اضطرار دائم لأنه دائماً مستشعر اضطراره إلى الله من أجل ذلك فهو مستجاب الدعوة وما من شك فى أن الالتجاء إلى الله عن طريق العبودية سبيل صادق فى الاستجابة».

قال تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء)

وعلامات صحة صحبة العبودية ثلاثة:

١– عدم الإختيار

٢– إستحلاء كل واقع من الأقدار

٣– رؤية كمال المحبوب فى كل شيء وإسلاماً له فى كل شيء وعلامات ثبوت حب الله لعبده ثلاثة:

١– رضاه عنه فى كل ما يقع منه

٢– الإذن بالتحدث عنه

٣– إلقاء السر عليه بحكم حكمته البالغة الدالة عليه.

ومن علامات ابتلاء العبد على وجه العقوبة عدم الصبر عند وجود البلاء والجزع والشكوى إلى الخلق وعلامة إبتلائه على وجه التكفير لخطاياه وجود الصبر الجميل من غير شكوى ولا جزع ولا ضجر ولا ثقل فى إداء الأوامر وعلامة الابتلاء على وجه رفع الدرجات وجود الرضا والموافقة وطمأنينة النفس والسكون تحت جريان الأقدار حتى تنكشف، ومن علامة حب الآخرة الزهد فى الدنيا ومن علامة حب الله الزهد فيما سواه.

قال داود الطائى – رحمه الله –: «لا عبادة لمن لا مروءة له» وقال له أحد أوصينى قال «هم عن الدنيا واجعل أفكارك فيها الموت وفر فى الناس فرارك من السبع وصاحب أهل التقوى إن صحبت فإنه أقل مؤنة وأحسن معونة ولا تدع الجماعة غير طاعن عليهم ولا تارك لهم».

وللعبادة ثلاثة أركان العين والقلب واللسان

فالعين بالعبرة والقلب بالفكرة واللسان بالصدق والتسبيح والذكر، إلزم العبودية وآدابها واعبد الله بشرط العلم ولا ترضى عن نفسك بشىء ولا تطلب بها الوصول إليه فإنه إذا أرادك له أوصلك إليه وأى عمل خلص حتى تطالب به الوصول؟ او كلما زاد علم العبد زاد إفتقاره ومطلبه وعلت همته لأنه فى حال جهله يطلب العلم وحال علمه يطلب جلاء العلوم.

وإذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر عمله وفضله وإذا تعلمه لغير العمل زاده فجوراً وتكبراً واحتقاراً للعامة. وما من عبد يتوجه إلى الله تعالى بعمل وإلا ينادى عليه أين قلب هذا العبد اثبتوا ديوان عمله أين كان قلبه، وخصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما أمر صلاته ولسانه وما صلح لسان أحد إلا صلح سائر عمله.

وسئل أحد العارفين: لماذا يدخل الوسواس فى الصلاة ولا يدخل عند سماع كلام العارف وهو بين يديه؟ قال: لأن المصلى يناجى ربه وهو غافل فلو كان حاضراً بقلبه مع ربه ما دخله الوسواس ولكنه مع العارف حاضراً بجسده وبقلبه والشيطان لا يدخل فى حضرة العارف لحضوره دائماً مع الله تعالى.

وإذا أحب الله عبداً أكثر غمة فى الدنيا وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه وكم من يضمر دعوة العبودية ولا تظهر عليه إلا أوصاف الربوبية.

وكم لله عباداً هم فى أوقات المن والمحن لا تضرهم.

وإذا أهان الله عبداً كشف له حظوظ نفسه وستر عنه عيوب عمله فهو يتقلب فى شهواته حتى يهلك ولا يشعر.

وفى قصة موسى عليه السلام والخضر عليه السلام: إن للحق عباداً أقامهم لبيان الموهبات وعباداً أقامهم للإختبارات وليس لأحد منهم أن يعترض على الآخر ولا يشاركه فيما أقيم فيه وإن كان أحدهما نبياً والآخر ولياً لأن تلك الأفعال كانت من روح الإلهام الولائى وأحكامه وقالوا: ما عبد الله أحداً إلا على الغيب ولكن فتح تلك الشرع الذوقى وفى الذوق الشرعى المحمدى باباً إلى الجمع بأن تشهد كل شىء من معبودك حتى عبوديتك فتراه هو الذى يجرى تلك الأحكام عليك ويقيمها فيك بقيوميته فتصبر عند شهودك هذا

تعبده كأنك تراه لأنك لو رأيته رأيت وجودك القائم بجميع صفاتك. وسمى اللسان المحمدى هذا الشهود مقام الإحسان وليس بعده إلا مقام الإيقان وهو العيان.

قال الشيخ الأستاذ على بن محمد أبو الوفا - رحمه الله - «إذا أعتنى الحق تعالى بعبده أماته عن كل حركة لا تقع فيها له أو لإحد من الخلق وقد وقع لى ذلك فلا لأحد قوة ولا حول ولا فعل ولا أستطيع حتى عصر ليمونة فأنا ميت فى صورة حى».

والتعبد هو مفتاح بابا الخير فمن فاتته الأوراد فى بدايته فقد حرم الواردات فى نهايته فالأعمال أنوار كما أن للعارف أسرار فعليك أيها السالك بالدوام على الأوراد ولو بلغت المراد.

فالعابد فى وهم وتقييد والمقرب فى فرح وتأييد. «وكمال العبودية هو العجز عن تدارك معرفة علل الأشياء بالكلية والعبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله تعالى وصارت همه خارقة للسبع سماوات وصارت الأرض كالخلخال برجله وصار صفة من صفات الحق جل وعلا ولا يعجزه شىء وصار الحق تعالى لرضاه ويسخط بسخطه.

العبد لا يملك وإذا مات لا يخلف إلا مولاه كما كان أولا فإن آخره يرجع إلى أوله لأن أوله فرد ومعه الشهادة فإذا كان آخره كأنه لم ير مع الحق سواه.

وقال الحق تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام].

وقال السر السقطى - رحمه الله -: ما رأيت شيئاً أحبط للأعمال ولا أفسد للقلوب ولا أسرع فى هلاك العبد ولا أدوم للحزن ولا أقرب للمقت ولا ألزم لمحبة الرياء والعجب من قلة معرفة العبد لنفسه ونظره فى عيوب الناس، وقال شعرا:

لا فى النهار ولا فى الليل لى فرح

فما أبالى أطال الليل أم قصرا

لأننى طول ليلى هائم دنف

وبالنهار أقاسى الهم والفكرا

ويقول القطب الخواص - ﷺ -: أنت عبد ما تشتهى وعبد ما تطمع وعبد ما تخاف فإن أنت ارتفعت فوق الشهوة والطمع والخوف فأنت عبد الله.

قال المرسى - رضي الله عنه -: يا بنى أوقات العبد أربعة لا خامس لها، النعمة والبلية، والطاعة، والمعصية، فإذا كنت فى النعمة فمقتض الحق منك الشكر وإذا كنت فى البلية فمقتضى الحق منك الصبر وإذا كنت فى الطاعة فمقتضى الحق منك شهودها منه عليك وإن كنت فى المعصية فمقتضى الحق منك الإستغفار.

ويجب على المريد أن تكون عبادته لوجه الله تعالى مخلصاً فى قوله وعمله دون رياء مكتفياً بعلم الله فيه وإياه وحب الظهور فإنه يقصم الظهور.

قال محمد المغربى - رحمه الله -: «من أدعى العبودية وله مراد باق فهو كذاب إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته فى مرادات سيدة»، وقال: «العارف تضىء له أنوار العلم فينظر بها عجائب الغيب».

دعاء العبودية: إلهى أدعوك إقراراً بذل العبودية وأنت تجيبنى اختياراً بكرم الربوبية يا أكرم من سمح بالنوال وأرحم من جاد بالاتصال أيقظنا من غفلتنا بلطفك وإحسانك تجاوز عن جرائمنا بعفوك وغفرانك وألحقنا بالذين أنعمت عليهم فى دارد رضوانك وارزقنا ما رزقتهم من نعيم قربك ولذة مناجاتك وصدق حبك واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين».

والحرية فى العبودية لله تعالى من رق الشهوات والوقوف مع الأحوال والمقام ورق العادات ومن أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من الهم فعليه بالعبودية الحقة فهى تطهير للسريرة بين العبد وربه والحرية فى العبودية هى غاية الجمال وألا يكون العبد رقاً للمال أو السلطان أو الهوى أو الشهوات ولا حتى خطأ فى الآخرة بل لله كمال العبودية الحقة بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) وأن يتحرر من النفس والبقاء بالحقائق وهو محو مستمر للعبد (كل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسمه فليست بحقيقة).

ومن لم يصلح لخدمة الحق شغله بالدنيا ومن لم يصلح لمعرفته شغله بالآخرة وبرؤية أعماله، ورؤية الأعمال حجاب.

١٢- اليقين

وينقسم اليقين إلى:

١- علم اليقين

٢- عين اليقين

٣- حق اليقين

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة] وقال: {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون}.

عن عبد الله بن مسعود - ﷺ - عن النبى ﷺ أنه قال «لا ترضين أحداً بسخط الله تعالى ولا تحمدن أحداً على فضل الله عز وجل ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله تعالى فإن رزق الله تعالى لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهة كاره وأن تالله تعال بعدله وقسطه جعل الروح والفرج من الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط».

علم اليقين وعين اليقين من العلوم الجليلة والمقامات الرفيعة وكلها هى نفس اليقين فالثلاثة فى اللغة بمعنى واحد واختلاف العبارات بينها إشارة إلى تفاوت القوة فيها .

فعلم اليقين للأولياء وعين اليقين لخواص الأولياء وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحقيقة حق اليقين أختص بها نبينا محمد ﷺ.

اليقين: هو المكاشفة والمكاشفة على ثلاثة أوجه:

مكاشفة بالأخبار ومكاشفة بإظهار القدرة ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان وعلى قدر قربهم من التقوى أدركوا من اليقين وعلم اليقين نسيان الخلق عند هجوم الشدائد وتتابع الفوائد بسواطع الشواهد وحق اليقين الفرق فى الشىء كأنك نفس الشىء وعين اليقين وحق اليقين هما مرتبتان فيض بلا كسب بعد الرياضات وتزكية النفس، والمراد بهما أنهما يحصلان للعبد منحة من الله تفضلاً بعد توفيقه سبحانه وتعالى من مجاهدة نفسه وتزكيتها وبالتالى لا ينالهما كل من ارادهما لأنهما مرتبتان وهبيتان.

والصوفية يقولون أن علم اليقين هو معرفة العبد ظاهر الشريعة.

وعين اليقين هو شهود حكمة حكمها حال إخلاصه فى القيام بها.

أما حق اليقين فهو حقيقة لا حول ولا قوة إلا بالله وأنه لا فعل لأحد سواه، ومن علامات اليقين الثبات ومن علامات الثبات الأمن فى الروع.

علم اليقين للأنبياء، بنبوتهم وعين اليقين للملائكة لأنهم يعاينون الجنة والنار واللوح والقلم والعرش والكرسى فتكون لهم عين اليقين وإن شئت قلت علم اليقين علم الموت والقبور للأحياء لأنهم يعرفون بأن الأموات فى القبور ولكن لا يدرون كيف حالهم فيها وعين اليقين للأموات لأنهم عاينوا القبور إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار.

وعلم اليقين ما كان عن طريق النظر والاستدلال وعين اليقين ما كان عن طريق الكشوف والنوال وحق اليقين ما كان بتحقيق الإنفصال عن تلوث الصلصال بورود رائد الوصال وعين اليقين لا إضراب فيه.

وعين اليقين هو العلم الذى أودعه الله الأسرار والعلم إذا أنفرد عن نعت اليقين كان علماً بشبهة فإذا أنضم إلى اليقين كان علما بلا شبهة وحق اليقين هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين وعين اليقين.

وقال الجنيد – رضي الله عنه –: «هو اليقين ما يتحقق العبد بذلك وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق رضي الله عنه، حين قال لما قال له رسول الله ﷺ (ماذا أبقيت لعيالك) قال «الله ورسوله».

وقال بعضهم: «علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجميع وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد».

سئل أبو اليزيد البسطامى – رضي الله عنه – عن التوحيد فقال: «هو اليقين» قيل له فما اليقين؟ قال: معرفته إن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل لا شريك له فى فعاله فإذا عرفت ربك واستقر فيك فقد وجدته ومعناه إنك ترى أن الله واحد لا شريك له فى فعاله وليس يفعل فعاله أحد.

روى أن كعب الأحبار قال: «لو أن بنى آدم بلغوا من اليقين حبة من عظمة الله عز وجل لمشوا على الماء والريح فسبحان من جعل الإقرار بالعجز عن معرفته إيماناً كما جعل إقرار المنعم عليه بالعجز عن إدراك شكره شكراً.

قال شاعرهم:

تمتـــــعنا يا ناظرى بنظــــــرة

فـأوردتما قلبى أشـر المــــــوارد

أعـــيناى كــفــا عن فــؤادى فــإنه

من البـغى سـعى اثنين من قـتل واحـد

يقول أبو القاسم القشيرى - رحمه الله -: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

فـعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف. وأصحاب المعارف هم أهل الله الذين أضيئت عقولهم وقلوبهم بنور من الله تعالى. ومن أهل اليقين الإمام الأكبر الفرد القطب الغوث الجامع المتخصص بالأسماء والصفات والأنوار والأخلاق وما لا يسع أن يسعه سامع ومنهم من لا درجة له مع الأولياء والأتقياء والعباد والزهاد ومن أهل النظر بالدليل والبرهان ولم يطلع بعد على الكشف والعيان ومنهم أهل الوسائل بالأعمال، والأحوال وأهل التخليط فى الأقوال والأفعال وعلم اليقين يحصل عن قاطع البرهان وعين اليقين يحصل بشهود العيان وحق العيان.

قال سهل - رحمه الله -: «لو كشف الغطاء ما أزددت إلا يقينا فاليقين المكاشفة واليقين هو المشاهدة وكل ما رأته العيون نسب إلى العلم وما علمته القلوب نسب إلى اليقين أى أن اليقين عين القلب أى إبصاره ومشاهدته كأنه عين يبصر بها معناه قول حارثة (كأنى أنظر عرش ربى بارزاً).

إتصلت رؤيته بالغيب وارتفع ما بينه وبين الغيب من الحجب أو كما قال له [فى آخر الحديث قال: «يا حارثه عرفت فالزم مؤمن نور الله قلبه».

وإن شئت قلت علم اليقين علم القيامة وعين ليقين معاينة القيامة وأهوالها وإن شئت قلت علم اليقين علم الجنة والنار، وعين اليقين رؤية الجنة والنار.

واليقين يحتوى أغلب المقامات والأحوال والعلوم مثل الحب والوجد والزهد والتوكل والرهبة والخوف والخشية والطمع والرجاء والرغبة والبقاء والجمع والفرق والعلم بالله والمعرفة والكشف والشهود وأسرار البرزخ والقيامة والمعية والعندية وأسرار الحكمة وهو الإيمان الكامل ويتلقى صاحبه من أسرار الحكمة الإلهية من الكمالات الذاتية والجلالية والجمالية وسر تصريف القدرة وعجائب تجليها وكشف غوامض الحكمة وشود معانيها

وكذلك علم النفس وأنواعها وأمراضها وأدوائها وتصفيتها من الحظوظ والأهواء.

وفى عالم الملكوت يسكن صاحب هذا المقام إلى الله فيحركه الله ويفنى فى الله فيبعثه الله ويغيب عن نفسه بالله فيظهره الله مجملاً بخلقه ويعبد الله خالصاً فيسخر له الله جميع خلقه وفى هذا المقام يكون السماع من الله فرض عين.

أدلة اليقين أربعة:

١- رؤية النعمة

٢- خوف الحجاب

٣- تلقى التعرف

٤- الإعراض عن السوى

وقواعد الهوى أربعة: الحرص - الكبر - الأمل.

الشيخ يصحب كل شيء إلا المعرفة والمعرفة تنافى كل شيء إلا الخوف.

واليقين والتقوى قرينان إن غاب أحدهما غاب الآخر والصبر والرضا قرينان إن غاب أحدهما غاب الآخر والخلوة والعبادة قرينان إن غاب أحدهما غاب الآخر لا معرفة إلا بمنة وفضل من الله تعالى فإذا عرفك أوقفك وإذا أوقفك أشهدك.

فلا مستقر دون عفو ورحمة

سلاماً على تلك الرمائم فى التراب

«اللهم افتح على فتوح العارفين بحكمتك وانشر على رحمتك وذكرنى ما نسيت يا ذا الجلال والإكرام».

واليقين سر بين العبد وربه قال شاعرهم:

بين المحبين سر ليس يفشيه

قول ولا قلم فى الكون يحكيه

سر يمازجه أنس يقابله

نور تحير فى بحر من التيه

واليقين العلم بالحقيقة علماً جازماً بالدليل القطعى والحزم فيه حسم عروق الشك

وانعدام الاحتمال ودليله عقل وشرع وإلهام المطابق لها البالغ مبلغ اليقين وشهود الحق. وعين اليقين إدراك الحقيقة بلا حجاب قال تعالى ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥-٧] ولا يعتبر الإيمان إيمانا إلا إذا كان يقيناً مع الإنقياد.

قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) فما أفادوا من يقينهم لعدم إنقيادهم للرسول ﷺ فلا يزال نور الإيمان يزداد فى قلوب المؤمنين بفضل الحق حتى يعطوا نور الفرقان نور التمييز الذى يميز به الحق فى علمه وعمله وكل ما يرد عليه فى الباطن والظاهر.

وتلك بداية الفيوضات: المنح الخاص ومنح الأسرار ثم يرتقى ذلك الفيض القدسى حتى يستولى عليه الحب القاهر الصادق ولا يزال الفيض القدسى يرقى بالعبد حتى يرزق ثلج اليقين لا خيال ولا وهم طمأنينة القلب وراحة السر حتى كأنه يشاهد الأمر عياناً وهذا هو الذى يدعى باليقين الحضور واليقين الذوقى إشارة إلى الحديث (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً والإسلام ديناً وسيدنا محمد نبياً ورسولاً).

وقد يكون المؤمن مؤمناً ولم يذق حلاوة الإيمان ثم يمن عليه فيزيده إيماناً فيذوق حلاوته يقيناً. واليقين الذوقى هو أن يتربى له ذوق خاص فى قلبه يطابق الدليل وإن لم يطلع على الدليل فيقوم له ذاك مقام حاسة سادسة فيدرك الحق فى الأمور بمجرد عرضها عليه كما يميز اللسان الصحيح مختلف الطعوم لا يحتاج دليلاً على حلوها ومرها.

قال ﷺ: «استفت قلبك وإن أفتوك».

هـ - الأحوال

١- المحبة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤].

عن أبى هريرة - رضي الله عنه -: قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن لم يحب لقاء الله تعالى لم يحب الله تعالى لقاءه».

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبى - ﷺ - عن جبريل - عليه السلام - عن ربه عز وجل قال: (من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وما ترددت فى شىء كترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وما تقرب إلى عبد بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً).

وفى تعريف المحبة قالوا كثيراً وكل منهم وصفها بما يحلو له وبما ذاق من مشربها ومعينها.

فقال الجنيد - رحمه الله -: «المحبة ميل القلوب بمعنى أن يميل إلى الله وإلى ما لله من غير تكلف.

فهى الموافقة أى الطاعة له فيما أمره والانتهاء عما زجر والرضا بما حكم وقدر.

والمحبة فى الله أن لا تبقى لك حظ ولا يكون لمحبتك علة ولا يكون قائماً بعلة والإيثار للمحبوب إيثار ما تحب لمن تحب ومن أحب الله يطيب عيشه لأن المحب يتلذذ بكل ما يرد عليه من المحبوب من مكروه أو محبوب وليس له استقرار ويخاف الإنقطاع فينغص عيشه وقال شاعرهم:

وما في الأرض أشقى من محب

وإن وجد الهوى حلو المذاق

فمحبة العبد لله تعظيم يجل الأسرار فلا يستجيز تعظيم سواه ومحبة الله للعبد أن يبليه به فلا يصلح لغيره أي إنهماك العبد في العبادة إلى حد لا يرى غيره لأن مواضع الحقيقة دهش واستيفاء وحيرة. وأنشدت رابعة العدوية في المحبة:

أحبك حبين حب الهوى

وحباً لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى

فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له

فلست أرى الكون حتى أراكا

فما الحمد في ذا وذاك لي

ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

قال النبي - ﷺ - «حبك الشيء يعم ويصم» فالمحبة هي التي تعمي وتصم تعمي عما سوى المحبوب فلا يشهد سواه مطلوباً.

وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والإخلاص بالإخلاص والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء والنعوت والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عز وجل. وإذا صحت المحبة فعلت ما يرضى ورضيت بما يفعل والحب في الله أول مراتب أهل الله في سلوكهم إليه ثم العشق وهو الحب.

إذا أشتد ثم الطلب وهو مرتبة يتطلع فيها العبد لمرتبة العبد الرباني.

قال سيدي إبراهيم الدسوقي - رضي الله عنه - حينما أخذته سنة من النوم وقد قيل له «أتنام عنا وتتساانا يا إبراهيم فأنشد»:

كلي بكلي مشغول عن البشر

فكيف أنساك يا سمعي ويا بصري

لو أن عيني طوال الدهر ناظرة

دامت وفاتى ولم أشبع من النظر

وقال هذا مما فتح الله به علينا من فتوح الغيب.

قال النبى - ﷺ - «إذا أحب الله عز وجل العبد قال لجبريل عليه السلام يا جبريل إنى أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يضع له القبول فى الأرض وإذا أبغض الله عز وجل عبداً قال: مالك لا أحسبه إلا قال فى البغض مثل ذلك».

قال القشيرى - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «المحبة حالة شريفة شهد الحق سبحانه بها للعبد وأخبر عن محبته للعبد فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه والمحبة على لسان العلماء هى الإرادة، والمحب بمعنى المريد والمحبوب بمعنى المراد.

الحب بساطة بغض الدنيا وثمرته الوصول بالمحبوب والمحبة هى الموافقة فى جميع الأحوال وهى بساط الكرامة والرضا والزهد والتوكل، ومن أحب الله وأحب له فقد تمت ولايته بالحب فالحب فى العشرة:

١- سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

٢- الصديق أبو بكر

٣- الفاروق عمر

٤- الصحابة

٥- التابعين

٦- الأولياء

٧- العلماء الهداة إلى الله تعالى

٨- الشهداء

٩- الصالحين

١٠- التابعين لهم

وحقيقة المحبة معرفته تعالى بالقلب وذكره باللسان مع الحضور والإحترام ورفع الهمة

عن كل ما سواه وقد تعشقت فيه قلوبهم فأبصرهم بنور القلوب إلى جلال عظمته فصارت أرواحهم روحانية وقلوبهم نورانية وعقولهم سماوية تسرح بين صفوف الملائكة الكرام وتشاكل الأمور باليقين والإيمان فعبدوه مبلغ استطاعتهم لا طمعاً فى جنته ولا خوفاً من ناره.

وجاء فى الحديث القدسى (من عرفنى أحبنى ومن أحبنى عشقنى ومن عشقنى طلبنى ومن طلبنى قتلته ومن قتلته لزمتنى ديته ومن لزمتنى ديته فأنا ديته ومن كنت ديته فلا فرق بينى وبينه) قال القطب عبد السلام بن مشيش للشيخ أبو الحسن الشاذلى – رضى الله عنهما – «عليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو كلما أفقت أو تيقظت شربت حتى يكون سكرك وصحوك به وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشرب والكأس بما يبدو لك من نور جمال وقدس كمال جلاله».

قال سمنون – ﷺ – فى «المحبة أول وصل العبد هجرانه لنفسه وأول هجران العبد للحق مواصلة نفسه».

وعلامة محبة الله إيثار طاعته وصفاء الود مع دوام الذكر ومتابعة نبيه – ﷺ – وبغض الدنيا لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة والمقام على الجهل أصل كل معصية والمحب يجتهد فى كتمان حبه وتأبى المحبة إلا الاشتهار وإذا أحببت أخ فى الله فاقلل مخالطته فى الدنيا أى فى أمور الدنيا، وسأل رجل عيسى بن أبو القاسم – رحمه الله – فقال له دلنى على عمل أتقرب به إلى ربى فقال عيسى: «أحبب أولياء الله ليحبوك فإن الله تبارك وتعالى ينظر إلى قلوب أوليائه فى كل يوم وليلة سبعين مرة فلعله ينظر إلى إسمك فى قلب وليه فيغفر لك» وروى حجة الإسلام الإمام الغزالى أن أقسام المحبة خمسة:

١– حب الإنسان نفسه وكماله وبقائه.

٢– حب من أحسن إليه.

٣– حب من كان محسناً إلى الناس وإن لم يكن محسناً إليه.

٤– حب ما هو جميل فى ذاته.

٥– حب لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن.

وهذه الأسباب كلها لا تجتمع ولا يتصور إجتماعها إلا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة الحقيقية إلا الله سبحانه وتعالى.

يقول المحاسبى فى الحب (نور الشوق من نور المحبة وزيادته من حب الوداد وإنما يهيج الشوق فى القلب من نور الوداد فإذا أسرج الله ذلك السراج فى قلب عبد من عباده لم يتوهج فى فجاج القلب إلا أستضاء به وليس يطفىء هذا السراج إلا النظر إلى الأعمال بعين الأمان).

وإنما يعرف المحب بأخلاقه وكثرة الفوائد التى يجريها الله على لسانه وما يوحى إلى قلبه وأوضح شواهد المحبة لله شدة التحول بدوام الفكر وطول السهر بسخاء النفس بالطاعة وشدة المبادرة وخوف الموت.

وقال الغزالى فى كتاب (مكاشفة القلوب) عندما سأله بعض المشايخ عن المحب قال: (قليل الخلطة كثير الخلوة دائم الفكر ظاهر الصمت لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودى ولا يفهم إذا تكلم ولا يحزن إذا أصيب بمصيبة وإذا أصيب بجوع فلا يدرى ويعرى ولا يشعر ويسم ولا يخشى ينظر إلله تعالى فى خلوته ويأنس به ويناجيه ولا ينازع أهل الدنيا فى دنياهم».

ومن صدق المحبة ثلاثة خصال: أن يختار كلام حبيبه على كلام غيره ويختار مجالسة حبيبه على مجالسة غيره ويختار رضا حبيبه على رضاه غيره.

قال سهل – رضي الله عنه –: وعلامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبى – ﷺ – وعلامة حبه – ﷺ – حب آل بيته وأصحابه وحب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وبغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ إلا زاد بلوغه إلى الآخرة».

قال أحد العارفين عندما سئل عن علامة المحبة (لو قطرت منها قطرة فى البحار لصارت سعيراً ولو وضعت منها ذرة على الجبال لصارت هباءً منثوراً فكيف بقلوب ملئت قلقاً وزفيراً وزادها الهيام حرقاً وتحيراً ثم قال منشداً شعراً:

كشف الحبيب لمن دعاه مستوراً
وسقاه كأساً فاغتدى مخموراً
واعتاده حر اللهيب ولم يرد
إلا الحبيب فينال منه حبورا

يا فوز من كان الحبيب نديمه

وغدا إليه من الجميع مشيرا

فإذا رأيت محبة في سكره

خلع العذار رأيته مذعورا

من ذا يطيق الصبر عن محبوبه

حاشا المحب يكون عنه صبورا

سئل العابد معروف الكرخي: «أخبرنا يا أبا محفوظ عن شيء هاجك إلى العبادة والإنقطاع عن الخلق، فسكت فقيل له «ذكرك الموت؟» فقال معروف: «وأى شيء الموت؟ فقيل له «ذكرت القبر والبرزخ؟» فقال «وأى شيء القبر والبرزخ؟» فقيل له «خوف النار ورجاء الجنة؟ «فقال وأى شيء هذا؟» إن ملك هذا كله بيده إن أحببته أنساك كل ذلك وإن كان بينه وبينك معرفة كفاك جميع هذا، «اللهم املأ قلوبنا بحبك لذاتك العلية تفضلاً».

قال رسول الله - ﷺ - «يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله».

فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبى - ﷺ - وقال «يا رسول الله ناس من الناس ليسوا أنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله؟ أنعتهم لنا «فسر النبى - ﷺ - بسؤال الأعرابى وقال «هم أناس من أفناء ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا فى الله وتصافوا يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها فيجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً يفزع الناس ولا يفزعون وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

قال رسلان الدمشقى - رحمه الله -: (ما تحصل المحبة إلا بعد اليقين والمحب الصادق قد خلا قلبه مما سواه وما دام عليه بقية محبة لسواه فهو ناقص المحبة ومن تلذذ بالبلاء فهو موجود ومن تلذذ بالنعمة فهو موجود فإذا أفناهم عنهم ذهب التلذذ بالبلاء والنعمة فالمحب أنفاسه حكمة والمحبوب أنفاسه قدرة والعبادات للمعاوضات والمحبة للقربات (أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت وأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

وطريقتنا كلها محبة لا عمل وفناء لا بقاء إذا دخلت فى العمل كان لك وإذا دخلت فى المحبة كنت له مرائى لعبادته والمحب مراء لمحبته إذا عرفته كانت أنفاسك به وحركاتك له

وإذا جهلت كانت حركاتك لك ويقول أيضاً بيان السبب فى تفاوت الحب لله.

١- أهل اليمين وتسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث.

٢- العارفون بالحقائق هم المقربون.

٣- المتخيلون هم الضالون.

قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: «إنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «فى أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال يا داود أبلغ أهل الأرض إنى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى وأتنسوا بى أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم فإنى خلقت طينة أحبابى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نبى ومحمد صفيى وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى.

عن بعض السلف: أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين أن لى عباداً من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون إلى وأنظر إليهم فإذا حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك قال: «يا رب وما علامتهم» قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لى أقدامهم وافترشوا لى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا إلى بنعمائى فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعينى ما يتحملون من أجلى وبسمعى ما يشتكون من حبى أول ما أعطيتهم ثلاث أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبروا عنى كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السماوات والأرض وما فيهما من موازينهم لأستقللتها لهم، والثالثة أقبل بوجهى عليهم فترى من أقبلت بوجهى عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

أما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمشدد لظاهرة وباطنه والجاعل همومه هماً وحداً والمبغض للدنيا فى قلبه والموحش له من غيره

والمؤنس بلذة المناجاة فى خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد، قيل حب الدنيا رأس كل خطيئة والنظر يزرع فى القلب الشهوة ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً.

وقال فيها سفيان الثورى - رضي الله عنه -: «لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء، وطالب الدنيا مثل شارب البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يهلك»، وقيل إذا صحت المحبة فعلت ما يرضى ورضيت ما يفعل.

ولله در شاعرهم إذ قال:

أتيـــتك شــــائلا فـــارحم عنائى
فـــــعندك يا كــــريم دواء دائى
فـــلا أحـــد ســـواك إليـــه أشكو
فـــيــرحم عــبــرتى ويرى بكائى
فـــيـــا مـــولى الورى جـــد لى بعـــفـــو
ومن بنظرة فـــيـــهـــا شـــفـــائى
رأيت كـــثـــيـــر مـــا أهدى قليـــلاً
لمثلك فـــاقـــتـــصـــرت على الثناء

أفلا ترى كيف قال الله تعالى فى شأن موسى - عليه السلام -(وألقيت عليك محبة منى) وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) فحلاهم بالبهاء ليحبهم العباد فيجبرهم حبهم إلى حب الله والحب فى الله يوجب المحبة من الله لقوله عليه السلام حاكياً عن الله (وجبت محبتى للمتحابين فى).

وهى أربع مراتب: الحب لله.

والحب فى الله.

والحب بالله.

والحب من الله.

فالحب لله إبتداء والحب من الله والحب فى الله واسطة بينهما والحب لله هو أن تؤثره

ولا تؤثر عليه سواه والحب في الله أن تحب فيه من والاه والحب بالله أن يحب العبد من أحبه منقطعاً عن نفسه وهواه والحب من الله هو أن يأخذ من كل شيء فلا تحب إلا إياه وعلامة الحب لله دوام ذكره مع الحضور وعلامة الحب في الله أن تحب من لم يحسن لك بدنيا من أهل الطاعة والحبور.

وعلامة الحب بالله أن يكون باعث الحظ بنور الله مقهور.

وعلامة الحب من الله أن يجذبك إليه فيجعل ما سواه عنك مستور.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي – ﷺ –: من أحب الله وأحب لله فقد تمت ولايته والحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه فإذا بان لك الحب فانظر هل ترى للهوى عليك أثر.

فكذلك فاعتبر حب من حضر من إخوانك الصادقين والمشايخ الصالحين والعلماء المهديين وسائر من حضر ومن غاب عنك أو مات فإن وجدت قلبك لا يتعلق له بمن حضر كما لا يتعلق له بمن غاب أو مات خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله تعالى.

وقال من ثبتت ولايته لا يكره الموت، هذا ميزان أعطاه الله للمريدين ليزنوا به على نفوسهم إذا إدعى فيهم أو ادعوا ولاية الله فإن من شأن النفوس وجود الدعوة والتوثب إلى المراتب العالية من غير أن يسلك السبيل الموصلة إليها ولهذا قال سبحانه (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

وقال رسول الله – ﷺ –ولكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك، كما قال له: كيف أصبحت؟ فقال أصبحت مؤمناً حقاً).

ولا يحب الموت من فيه البقايا ولا من هو مصر على شيء من الخطايا وجعل الله حب الموت شاهد للولي بولايته وعدم تمنيه شاهد للغوى بغوايته والموت ميزان على الأفعال والأحوال كما هو ميزان في دائرة الرتب قال تعالى (وأقيموا الوزن بالقسط) فإذا التبس عليك أمر وأنت فيه لا تدري رضى الله بتركه أو فعله، أو حال أنت بها لا تدري هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حال وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم ينهزم فهي حق وكل حال وعمل هدمها الموت فهي باطل إذ الموت حق والحق يهدم الباطل فيدمغه لقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب) (وقل جاء الحق

وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً).

قال جعفر بن نصير - رضي الله عنه -: «المحب يجتهد فى كتمان حبه وتأبى المحبة إلا اشتهارا وقال العقل ما يبعدك عن مواطن الشبهات وقال: لا يجد لذة المعاملة مع الله مع لذة النفس لأن أهل الحقائق قطعوا العلائق التى تقطعهم عن الحق قبل أن تقطعهم العلائق وقال إن ما بين العبد وبين ربه أن تسكن التقوى قلبه فإذا سكنت قلبه نزلت التقوى عليه بركات العلم وزالت عنه رغبة الدنيا.

قال الجنيد - رحمه الله - لما سئل عن المحبة بعد أن أطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: «عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هويته وصفا شربه من كأس وده فإن تكلم فبالله وإن نطق فمن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكت فمع الله فهو بالله ولله ومع الله» فبكى الشيوخ وقالوا: «ما على هذا مزيد جبرك الله يا تاج العارفين»، وقال: «من أعطى شيئاً من المحبة ولم يعط شيئاً من الخشية فهو مخدوع ومثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب».

وقال أبو سعيد الخراز - رضي الله عنه -: «إن العبد لما صدق فى المحبة وقعت المحبة بينه وبين الله تعالى المفاوضة والتسليم فزالت عن قلبه التهم وسكن إلى حسن اختيار من أحبه ونزل فى حسن تدبيره وذاق طعم الوجود به فامتلأ قلبه فرحاً ونعيماً وسروراً فغلب ذلك ألم المصائب والمكروه والبلوى فصار اسم البلوى عليه مطلقاً فيستخرج منه إذا نزل به أمور كثيرة فتراة يتنعم بعلمه به إذا علم أنه يراه فى البلوى وتارة يعلم أنه ذكره فابتلاه ولم يغفل عنه على عظم قدره أن يولى من أمره ما فيه الصلاح فيراه تارة يشكو إليه شكوى المحب إلى حبيبه وتارة يئن إليه وتارة يطمع أن يراه راضياً عنه وأول منزل يطؤه المحب للترقى منه إلى العلا النفس فإذا اشتغل بسياستها ورياضتها إلى أن انتهى إليه معرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار القلب ثم أنوار الروح ومن قلت همته ضعفت محبته ولا يخلو مخلوق من محبة الحق لعلة وصدق المحبة فوق العلل والمحبون قليلون والمعتقدون كثيرون وما قل ونفع خير مما كثر وألهى وكفى باللهو ضرراً.

وإذا أردت ثبات الإخوان على محبتك القاصى منهم والدانى وأن يثنوا عليك بكل لسان فقابلهم بالحلم والغفران وألسنة المحبة أعجمية على غير أهلها وهى لأهلها لسان عربى مبين وكل حجاب عن الحبيب عذاب (ربنا اكشف عنا العذاب) والبعد مع المحبة

والرضا خير من التقرب مع البغض والغضب.

ومن علامات ثبوت حب الله لعبده ثلاثة هي:

١- رضاه عنه في كل ما يقع منه.

٢- الإذن في التحدث عنه.

٣- إلقاء السر عليه بحكم حكمته البالغة الدالة عليه.

وقال في الوقفة:

(فإذا أحببته كنت هو وما زلت هو فإن لم يكن كنت سمعه ولسانه فأنا المتكلم السميع) وعلى قدر المعرفة يكون الحب وعلى قدر الحب يكون القرب.

وهكذا قال جل ذكره (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية).

فالرضا تعجله العقلاء عن الله عز وجل في الدنيا فخرجوا إلى الرضا بعد المحبة ودخلوا بالمحبة إلى الرضا وقال عز وجل (رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات) وأنا أحبه لما أعطاني وأولاني ولي ذنوب أخاف ألا يحبني بها.

فالمحب لله قد جعل ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه فرضاً على نفسه فهو يفزع من الغفلة ويستغفر منها كذلك جوارحه أوقفها لخدمة من أحبه.

والمحبة صراط الأولياء على حد تعبير الشبلي، صراطهم الدائم حين يصلون إليه تلهج بها ألسنتهم وتمتلئ بها قلوبهم إلى آخر نفس في حياتهم فالناس في العواطف درجات فمنهم سلطان المحبين ومنهم سلطان العاشقين.

فالحب مهما كان جموحه ومهما كان سلطانه فالأوضاع الشرعية التي التزم بها الصوفية للحب لها شروط ولها علامات لن تتأتى أن يكون الحب بدونها فأول الشروط:

١- أداء الفرائض فالحب دون أداء الفرائض زيف وكذب بل إن أداء الفرائض شرط لمن الظن بالله وجاء في الحديث الشريف «لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

٢- الإكثار من النوافل فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى (ومازال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه).

٣- ربط محبة الله سبحانه وتعالى باتباع رسوله ﷺ رباطاً محكماً ﴿قل إن كنتم تحبون الله

فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران] وهو الربط بين المحبة والعمل فالحب شرط للإيمان وجاء في الحديث الشريف «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين».

وثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله الله سبحانه وتعالى عن أوليائه (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم).

وهي أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان بقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة من كان فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار».

وروى عن الشبلي - رضي الله عنه - قال: «ومنهم المجتنب الولهان والمستلب السكران والوارد العطشان اجتنب عن الكدور والأغيار واستلب إلى الحضور والأنوار وسقي بالدنان وأرتهن ممتلأ ريان ولا يسر المحب شيء أكثر من موافقة من يحب».

وقال رجل للشبلي إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال: «إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته».

وعرف الشبلي المحبة فقال: «المحبة هي اتباع أوامر المحبوب وتجنب نواهيه ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص وكتمان الحال مع بذل الجهد في المجاهدة ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلا بفضله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) والمحبة الفراغ للحبيب وترك الإعتراض على الرقيب والمحبة كأس لها وهج إن استغرقت الحواس قتلت وإن سكنت في النفوس أسكرت فهي سكر في الظاهر ومحبة في الباطن والمحبة الكاملة عند الشبلي أن تحبه من قبله وأنشد الشبلي:

لها في طرفها لحظات سحر
تميت بها وتحيي من تريد
وتنسى العالمين بمقلتيها
كأن العالمين لها عبيد
ألاحظها فتعلم ما بقلبي
وألحظها فتعلم ما أريد

وقال: قلوب أهل الحق طائرة إليه بأجنحة المعرفة ومستبشرة إليه بموالاة المحبة.

سئل أبو حمزة البزاز – رحمه الله –: «هل يتفرغ المحب لشيء سوى محبوبه؟» فقال لا لأن المحب في بلاء دائم وسرور منقطع وأوجاع متصلة لا يعرفها إلا من باشرها.

المحب إذا تكلم هلك والعارف إذا تكلم أهلك غيره وإذا سكت أهلك نفسه فنجاة نفسه أولى، والمحبة إذا ظهرت افتضح فيها المحب وإذا كتمت قتلت المحب كمداً.

٢- الوجد

الوجد: هو لهيب يتأجج من الشهود عارض متعلق وقيل هو ما يصادف القلب من الأحوال المغنية له عن الشهود. وقيل هو عجز الروح عن إحتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر حتى لو قطع عضو من أعضائه لا يحس ولا يشعر به.

والوجد إشارات الحق بالترقي إلى مقامات مشاهداته وقال النوري – رحمه الله – «الوجد لهيب ينشأ في الأسرار وينتج من الشوق فتضطرب الجوارح طرباً أو حزناً عند ذلك الوارد وقالوا: «الوجد مقرون بالزوال والمعرفة ثابتة بالله تعالى لا تزول» قال الجنيد منشدا:

الوجد يطرب في الوجد راحته

والوجد عند حضور الحق مفقود

قد كان يطربني وجدي فأفقدني

عن رؤية الوجد ما في الوجد موجود

معنى الوجد هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل وقالوا هو سمع القلوب وبصرها، فمن ضعف وجده يتواجد والتواجد ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره ومن قوى تمكن فسكن.

معنى التواجد: استدعاء الوجد بضرب من الإختيار أي طلب الوجد واكتسابه وليس لصاحبه كمال الوجد لأنه بإختياره يتواجد فهو تكلف وتصنع لذلك يبعد عن التحقيق وأنه مسلم للفقراء المجردين الذين ترصدوا لوجدان هذه المعاني وأصلهم: خبر الرسول – ﷺ – «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا» والحكاية المعروفة لأبي محمد الحريري – رحمه الله – أنه قال: «كنت عند الجنيد وهناك ابن مسروق وغيره وثم قوال فقام ابن مسروق وغيره فتواجدوا والجنيد ساكن فقلت: «يا سيدي مالك في السماع شيء؟ «فقال الجنيد (وترى

الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) ثم قال: وأنت يا أبا محمد مالك فى السماع شىء؟ فقلت «يا سيدى أنا إذا حضرت موضعاً فيه سماع وهناك محتشم (أى مستحياً منه) أمسكت على نفسى وجدى فإذا خلوت أرسلت وجدى فتواجدت فانطلق فى هذه الحكاية (التواجد) ولم ينكر عليه الجنيد.

ويقول الأستاذ على الدقاق – رحمه الله – شارحاً فى هذه الحالة بقوله: «لما راعى أبو محمد أدب الأكابر فى حال السماع حفظ الله عليه وقته ببركات الأدب حتى يقول: «أمسكت على نفسى وجدى فإذا خلوت أرسلت وجدى» فتواجد لأنه لا يمكن إرسال الوجد – إذا شئت – بعد ذهاب الوقت وغلباته ولكنه لما كان صادقاً فى مراعاة حرمة الشيوخ حفظ الله تعالى عليه وقته حتى أرسل وجده عند الخلوة.

والوجد يأتى بالمصادفة لأنه غير مكتسب بل هو من تفضلات الحق تعالى على عبده والمواجيد «جمع وجد» وهى ثمرات الأوراد ووظائف الأعمال الموافقة للعلوم الشرعية فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله لطائفه.

والواردات من حيث الأورد فمن لا ورد له بظاهره لا ورد له فى سرائره وكل وجد فيه من صاحبه شىء فليس بوجد.

وكما أن ما يتكلفه العبد من معاملات ظاهرة يوجب له حلاوة الطاعات فما ينازله العبد من أحكام باطنه يوجب له المواجيد فالحلاوات ثمرات المعاملات والمواجيد نتائج المنازلات، وبعد الوجد يكون الوجود فهو الارتقاء من الوجد والوجد ارتقاء بعد التواجد ولا يكون الوجود الحق إلا بعد خمود البشرية أى غيبة العبد عن إحساسه لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة وفى هذا المعنى انشدوا:

وجـــودى أن أغـــيب عن الوجـــود

بما يبـــدو على من الشـــهـــود

والتواجد يوجب استيعاب العبد والوجد استغراق العبد والوجود يوجب استهلاك العبد فهو كمن شهد البحر ثم غرق فى البحر.

وصاحب الوجود له: صحو ومحو بقاؤه بالحق وحال محوه فناؤه بالحق وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه فإذا غلب عليه الصحو بالحق فيه يصول وبه يقول قال عليه

الصلاة والسلام فيما أخبر عن الحق: (فبى يسمع وبى يبصر).

وقف رجل على حلقة الشبلى فسأله: هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين؟ فقال: نعم نور يشرق قرينا لنيران الاشتياق فتلوح على الهياكل آثارها كما قال ابن المعتز:

وأمطر الكأس ماء من أباريقها
فأنبتت الدر فى أرض من الذهب

وسبح القوم لما أن رأوا عجبا
نورا من الماء فى نار من العنب

قال عبد العال للقطب الكبير السيد البدوى - رضي الله عنه -:

«ما حقيقة الوجد؟» قال: الوجد على أوجه منها يكثر ذكر الحق لا اله إلا هو ومنها أن يقذف نور فى القلب الذاكر من قبل الله تعالى فيقشعر منه جلده فيشتاق إلى المحبوب لا إله إلا هو ويلحقه من قبل الله تعالى الوجد (إن لم يكن عندك وجد فتواجد حتى تتواجد).

والوجد جحود ما لم يكن عن شهود وأرواح الواجدين عطر لطيفة وكلامهم يحيى موات القلوب ويزيد فى العقول.

وأول الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومجانبة السير وإيناس البعيد وصحة الوجد انقطاع البشرية عن التعلق بمعنى الوجد حال وجوده وأهله على مقامين: ناظر ومنظور، فالناظر مخاطب يشاهد الذى وجده والمنظور إليه مغيب قد احتفظه الحق بأول وارد ورد عليه.

٣- الشراب والرى والسكر والصحو

اختلف كثير من أصحاب هذا المضمار فى تعريف هذه الأحوال فمنهم من أعتبر الذوق والشرب والرى حال واحد من قال إنها أحوال متغايرة ونقول «إنها إن اختلفت فى التعريف فهى متقاربة وليس لها حدود فاصلة فالذوق ابتداء والشرب يأتى بعده ثم الرى فمن ذاق شرب ومن شرب ارتوى».

ومنهم من اعتبر السكر حال ومنهم من يعتبر صاحب السكر متقلب بين صحو وسكر وربما يكون صاحب السكر صاحب غيبة وربما يكون صاحب الغيبة أقوى من صاحب السكر إذا كان متساكرا غير مستوف سكره.

وكل هذه الأحوال ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات وبوادر الواردات فصفاء المعاملات يوجب ذوق المعانى ووفاء المنازلات يوجب الشرب ودوام المواصلة يوجب الرى فصاحب الذوق متساكر وصاحب الشرب سكران وصاحب الرى صاح.

ومن قوى حبه ودام شربه لم يورثه الشرب سكراً فهو مدمن ومن أدمن الشراب كان صاحياً بالحق فانياً عن كل حظ لم يتأثر بما ورد عليه ولا يتغير عما هو به، فأنشدوا؟

عجبت لمن يقول ذكرت ربى

فهل أنسى فأذكر ما نسيت؟

شربت الحب كأساً بعد كأس

فما نفذ الشراب ولا رويت

والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد فإذا كوشف العبد بنعت الجمال حصل له السكر وطربت الروح وهام القلب، وأنشدوا:

فصحوك من لفظى هو الوصل كله

وسكرك من لحظى يبيح لك الشربا

فما مل ساقيها وما مل شارب

عقار لحاظ كأسه يسكر اللبا

وأنشد آخر:

سكران سكر هوى وسكر مدامة

فمتى يفيق فتى به سكران

وقال آخر:

لى سكرتان وللندمان واحدة

شىء خصصت به من بينهم وحدى

وقال آخر:

فلسكر القوم دور الكأس

وكان سكرى من المدير

ومن صفا سره لم يتكدر عليه الشراب ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبق بدونه وأنشدوا:

وإنما الكأس رضاع بيننا

فإذا لم نذقها لم نعش

والشرب: هو من كأس المحبة فتسقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر ويكون الشرب بالتدريج بعد التدريب والتهذيب فيسقى على قدره فمنهم من يسقى بغير واسطة والحق يتولى ذلك منه ومنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً فما ظنك بعد الذوق وبعد الشراب وبعد الرى وبعد السكر بالمشروب ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى كما أن السكر أيضا كذلك.

فالمراد بالشراب: هو النور الساطع عن جمال المحبوب والمراد بالكأس اللطف الموصل ذلك إلى افواه القلوب والساقى المتولى بالتخصيص للصالحين من عباده هو الله العالم بمصالح أحبابه فمن كشف له عن ذلك الجمال لحظة أو لحظتين أو لمحة أو لمحتين ثم أرخى عليه الحجاب أو بمعنى كشف له مقدار نفساً أو نفسين فهو الذائق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو المشتاق الشارب حقاً ومن دام عليه ذلك الأمر ودام عليه الشرب حتى أمتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الرى وربما

غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدرى ما يقال وما يقول فذلك هو السكر وقد تدور عليهم الكاسات وتختلف لديهم الحالات ويردون إلى الذكر والطاعات ولا يحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات فذلك وقت صحوهم واتساع نظرهم ومزيد علمهم.

والكأس: معرفة الحق يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافى لمن يشاء من عباده المخصصين من خلقه فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة فالصورة حظ الأبدان والأنفس وتارة يشهدها معنوية والمعنوية حظ القلوب والعقول وتارة يشهدها علمية والعلمية حظ الأوراح والأسرار.

السكر: من أحوال ومقاومات المحبين خاصة فإن عيون الفناء لا تقبله ومنازل العلم لا تبلغه، والسكر ثلاث علامات:

١- الضيق عن الاشتغال بالسوى والتعظيم قائم.

٢- واقتحام لجة الشوق والتمكين دائم.

٣- ومن كانت سكرته بالهوى كان صحوه إلى ضلالة.

والسكران تغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء وإن غلبات وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤله ويلذه وأنشد بعضهم:

قد استوى على قلبى هواك
وما لى فى فؤادى من سواك
فلو قطعتنى فى الحب إرباً
ما حن الفؤاد إلى سواك

فلا تشرب من شراب الدنيا إلا بعد أن تمزجه بشراب الآخرة وذلك لتكون محفوظاً. والصحو الذى هو عقيب السكر وهو أن يميز فيعرف المؤلم من الملذ فيختار المؤلم من موافقة الحق ولا يشهد الألم بل يجد لذة فى الألم وصاحب السكر يقع على المكروه من حيث لا يدرى والصاحى نعته قبل نعت السكر ربما يختار الالام على الملاذ لرؤية ثواب أو مطالعة عوض.

والسكر: عند أهل الحق هو غيبة بوادر قوى وهو يعطى الطرب والإلتذاذ وهو أقوى من الغيبة وأتم منها، والصحو هو رجوع العارف إلى الأحساس بعد غيبته وزوال إحساسه وقالوا: السكر ملعب الصغار والصحو مغنى الرجال والتلوين والسكر يكونان فى حال

الابتداء فإذا حصل البلوغ تبدل التلوين بالتمكين وتبدل السكر بالصحو ومن ثم يكون الولى ولياً حقاً وتكون كراماته صحيحة.

وعليك يا أخى بمحبة الله على التوقير والنزاهة وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو كلما أفقت أو تيقظت شربت وحتى يكون سكرك وصحوك به حتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والكأس بما يبدو لك من جماله وقدس كمال جلاله.

٤- الشوق

قال الله عز وجل ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ سورة العنكبوت آية (٥).

صلى عمار ابن ياسر – رضي الله عنه – صلاة فأوجز فيها فقيل له خففت أبا يقظات!! فقال: وما على من ذلك ولقد دعوت الله بدعوات سمعتها من رسول الله ﷺ فقال: اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيراً لى وتوفنى ما علمت الوفاة خيراً لى. (اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب وأسألك القصد فى الغنى والفقر وأسألك نعيماً لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت وأسألك النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلى لقائك فى غير ضراء مضلة ولا فتنة مضرة اللهم زينا بزينة الإيمان اللهم أجعلنا هداة مهتدين).

والشوق: هو نار الله تضرم فى قلوب أحبابه ولا تهدأ إلا بلقائه والنظر اليه فنار الهيبة تذيب القلوب ونار المحبة تذيب الأرواح ونار الشوق تذيب النفوس هو استغراق فى مبادىء الذكر طرباً ثم الغيبة فى توسط الذكر سكراً ثم الحضور فى أواخر الذكر صحواً فهو بين استغراق بهمة وغيبة بزعجة وحضور بنعشة فثلث الوقت للمشتاق استغراق وثلثه غيبة وثلثه حضور.

والشوق على قسمين:

١- شوق على الغيبة لا يسكن إلا بلقاء الحبيب وهو شوق النفوس.

٢- وشوق الأرواح عن الحضور والمعاينة فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن الطل فذلك مقام التعريف إيماناً حقيقياً وذلك ميدان تنزل أسرار الأزل فإذا أنزلك إلى محل المشاغلة والجهاد فذلك مقام التكليف المقيد بالطل وهو الإسلام.

وقال رسلان الدمشقى – رحمه الله –: «معنى الشوق إلى الله تعالى»:

الشوق الأول: كمال الإدراك بالرؤيا وكمال الوضوح بالمشاهدة وتمام الإشراق بالتجلى فى الآخرة حيث لا يسكن الشوق إلا فى الآخرة عند لقاء الحبيب بحبيبه.

والشوق الثانى لله تعالى: استكمال الوصال بما يرى من الجمال والجلال بدون ألم شوقاً لذيذاً مع توالى الكشف وألطاف النظر إلى غير نهاية.

قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:8].

والشوق الكائن فى المحبين إلى رتب يتوقعونها فى الدنيا غير الشوق الذى يتوقعونه ما بعد الموت والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها علماً ويطلبونها ذوقاً فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقاً وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى كما قال الجليل لرسوله ﷺ: ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾ [الأنعام]، فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة فتمتلىء عينه بالشوق ثم يكاشفه من المنح والعطايا فى الدنياما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى ما بعد الموت وفى الخبر «إشتاقت الجنة ثلاثة: على وعمار وسليمان».

قال الحق على لسان موسى عليه السلام (عجلت إليك ربى لترضى) معناه شوقاً إليك فستر لفظ الشوق بلفظ الرضا ومن علامات الشوق تمنى الموت على بساط العوافى كيوسف عليه السلام لما ألقى فى الجب لم يقل (توفنى) ولما دخل السجن لم يقل (توفنى) ولما دخل عليه أبواه وخر له الأخوة سجداً وتم له الملك والنعم قال (توفنى مسلماً) وفى معناه أنشدوا:

نحن فى أكمل السرور ولكن
ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودى
إنكم غيبه نحن حضور

وقال آخر:

ومن سره العيد الجديد
فقد عدمت به السرورا

كـــــــان الســــــــرور يتـم لـى

ولو كــــان أحــبــــابى حــضــــورا

والشوق: لهيب ينشأ بين أثناء الحشا ويظهر عند الفراق فإذا وقع اللقاء طفىء وإن كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب لم يطرقها الشوق.

وقيل الشوق أعلى أم المحبة؟ قالوا المحبة أعلى لأن الشوق منها يتّولد، والشوق يسكن باللقاء والرؤيا والاشتياق لا يزول باللقاء وأنشدوا:

مــــا يرجع الطرف عنه عند رؤيتـــه

حــتى يعـود إليـه الطرف مـشـتـاقـاً

فالخلق كلهم مقام الشوق وليس لهم مقام الاشتياق ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثراً أو قراراً.

يا من شكا شـوقـه من طول فـرقـتـه

اصـــبـــر لعلك تلقى من تحب غـــدا

وسئل ابن عطا الله - رضي الله عنه - عن الشوق فقال: «هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب والشوق من المحبة كالزهد من التوبة وإذا استقرت التوبة ظهر الزهد وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق».

وقلوب المشتاقين منورة بنور الله تعالى فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض فيعرضهم الله على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إنى أشهدكم أنى إليهم أتشوق والمشتاقون يحسون الموت عند وروده لما قد كشف لهم من روح أحلى من الشهد.

والشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه وإذا تحقق فى الشوق غفل عن كل شىء يشغله عمن يشتاق إليه وأنشدوا:

وأبرح مــــا يكون الشــــوق يومــــاً

إذا دنت الخـــيــــام من الخـــيــــام

قال الحسين الأنصارى - رحمه الله -: «رأيت فى النوم كأن القيامة قد قامت وشخص قائم تحت العرش فيقول الحق سبحانه يا ملائكتى من هذا؟ فقالوا: الله أعلم، فقال: هذا معروف الكرخى سكر من حبى فلا يفيق إلا بلقائى» فمعروف خرج من الدنيا

مشتاقاً إلى الله فأباح الله عز وجل النظر إليه قال تعالى: (فإن أجل الله لآت) هذه تعزية للمشتاقين أي قصد تعليلهم وراحتهم حتى يلقوه مطمئنين وفي معناه أنى أعلم أن اشتياقكم إليّ غالب وأنا أجلت للقائكم أجلاً وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه ومن اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء.

وسئل الجنيد: من أي شيء يكون بكاء المحب إذا لقى المحبوب؟

فقال: إنما يكون ذلك سروراً به ووجداً من شدة الشوق إليه.

وجاء في الخبر أن داود - عليه السلام - خرج يوماً إلى بعض الصحاري منفرداً فأوحى الله تعالى إليه مالي أراك يا داود وحدانياً؟ فقال: «يا إلهي استأثر الشوق إلى لقائك على قلبي فحال بيني وبين صحبة الخلق» فأوحى الله تعالى إليه: ارجع إليهم فإنك إن أتيتني بعبد آبق أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذاً (أي بطلاً عالماً).

قال الأستاذ أبوعلى الدقاق - رحمه الله - بكى شعيب - عليه السلام - حتى عمى فرد الله عز وجل بصره عليه ثم بكى حتى عمى فرد الله عز وجل بصره عليه ثم بكى حتى عمى فأوحى الله تعالى إليه إن كان هذا البكاء لأجل الجنة فقد أبحتها لك وإن كان لأجل النار فقد أجرتك منها فقال: لا بل شوقاً إليك فأوحى الله إليه لأجل ذلك أخدمتك بنبي وكليمي (موسى عليه السلام) عشر سنين.

٥- العشق

العشق: هو هتك الأسرار وكشف الأسرار وهو أشد من حال الشوق والاشتياق وألطف ما في الحب والوجد أن تجد عشقاً مفرطاً وهوى وشوقاً مقلقاً وغراماً وتحولاً وامتناع نوع وعدم لذة بطعام ثم ذهول وذهاب وفناء ثم تجلى وفيض ولذة لا توصف.

وقد ملئت قلوبهم من صفاء محبته سبحانه وأنارة أرواحهم بالشوق إلى رؤيته وفتح لهم أبواب السماء وأباح لقلوبهم الجولان في الملكوت فتغيرت أبدانهم ونحلت أجسامهم وذابت لحومهم وتغيرت ألوانهم لاستيلاء الفكر عليهم في أداء ما كلفهم المحبوب مما افترضه عليهم. فبذلوا المجهود ليتصفوا بالوفاء بالعهود إذ كانوا عاهدوا الله على ذلك وعقدوا في إيمانهم به وبرسوله وبسمعه يقول آمراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، وقال (أوفوا بعهدى ولا تنقضوا الميثاق وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) فهذا سبب

نحول أجسامهم ومن صفات العشاق الذبول والإصفرار فى ألوانهم.

أما الذبول فى أجسامهم فسببه ترك ملاذ الأطعمة الشهية الدسمة وهى متلذة للنفوس لأنهم رأوا أن الحبيب كلفهم القيام بين يديه ومناجاته ليلاً عند تجليه ونوم النائمين ورأوا أن الطعام يخدر الحواس ويدفع إلى النوم فهجروه ليكمل قيامهم بين يدى محبوبهم فحقق الله لهم غايتهم بإعانتهم على ذلك.

أما ذبول أرواحهم فإن لهم نعيماً بالمعارف والعلوم لأن لهم نسبة إلى أرواح الملأ الأعلى وأرواح الملأ الأعلى ذابلة ذلة وحباً.

وفى الخبر «أن إسرافيل عليه السلام» هو من أرفع الأرواح العلوية يتضاءل فى نفسه كل يوم لإستيلاء عظمة الله تعالى على قلبه سبعين مرة حتى يصير كالنقطة المتوهمة، ومن صفات العشاق الغرام وهو الاستهلاك والفناء فى المحبوب بملازمة الذلة والكمد لملازمة شهود المحبوب.

وقال سيدى محيى الدين بن عربى بعد أن ذكر للمحبين أكثر من عشرين صفة للعشاق لقد أعطانا الله منها الحظ الأوفر إلا أنه سبحانه وتعالى قوانا على أشواق الحب وكمد العشق والله إنى لأجد من الحب ما لو وضع فى ظنى على السماء لانفطرت وعلى النجوم لانكدرت وعلى الجبال لسيرت هذا ذوقى لها ولكن قوانى الحق فيها قوة من فضله ومنحه على قدر التجلى والتجلى على قدر المعرفة وأنشد شاعرهم:

لو لاح نورى ذابت الأقمار
ولبدء نورى تنتهى الأنوار

وصبابتى غلبت على حر الجوى
وبدا الجميل وغابت الأغيار

لو قطرة مما شربت وضعتها
فوق القلوب لأسلم الكفار

أوجذوة من نار وجد حشاشتى
فوق الجبال لأحرقتها النار

قال الإمام الرفاعي – رضي الله عنه –: (العشق شبكة الحق يصيد بها قلوب أهل الصفا ولا حير فيمن لا يألف ولا يؤلف ويجلب العشق ثلاثة أشياء قلة الطعام وقلة النوم وقلة الكلام).

فقلة الطعام تورث الفطنة وقلة النوم تورث اليقظة وقلة الكلام تورث الحكمة.

وقيل العشق هتك الأستار وكشف الأسرار والوجد عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر حتى لو قطع عضو من أعضائه لا يحس ولا يشعر.

ويقول النورى – رضي الله عنه –: «أنا أعشق الله والله يعشقنى والعاشق ممنوع والمحب يتمتع بحبه» وقيل شيخ العاشقين الشمع لصفاء لونه وجريان دمعه وإحتراق بدنه وأنشد عاشق:

يا روح ذوبى فى الحبيب صبابه
بالموت تحيا السادة الأخيار
يا روح غاب الكون فى غيب الفنا
وبدا الحبيب وزالت الأستار
فأنا الجمال أنا الجميل أنا الصفا
والخمر والأقداح والخمار
وأنا النديم أنا الغنان وحانها
والعود والأنغام والأوتار

والعاشق المحب فى أشواق دائمة إلى ربه فهو متبرم بالبقاء فى هذا الهيكل الذى يحجبه عن النقلة الكبرى إلى الدار الآخرة حيث اللقاء والبقاء لهذا تنغصت عليه حياته الدنيا شوقاً إلى ذلك اللقاء ففى صافى العيش كدرة وطيب الحياة متبرم بها فى نفس الأمر لا فى نفسه وقد ذهب عنه كل مخلوق وهابه كل ناظر ذو أنس بالله، دائماً وقور خجول فى قلبه ذكر وتعظيم، مرآة للحق حليم صابر محتمل، فارغ من الدنيا والآخرة، لا يأسف على شيء إذا لا يرى غير الله، تبكى عينه ويضحك قلبه، لا يشتغل عن الحق طرفة عين، عرف ربه بربه، مهدى فى أحواله، مستوحش من الخلق بحبه، جامع للتجليات، مضمون به مستور بوله، محبوس فى المواقف، رضى عن الله ورضى الله عنه هو الفوز العظيم.

٦- الخوف

حال ومقام: الخوف قسمان:

١- خوف جلاله وعظمته وهو خوف الأنبياء وكمل الأولياء.

٢- وخوف الجزاء من الله وهو لعامة الناس.

أو قل هو الحذر من المكروه فى الإستقبال فخوف العامة من العقوبة وخوف المريدين من المكروه وخوف الخاصة من الهيبة والجلال لعظمة الله تعالى، قال الله تعالى (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً).

قال أبو هريرة - رضي الله عنه -:قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالى حتى يلج اللبن فى الضرع ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى عبد أبداً».

وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً» والخوف من الله تعالى أن تخاف أن يعاقبك الله فى الدنيا أو فى الآخرة.

وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه فقال تعالى: (وخافون إن كنتم مؤمنين)

وقال تعالى (وإياى فارهبون) ومدح المؤمنين بالخوف فقال عز من قائل (يخافون ربهم من فوقهم).

ويقول الإمام القشيرى - رضي الله عنه - يقول الأستاذ على الدقاق: الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة.

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه.

قال الحق عز وجل (وخافون إن كنتم مؤمنين).

والخشية من شروط العلم قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) والهيبة من شروط المعرفة قال عز وجل (ويحذركم الله نفسه).

وقال الحسين بن منصور رحمه الله: «من خاف من شيء غير الله عز وجل أو رجاه أغلق الله عليه أبواب كل شيء وسلط عليه المخافة وحجبه بسبعين حجاباً أيسرها الشك وأن مما أوجب شدة خوفهم تفكيرهم فى العواقب وخشية تغيير أحوالهم.

قال الله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤].

وسئل الشبلى رحمة الله: لماذا تصفر الشمس عند الغروب؟ فقال: «لانها عزلت عن مكان التمام فاصفرت لخوف المقام كذلك المؤمن إذا قرب خروجه من الدنيا إصفر لونه لأنه يخاف المقام فإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة كذلك المؤمن إذا بعث من قبره خرج ووجهه يشرق».

ويروى عن الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى – أنه قال: «سألت ربى عز وجل أن يفتح على باباً من الخوف ففتح فخفت على عقلى فقلت: «يا رب أعطنى على قدر ما أطيق» فسكن ذلك عن قلبى».

قال الحسن البصرى – رضي الله عنه –: «الخوف ليس من كثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة بالله وهذا خوف الأنبياء فالأولياء فالصالحون فالعلماء.

قال النبى ﷺ: «شيبتنى هود وأخواتها إذا الشمس كورت وعم يتساءلون».

وقال أحد الصالحين رضي الله عنه: «أنفع الخوف ما يحجزك عن المعاصى وأطال منك الحزن على ما فاتك وألزمك الفكرة فى بقية عمرك» وقال: «إذا دخل الخوف قلباً أحرق مواضع الشهوات وأنفع الرجاء ما سهل عليك العمل» والخوف قرينه الحزن وحال الحزن التأسف على ما فات من الكمالات وأسبابه، فحزن العامة من التفريط فيما يجب للمريدين من التفرقة حرصاً على الجمعية ولا حزن لمن ورائهما من أهل المعرفة فى معية من الحق.

قال الله عز وجل: (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن).

وقال أبو سعيد الخدرى – رضي الله عنه – سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب العبد المؤمن من وصب أو نصب أو حزن أو ألم يهمه إلا كفر الله تعالى عنه من سيئات».

ومن علامات الخوف والحزن الدائم ومن خاف من شيء هرب منه ومن خاف الله عز وجل هرب إليه والناس على الطريق المستقيم ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق وزينة العبادة الخوف وعلامة الخوف قصر الأمل وخوف العقاب والمراقبة تورث الخوف وتسكنه فى القلب فإذا سكن الخوف ودام أورث الحزن.

والحزن ملك فإذا سكن فى موضع لم يرض أن يساكنه أحد وقيل إن لم يكن فى القلب حزن خرب كما أن الدار إن لم يكن فيها ساكن خربت.

والحزن أعلى حالاً من الخوف وأشد منه حيث يفقد فيه الرجاء من شدة الحزن فيه فالخائف راجى والمحزون مغموم مهموم حتى ولو فتح له باباً من الرجاء.

ووجوه الحزن كثيرة فقد يكون الحزن على شيء فقد أو أمر فات فى الماضى وحزن على ذنب وقع وقد يتذكره فى نفسه مخافة الحق فيحزن له وحزن يشترك فيه الخوف وهو مخافة فوت أمر سوف يأتى فى المستقبل فيؤخره عن قرارة وقد يكون هذا الخوف من انعكاس الحال مقروناً بما قارف من قبيح الأعمال فهو محزن، وأنشدوا:

أحسنت ظنك بالأيام إذا أحسنت

ولم تخف سوء ما يأتى من القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها

وعند صفو الليالى يحدث الكدر

وجاء فى التوراة «إذا أحب الله عبدا جعل فى قلبه نائحة وإذا أبغض جعل فى قلبه مزماراً».

فبكاء الحزن يعمى وبكاء الشوق يغشى البصر ولا يعمى قال الله تعالى فى أبو يوسف عليهما السلام (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم).

وروى أن رسول الله ﷺ كان متواصل الأحزان دائم الفكر ولم يكن دائم الخوف ولا ملازمه.

الحزن: حال يقبض القلب من التفرق فى أودية الغفلة وهو من أوصاف أهل السلوك وحال الصالحين والأولياء وكذلك الخوف وهما مجالاً لإرسال الدمع من الخشية وطول البكاء ولو أن محزوناً بكى فى أمة لرحم الله تلك الأمة ببكائه هكذا قال سفيان بن عيينة رحمه الله، وسئل بعضهم بما يستدل على حزن الرجل؟ فأجاب: بكثرة أنينه ولا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة.

قال الحسن البصرى – رحمه الله –: «يخرج من النار رجل بعد ألف عام ياليتنى كنت ذلك الرجل» وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة وروى أنه ما ضحك أربعين سنة.

والخوف يوصلك إلى الله تعالى وهو ألا تأمن من وقوع البطش بك مع الأنفاس ومن أحب أن يرى خوف الله فى قلبه ويكاشف بأحوال الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل

إلا فى سنة أو فريضة وما حرم من حرم عن الوصول ومشاهدة الملكوت إلا بشيئين سوء الطعمة وأذى الخلق.

والخوف يوجب الإشفاق المقرون بالترحم على النفس وعلى الخلق فإشفاق العوام على أنفسهم من الميل أو الوقوع فى المخالفات وخوف إشفاق المريدين السالكين من رؤية الطاعات وعلى أوقاتهم من التفرقة وليس لأهل الخصوص إشفاق لأنهم دخلوا فى باب الطمأنينة والإخبات حيث السكون إلى الله تعالى فلا التفات عندهم إلى المخالفات ولا تردد بين الأقبال والإدبار مع سلامة أنفسهم والعمى عن نقص أحوالهم استوى عندهم المدح والذم وبلغوا من الكمال فى مقامهم بانقطاعهم عن أنفسهم فصارت أنفسهم ملكاً لهم وطوعاً لأرادتهم.

وشدة الخوف أوجبت على الصالحين الخشوع والسكينة والطمأنينة فأصبحت أنفسهم فى صمود دائم تحت إرادة الحق وتصرفات الأقدار متضرعة ساجدة لا حول لها ولا قوة إلا بمشيئته وتحت أوامر الله تعالى مراعاة لمواقع الأمر والنهى والرهبة من الوعد والوعيد حفظاً لحرمة وحشمة من الملك الشهيد فأصبحت أنفسهم من الخوف والرهبة والخشوع فى رهبانية من الحق صديقة فى الطلب والوقوف بين يديه (لا يرتد إليهم طرفهم هواء) أمواتاً يقلبهم بين يديه كما يشاء وصدق الشاعر:

ستسمع إذا ناديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادى

أى أفناهم خوف الجلال والعظمة حتى كأنهم لا حياة لهم ولا إرادة «اللهم إنا نسألك أن تشوق إلى التوبة والخوف منك سرائر قلوبنا حتى لا ترانا فى غير ما أمرتنا ولا تفقدنا حيث أمرتنا».

ويقول خير النساج - ﷺ -: «الخوف سوط الله يقوم به أنفساً قد تعودت سوء الأدب» والصبر من أخلاق الرجال والرضا من أخلاق الكرام والخوف هو المطية التى يصل بها العبد إلى الدرجات العلى يرى صاحبه التقصير والعجز والضعف.

والخوف جعل العارف بالله تعالى يدافع عيشه يوماً بيوم فدائماً استشعاره الموت وذكره مما كره إليه كل فان وحبب إليه كل باق (فالله خير وأبقى) وقام أحدهم يدعو:

«اللهم أنك أمرتنى فلم أأتمر وزجرتنى فلم أزدجر اللهم لا قوى فانتصر ولا برىء

فأعتذر ولا مستكبر بل مستغفر وأتوب إليك لا اله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

وقال عنهم قائلهم: «هم القوم إذا أقلقهم الخوف ناجوا وإذا أزعجهم الوجد صاحوا وإذا أدهشهم الحب ساحوا وإذا غلبهم الوجد باحوا».

ومن أنواع الخوف: «خوف الذنوب» وهو لا يمنع من الرجاء فيه، وهو خوف العامة على أجسادهم من النار وخوف الخاصة (المريدين) على خلعهم التى كساهم الله أن تدنس بالمخالفة لأن العامة تنفذ لم بصائرهم إلى شهود خلع الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة وعلموا أن الله تواعد أهل المعصية.

أما أهل الخصوصية فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به فاكساهم من خلع القبول بما من عليهم فعملوا على صيانتهم ليقدموا عليه بها لم تتدنس فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملابسهم خوف أن تتدنس بأوساخها.

وقال سيدى أبو العباس المرسى - ﷺ - «فى الخوف والرجاء: أن البسط مذلة أقدام الرجال فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة خوفهم».

قال بعضهم فتح باب من البسط فانبسطت فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة والبسط حال من الأحوال قد يؤدى إلى سوء الأدب ومزلقة اللسان وعدم الإحتشام فى القول فاحذره فيخشى على السالك منه والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأن موطن العبد إذ هو فى أسر قبضة الله وإحاطة الحق محيطة به.

قال الإمام على كرم الله وجهه: (لا يخافن أحداً إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه ولا يستحى من لا يعلم أن يتعلم ولا من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم وأبردها على الكبد فإنه لا يواجدك إلا أعطاء وإذا قيل لك أتخاف الله تعالى؟ فقل: «نعم» ولكن بقدر ما خلقه فى من الخوف وكذلك القول فى أتحب الله تعالى فقل: «نعم» ولكن بقدر ما خلقه الله فى (وذلك عند الامتحان خوف الرسوب) فتزل القدم فمن سلك ذلك لا يرسب فى الإمتحان لتعويله على الله تعالى لا على قوة نفسه هو وقد قالوا: «كل مدع ممتحن» وهذا ميزاته والله أعلم.

والخوف من الله تعالى يوصلك إلى الله وهو ألا تأمن وقوع البطش بك فى أى وقت، والكبر والعجب فى نفسك يقطعك عن الله عز وجل، واحتقار الناس فى نفسك مرض عظيم لا يداوى.

قال سيدى أحمد الرفاعى - ﷺ -: «من أشتد خوفه من الله تعالى اليوم كثر أمنه غداً ومن عرف عدل الله تبارك وتعالى خاف عذاب الله ومن عرف كفالة الله توكل عليه ومن تحقق بالحب لله ولم يختر غير الله ومن عرف الله وخاف الله قطع رجاه من غير الله تعالى» ثم قوله تعالى: (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ولا تعب الناس بعيوبهم فيظهر الله لك عيوباً وإن لم يكن لك عيوب، عليك بتقوى الله تعالى وطاعته ولزوم السنة والجماعة ورعاية النفس وتصفية الخلق والتجاوز عن هفوات الإخوان وستر عيوبهم وإظهار محاسنهم.

والخوف والرجاء يمنعان العبد من سوء الأدب والذكر الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب وإذا تجلى على السرائر ذهب الخوف والرجاء وأفقر الفقراء من ستر الحق حقيقة حقة منه والكلمة التى بها كملت المحاسن هى الإستقامة.

والخائف يكون بحكم وقته فوقت تخافه المخلوقات ووقت تأمنه فالذى تخافه المخلوقات هو الذى غلب عليه الخوف فصار خوفاً كله فيخافه كل شىء كما قيل من خاف الله خافه كل شىء والذى أمنته المخاوف هو الذى طرقت المخاوف أوكاره لم تؤثر فيه لغيبته عنها بخوف الله تعالى ومن غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه.

وخوف الزاهدين من بقايا التطلع إلى الدنيا.

ولا يكون الخائف فى حجاب لأنه مراقب لله تعالى ويخاف الله خوف إجلال ويخشى على نفسه من العقوبة ومن خاف غير الله فهو المحجوب لأنه خاف غير الله تعالى ومن رجا الله أمنه الله من الخوف.

وقيل لما ظهر على أبليس ما ظهر لجبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان زمناً طويلاً فأوحى الله تعالى إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: «يا ربنا لا نأمن مكرك». فقال الله تعالى: «هكذا كونا لا تأمنا مكرى».

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة فلقى آدم عليه السلام فيها ما لقى!! ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقى ما لقى!! ولا تغتر بكثرة العلم فإن «بلعام» كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقى «بلعام» من علماء بنى إسرائيل دعا على موسى عليه السلام فانقلب دعائه عليه واندلع لسانه على صدره وقد قال الله تعالى: (وتل عليهم نبأ الذى أتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان

فكان من الغاوين) ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر قدراً من المصطفى ﷺ ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه.

لماذا الخوف من بطش الله؟

الخوف من الله هو مطية السالكين ومعراج السائرين ومنازل المقربين فخوفهم خوف أدب من بطش الله تعالى (إن بطش ربك لشديد) ومكر الله لا أمن معه فيجب إتقاء بطشه بعدم المعصية إذ أن ذوى الألباب المستنيرة لا يتعرضون وهم ضعفاء إلى الرب العزيز القادر وهو يقول:(وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) (والله عزيز ذو انتقام).

وأساس العبادة الورع وأساس الورع التقوى وأساس التقوى فى محاسبة النفس وأساس المحاسبة الخوف والخوف والرجاء يرجعان إلى العلم بالوعد والوعيد وفهم الوعد والوعيد يرجع إلى تذكر الجزاء يرجع إلى الفكر والاعتبار.

٧- الرجاء

قال الله تعالى ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ عن أبى الدرداء – رضي الله عنه – عن النبى ﷺ عن جبريل عليه السلام قال: (قال ربكم عز وجل: عبدى ما عبدتنى ورجوتنى ولم تشرك بى شيئاً غفرت لك على ما كان منك ولو استقبلتنى بملء الأرض خطايا وذنوبا استقبلتك بمثلها مغفرة فأغفر لك ولا أبالى) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى يوم القيامة «أخرجوا» من النار من كان فى قلبه مثقال حبة شعير من إيمان» ثم قال: «أخرجوا من النار من كان فى قلبه حبة خردل من إيمان» ثم يقول «وجلالى لا أجعل من آمن بى ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بى»).

وجاء فى الخبر (أن رسول الله ﷺ دخل على أصحابه من باب بنى شيبة فرآهم يضحكون فقال أتضحكون؟ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً).

ثم رجع القهقرى وقال: نزل على جبريل عليه السلام وأتى بقوله تعالى (نبىء عبادى إنى أنا الغفور الرحيم).

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله تعالى ليضحك من يأس العباد وقنوطهم وقرب الرحمة منهم فقلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله أو يضحك ربنا عز وجل؟ فقال: والذى نفسى بيده أنه ليضحك فقلت: لا يعدمنا خيراً إذا

ضحك) راعلم أن الضحك فى وصفه من صفات فعله وهو إظهار فضله كما يقال: ضحكت الأرض بالنبات أى أخرجته منها وضحكه من قنوط عباده إظهار تحقيق فضله الذى هو ضعف انتظارهم له أى عدم رجائهم لفضله.

والرجاء: تعلق القلب بشيء محبوب سيحصل فى المستقبل أو خوف محبوب سوف يتم فى المستقبل هو يؤله وبالرجاء تعايش الناس وطال بهم الأمل حتى ظنوا أنهم يخلدون فى الحياة الدنيا فعمروها وأطالوا فيها البنيان ونسوا الدار الآخرة والموت مصيرهم وهذا لقصر نظرهم (نسوا الله فأنساهم أنفسهم).

والرجاء استبشار بوجود فضل الله تعالى على عباده ورحمته.

قال يحيى بن معاذ فى الوقفة (يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الأعمال لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص وكيف أحفظها وأنا بالآفة معروف! وأجدنى بالذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف) فعول الأمر على فضل الله ولم يعلقها على الأعمال مع الإخلاص فيها.

وقال: يا إلهى أحلى العطايا فى قلبى رجاءك وأعذب الكلام على لسانى ثناؤك وأحب الساعات إلى ساعة يكون فيها لقاؤك (أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه) وارتاحت قلوب أهل الرجاء لرؤية كرمه إذا أحاطهم بإحسانه وألهمهم الشكر راجين لتمام النعمة من الله تعالى عليهم فى الدنيا وتمام عفوه فى الآخرة.

والفرق بين الرجاء وبين التمنى أن التمنى: يورث صاحبه الاتكال والكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد ويعكسه صاحب الرجاء فالرجاء محمود والتمنى مذموم.

والرجاء ثلاثة:

١- عمل حسن يرجو قبوله.

٢- وآخر سيئاً تاب عنه ويرجو المغفرة.

٣- وعمل غير صالح يتمادى صاحبه فى الذنوب ويقول أرجو المغفرة فهيهات أنا له ذلك.

ويحكى عن إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - أنه قال: كنت أنتظر مدة من الزمن أن يخلو المطاف لى فكانت ليلة ظلماء فيها مطر شديد فخلا المطاف فدخلت الطواف وكنت أقول فيه اللهم اعصمنى اللهم اعصمنى فسمعت هاتفاً يقول لى: يا ابن أدهم أنت تسألنى العصمة وكل الناس يسألونى العصمة: فإذا عصمتكم، فمن أرحم؟ !!

قيل للحسن البصرى رضي الله عنه: يا أبا سعيد كيف تصنع بمجالسة قوم يحدثونا عن الرجاء حتى تكاد قلوبنا تطير فقال: «إنك والله تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك زمناً خيراً لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك.

وحكى: أن رجلاً شريباً جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلام له أربعة دراهم وأمره أن يشترى بها شيئاً من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسال لفقير شيئاً ويقول: من دفع له أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات: قال: فدفع الغلام الدراهم فقال منصور: ما الذى تريد أن أدعو لك به؟ فقال لى سيداً أريد أن أتخلص منه؟ فدعا لى بذلك وقال: وما الأخرى؟ فقال أن يتوب الله على سيدى فدعا. قال: وما الأخرى؟ فقال أن يخلف الله على دراهمى فدعا لى بذلك ثم قال: وما الأخرى؟ فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصوربذلك فرجع الغلام إلى سيده فقال له: لم أبطأت؟ فقص عليه القصة فقال له: وبم دعا؟ فقال: سألت لنفسى العتق فقال: «أذهب فأنت حر» وما الثانى؟ فقال: أن يخلف على الدراهم «فقال: لك أربعة ألف درهم» فقال: وما الثالث؟ أن يتوب الله عليك فقال: تبت إلى الله تعالى فقال: وما الرابع؟ فقال: أن يغفر الله لك ولى وللقوم وللمذكر فقال: هذا الواحد وليس إلى فلما بات رأى فى المنام كأن قائلاً يقول له أنت فعلت ما كان إليك (أى ما كان فى وسعك) ترانى لا أفعل ما إلى!! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين.

يقول إبراهيم الأطروشى: كنا قعوداً ببغداد مع معروف الكرخى على الدجلة إذ مر بنا قوم أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقلنا لمعروف: أما تراهم كيف يعصون الله تعالى مجاهرين؟ ادع الله عليهم فرفع يده وقال: إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة فقالوا إنما سألناك أن تدعو عليهم!! إذا فرحهم فى الآخرة فقد تاب عليهم.

الرجاء: هو الطمع فى طول الأجل وبلوغ الأمل فرجاء العامة فى المجازات على إمتثال ما أمر وإجتناب ما نهى ورجاء أرباب الرياضات فى تصفية القلوب لحصول المطلوب ورجاء أهل القلوب فى لقاء المحبوب والرجاء عند الطائفة مقام الضعفاء من أهل السلوك لأنهم أهل مجاهدة وجهاد.

ومن ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب المصطفى ﷺ فى أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه قولاً وفعلاً وعزماً وعقداً ونية.

٨- القبض والبسط

قال تعالى (والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون).

والقبض والبسط هما حالتان بعد إنتهاء العبد من حالة الخوف والرجاء وترقيه عنهما. فالقبض يحصل فى الوقت وكذلك البسط وهما غير معلقان بالماضى أو المستقبل حيث يقال: إن القبض والبسط يردان بوارد غلب فى وقته وتتفاوت أوصافهم قبضاً وبسطاً حسب تفاوت أحوالهم فمنهم من يكون حاله القبض عنده شديده لدرجة أنه لا يستطيع أحد ولا أحد يستطيعه فهو مغموم طول وقته يقاسى من هجوم الحال عليه كأنه ثكلى فقدت أعز أبنائها ولا تتعزى إلا إذا رأت ثكلى مثلها فهم فى حزن دائم وانقطاع عن الخلق يخافون الحجاب فلا تطمئن قلوبهم ولا تسكن روحاتهم حتى يلاطفهم بوده ويسرى عن قلوبهم بما يسر إليهم من خفى ألطافه فتسكن روحاتهم وتطمئن قلوبهم حتى إذا أطمأنت وبسط عليهم حال البسط فيسعوا الخلق فلا يستوحشوا أحداً من المخلوقات حتى الحيوان والأنس والجن والجمادات.

والمبسوط لا يؤثر فيه شىء بحال من الأحوال لأنه فى أنس حال إنبساطه بمحبوبه فهو غائب بمحبوبه عمن سواه.

وقد اعتبر أهل التحقيق حالتى القبض والبسط من جملة ما استعانوا منه لأن حالة البسط تصادف صاحبها فلته لا يعرف سببها فتباغته فتكون خطراً عظيماً قد يؤدى به إلى سوء الأدب مع الحضرة الإلهية فيخرج عن حدود الأدب كذلك مع الصالحين والأولياء.

وقال أحد الصالحين: «فتح على باب البسط فزلت زلة فحجبت عن مقامى» ولهذا قالوا: قف على البساط وإياك والانبساط فلزوم الإحتشام فى البسط واجب وكذلك يجب الحذر منه والانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء والانقباض عنهم مكسبة للعداوة فكن بين منبسط ومنقبض معهم والتزم حدود الأدب فمن كاشفه الله تعالى بنعت جماله بسط ومن كاشفه بنعت جلاله قبضه فالقبض يوجب إيحاشه والبسط يوجب إيناسه.

واعلم أن رد العبد إلى أحوال بشريته يقبضه حتى لا يطيق ذرة لسوء ما يظهره عليه من حظوظ البشرية ومن تقصيرها فى الطاعات وما عملت من المعاصى وعدم وقوفها عند حد الأمر والنهى وإذا لاطفه وأخذه وبسطه بنعت الجمال والرضا فيجد لحمل ما يرد عليه قوة وطاقة ولو حملت عليه جبال البلايا والكدورات فهو غارق فى بسطه وغافل عنها.

وقال الشبلى - رحمه الله -: «من عرف الله جل وعلا حمل السماوات والأرض على شعرة من شعرات جفن عينه ومن لم يعرف الله جل جلاله لو تعلق به جناح بعوضة ضج منها» فأحكم من هذا على حالتى القبض والبسط.

وهذا سيد رسول الله ﷺ حين ورد عليه القبض شد الحجر على بطنه وحين ورد عليه وارد البسط أطعم جياعاً من صاع.

وللقبض والبسط آداب فآداب القبض السكوت تحت مجارى الأقدار وانتظار الفرج من الكريم الغفار.

وآداب البسط كف اللسان والاحتشام وتثبت الجنان والحياء من الكريم المنان.

واعلم أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء وفوق القبض والبسط الهيبة والأنس فالخوف والرجاء للمؤمنين والقبض والبسط للسائرين والهيبة والأنس للعارفين ثم المحو فى وجود العين للمتمكنين فلا هيبة لهم ولا أنس ولا علم ولا حس، أنشدوا:

وكنت بلا حـــال مع الله واقــفـــاً

عن التــــذكـــار والجن والإنس

والقبض على قسمين: قبض له سبب، وقبض لا سبب له، فالقبض الذى له سبب يكون للعموم والخصوص فهو متعلق بشىء إما هماً دنيوياً أو أخرويا وقد يكون ذنب أحدثه أو دنيا ذهبت عنه أو شخص آذاه فى نفسه أو عرضه فإن كان ذنب استغفر منه وإن كانت دنيا ذهبت عنه رجع إلى الله تعالى إن كان ظلماً وقع عليه فصبر واحتمل فهذا دواؤه وإن لم يطلعه الحق تعالى على سبب القبض فالسكون تحت جريان الأقدار أولى فإنها سحابة سائرة تنقشع فهذا قبض أهل التخصيص.

ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى - رضي الله عنه -: «الفراسة نور يسلطه العارف على الشىء المراد إمامه فبالنور تتكشف الحقيقة» فإن ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب فلا يخلو أن يلوح عليها لائح القبض بانقباض القلب فاحذر ذلك وتجنبه فإنه المحذور أو يكاد وإذا ظهر فوق الشىء المراد معرفة حقيقته نور فهو حق ونور فوق نور.

ولا تغتر بالكشف ولا تطلبه فإنهم استجاروا من الكشف خوف الاستدراج فلا تقطع به إلا ببينة من كتاب الله عز وجل أو سنة أو إجماع.

وقد شكل القبض على صاحبه فلا يجد فى قلبه سبب القبض ولا يدرى ما أوجده فلا سبيل له إلا التسليم حتى يمضى ذلك الوقت لأنه لو تكلف فيه البسط أو استقبل الوقت قبل هجومه باختياره زاد فى قبضه وعد ذلك من سوء الأدب وإذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض وقيل: الصوفى ابن وقته.

وقد يرد وارد القبض على القلب موجب إشارة إلى عتاب أو رمزاً باستحقاق تأديب وإذا ورد الوارد بإشارة إلى تقريب أو إقبال منه بلطف وترحيب فيحصل للقلب بسط وفى الجملة قبض كل واحد على حسب بسطه وبسطه حسب قبضه.

قال الروزبادى - رحمه الله -: «من قلت آفاته أتصلت بالحق أوقاته» وسئل عن القبض والبسط أول أسباب البقاء فحال من قبض الغيبة وحال من بسط الحضور ونعت من قبض الحزن ونعت من بسط السرور وقال «أقبح من كل قبيح صوفى شحيح».

يقول الإمام الجنيد رضي الله عنه: «الخوف من الله يقبضنى والرجاء فيه يبسطنى والحقيقة تجمعنى والحق يفرقنى إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى وإذا بسطنى بالرجاء ردنى على وإذا أجمعنى بالحقيقة أحضرنى وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى فغطانى عنه فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير ممسكى وموحشى غير مؤنسى فأنا بحضورى أذوق طعم وجودى فليته أفنانى عنى فمتعنى أو غيبنى عنى فروحنى».

٩- السماع

قال تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال جل شأنه (فهم في روضة يحبرون) أى يستمعون.

وقال رسول الله ﷺ «حسنوا القرآن بأصواتكم فإن صوت الحسن يزيد القرآن حسناً».

والسماع هو استلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الجميلة واستروحها إليها مما لا يمكن جحوده فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب والجمل يقاسى السير ومشقة الحمولة فيهون عليه بالحداء.

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ (لكل شئ حلية وحلية القرآن الصوت الحسن) وأن حسن الصوت مما أنعم الله به على صاحبه من الناس.

قال عز وجل (يزيد فى الخلق ما يشاء).

قيل فى التفسير من ذلك الصوت الحسن، وقال رسول الله ﷺ «ما أذن الله تعالى لشيء كإذنه لنبى يتغنى بالقرآن»، أى ما أستمع الله لشيء كاستماعه لنبى يتغنى بالقرآن.

وقيل إن «داوود عليه السلام» كان يستمع لقراءته الجن والإنس والطير والوحش إذا قرأ الزبور وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات ممن سمعوا قراءته.

وقال معاذ بن جبل لرسول الله ﷺ: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا، أى لزينته ولحسنته لك. وروى بنحوه عن أنس: أن موسى الأشعرى كان يقرأ القرآن ليلة ونساء النبى ﷺ يستمعون فقيل له: فقال: لو علمت لحبرته تحبيراً ولشوقت تشويقاً.

وسئل الجنيد: ما بال الإنسان يكون هادئاً فإذا سمع السماع اضطرب؟ فقال: إن الله تعالى لما خاطب الذر (الأرواح) فى الميثاق الأول بقوله (ألست بربكم قالوا بلى) فاستعذبت الأرواح السماء فحركهم ذكر ذلك فإذا ذكرت به هامت وطربت وغابت لعذوبة السماع.

ويقول أبو على الدقاق: «السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم ومباح للزهاد لحصول مجاهداتهم ومستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم».

وكان الحارث بن أسد المحاسبي يقول: ثلاث إذا وجدن متع بهن وقد فقدناها: حسن الوجه مع الصيانه وحسن الصوت مع الديانة وحسن الإخاء مع الوفاء.

وحكى عن الجنيد أنه قال: تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ولا يقولون إلا عن وجد وعند الأكل للطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة وعند مجاورة العلم فإنهم لا يذكرون إلا صفات الأولياء.

ولا يصح السماع إلا لمن كانت له نفس ميته وقلب حي فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة وقلبه حي بنور الموافقة وهو وارد حق يزعج ويحرك القلوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصغى إليه بنفس تزندق وبذلك يشهدون المعاني التي تغرب عن غيرهم فيتنعمون بذلك من الفرح ثم يقع الحجاب فيعود ذلك الفرح بكاء فمنهم من يخرق ثيابه ومنهم من يصيح ومنهم من يبكي كل واحد على قدره.

وقال أبو عثمان الحيري: «السماع ثلاثة أوجه: فوجه منها للمريدين والمبتدئين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ويخشى عليهم في ذلك الفتنة والمراءاة، والثاني للصادقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ويستمعون من ذلك ما يوافق أوقاتهم، والثالث لأهل الإستقامة من العارفين فهؤلاء لا يختارون على الله تعالى فيما يرد على قلوبهم من الحركة والسكون».

وقيل: «أهل السماع على ثلاث طبقات: أبناء الحقائق يرجعون في سماعهم إلى مخاطبة الحق سبحانه وتعالى لهم وآخرون يخاطبون الله بقلوبهم بمعاني ما يسمعون فهم مطالبون بالصدق فيما يشيرون به إلى الله، وثالث: فقراء مجردون قطعوا العلاقات من الدنيا والآفات يسمعون بطيبة قلوبهم وهؤلاء أقربهم إلى السلامة.

وسئل الخواص رحمه الله: ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ولا يجد ذلك في سماع القرآن؟ فقال: لأن القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته وسماع القول ترويح فيتحرك فيه.

وحكى أن ذا النون المصري لما دخل بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوال فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئاً فأذن، فابتدأ يقول:

صغير هواك عذبني

فكيف به إذ احتنكا

وأنت جمعت من قلبي

هوى قد كان مشتركا

أما ترثي لمكتئب

إذا ضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض ثم قام رجل من القوم يتواجد فقال: له ذو النون (الذى يراك حين تقوم) فجلس الرجل.

ويقول الأستاذ أبا على الدقاق فى هذه الحكاية: كان ذو النون صاحب إشراف على ذلك الرجل حيث نبهه أن ذلك ليس مقامه وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف حيث قبل ذلك منه فرجع وقعد.

وحكى عن الجنيد أنه قال: «دخلت على السرى يوما فرأيت عنده رجلا مغشياً عليه فقلت: ماله؟ فقال: سمع آية من كتاب الله، تعالى فقلت: تقرأ عليه ثانياً فقرىء فأفاق فقال: لى من أين علمت هذا؟ فقلت إن قميص يوسف ذهبت بسببه عينى يعقوب عليهما السلام ثم به عاد بصره فاستحسن منى ذلك.

وفى السماع لهم أحوال غريبة تجرى على قلوبهم يقول الدارج كنت ماراً على الدجلة بين البصرة والأبلة وإذا بقصر حسن له منظر وعليه رجل وبين يديه جارية تغنى وتقول:

فى سبيل الله ودى

كان منى لك يبذل

كل يوم تتلون

غير هذا بك أجمل

وإذا شاب تحت المنطرة بيده ركوة وعليه مرقعة يسمع فقال: يا جارية بحياة مولاك أعيدى

كل يوم تتلون

غير هذا بك أجمل

فأعادته فقال الشاب قولى فأعادت فقال: هذا والله تلونى مع الحق وشهق شهقة خرجت روحه، فقال صاحب القصر للجارية: أنت حرة لوجه الله تعالى وخرج أهل البصرة وفرغوا من دفنه والصلاة عليه فقام صاحب القصر وقال: أليس تعرفونى أشهدكم أن كل شيء لى فى سبيل الله وكل مماليكى أحرار ثم اتزر بإزار وارتدى برداء، وتصدق بالقصر ومر ولم ير له بعد ذلك وجه ولا سمع له أثر.

وقيل السماع فيه نصيب لكل عضو فما يقع إلى العين تبكى وما يقع على اللسان يصيح وما يقع على اليد تمزق الثياب وتلطم وما يقع على الرجل فترقص وما يجمع قلبك إلى الله سبحانه وتعالى فلا بأس به.

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال:

أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السلام (أنى جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامى وعشرة آلاف لسان حتى أجبتنى وأحب ما تكون إلى وأقربه إذا أكثرت الصلاة على حبيبى محمد ﷺ وأنشد أحدهم:

كبرت همة عبد
طمعت فى أن تراكا
أو ما حسب لعين
أن ترى من قد رآكا

قص موسى عليه السلام على قومه قصة فزعق واحد منهم فانتهره موسى فأوحى الله تعالى إليه يا موسى بطيب فاحوا وبحبى باحوا وبوجدى صاحوا فلماذا تنكر ذلك على عبادى؟، وأحوال الناس فى السماع: حال ظالم لنفسه الذى هو قاسى القلب لا يلين للسماع أو الذكر، وحال المؤمن التقى الذى فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه فهذا الذى يصعق صعق الموت أو صعق غشى فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله، وقد يحصل من السماع كذلك ما يرد على القلوب السكر والفناء من الأمور التى تغيب العقل بغير اختيار صاحبها من لذة قلبية أو روحية وهى نوع من الإيمان وقد يهيجه السماع فيحرك ساكنه وهذا لا ملام عليه ولا فعل للعبد فيه.

ومنهم من يقوى عليه الوارد عند السماع حتى يصير مجنوناً بسبب خلط يغلب عليه

فقد أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وأسقط أحوالهم ورفع ما فرض حيث سلب، أما الكمل فقد يحصل لهم الوارد فتحمل عقولهم وما تفيض بحورهم ولم يحصل لهم التغير وهذه حالة الصحابة - رضى الله عنهم - وهو حال النبى - ﷺ - فإنه أسرى به إلى السماء وأراه الله ما أراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله فحاله أفضل من حال موسى - عليه السلام - الذى خر صعقاً لما تجلى ربه للجبل وحال موسى عليه السلام حال جليلة عليه فاضلة لكن حال سيدنا محمد - ﷺ - أكمل وأعلى وأفضل وأول هذا الأمر السماع والتصديق ثم الفهم والتدقيق ثم الشهود والتحقيق.

قيل للشبلى - رحمه الله - لما لا تتحرك فى السماع فقال: «إنه إذا كان فى الجمع كبير احتشمت منه فأمسكت على وجدى فإذا خلوت وحدى أرسلت على وجدى فتواجدت» وأنشد:

تغنى العود فاشتقنا
إلى الأحباب إذا غنى
وكنا حيثما كانوا
وكانوا حيث ما كنا

وصاح يوماً فى السماع فقيل له فيه فقال:

لو يسمعون كما سمعت كلامها
خروا لعزه ركعاً وسجوداً

وكان الجنيد فى السماع لا يتحرك فقيل له: مالك لا تتحرك فى السماع فقال: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) وكان الجنيد يقترح على القوالين هذه الأبيات:

فلو أن لى فى كل يوم وليلة
ثمانين بحراً من دموع تدفق
لأفنيتها ثم ابتدأت بغيرها
وهذا قليل للفتى حين يعشق

أهيم به حتى الممات لشقوتى

وحولى من الحب المبرح خندق

وفوق سحاب تمطر الشوق والهوى

وتحتى عيون للهوى تتدفق

قال الغوث الرفاعى - رضي الله عنه - فى السماع: «السماع سر ما وصل إليه إلا القليل من العارفين» وخص به الله أقواماً استذلهم الخلق فاستقبلهم الحق وأظهرهم على ما يصل إليه كثير من أهل الاجتهاد إلا بالعناية القديمة وذلك لأجل نظره سبحانه إلى استحقار الخلق لهم وكسر قلوبهم وذل نفوسهم فأسمعهم القول بأسماع القلوب عن بساط القرب من غير حضور النفس فمنهم من سمع بأذنه ومنهم من سمع بقلبه ومنهم من سمع بسره ومنهم من سمع بروحه.

لهم فى كل صورة مليحة وحركة لطيفة حظ أو وارد غيب وكذلك فى كل هبوب ريح لذة فهم والهون وحيارى مفتقرون أسارى خاشعون سكارى لهم فى وقت السماع حنين وأنين لأنهم يسمعون بقلوب رقيقة خالية عن الأكدار قد أضرمت فى قلوبهم نيران الاشتياق ولهبات الأحزان فأحرقت كليتهم من غير أن يعلم المستمعون أى شىء أصابهم، لا يعرف حالهم غير مولاهم الذى أبلاهم فباطنهم محترق بالله وظاهرهم محفوظ مع الله فساعة تراهم وقد نزلت عليهم السكينة وساعة معذبين محزونين وساعة متلذذين مسرورين فواحد يصرخ وآخر يرقص وآخر يبكى وآخر يطرب فحالهم لا يعرفه إلا أهل المعرفة والصفاء الذين ماتوا قبل ألف موتة وباتوا ليلة جياعاً وليلة عطاشاً وليلة دهشاً احترقوا بنار الجحيم ألف ألف مرة وحيوا ألف حياة فلا يعرفهم إلا أمثالهم.

والسماع ينفع أرباب القلوب لأنه يحرك أزمة قلوبهم وأسرارهم إلى المحبوب وهو يضر بأرباب النفوس لأن النفس تمنع من جانب الحق ولا تخلوا الجماعة ممن يحضر معهم فيتعطرون بعطرهم وينالون من فتوح الله الذى أنعم عليهم وهذه شيمة الكرام وإنما يحتاج إلى السماع من ليس له جاذبة من باطنه وأما من له جاذبة من باطنه فشوقه إلى ربه فلا يفتقر إلى هذا والفقير إذا غلب عليه الشوق أنشدوا وتواجدوا، ولهم فى السماع معانى وأنشد أحدهم يقول:

إذا العشرون من شعبان ولت

فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار

فقد ضاق الزمان على الصغار

فخرج هائماً حتى وصل مكة وجاور فيها حتى مات، ويفهم منها أن العمر ولى ولابد من الجهاد وأن الجهاد بمكة أجره أعلى من أى مكان آخر.

فكم سمعوا كلمة من أحادى الناس فكانت طريقهم كالمقياس بشهودهم تلك الكلمة كم من الله الذى انطلق كل شىء كذلك الأخذ من الكلمة عند سماعها علوماً من أحرفها وحركاتها وسكناتها.

قال الرسول ﷺ: (العلم علمان علم اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم وعلم القلب فذلك العلم النافع).

قال سيدى أبوالعباس المرسى - رضي الله عنه - فى السماع: «من أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قول الله تعالى: (سماعون للكذب أكالون للسحت) وقالوا: طول الاستماع إلى الباطل يطفىء حلاوة الطاعة من القلب».

والسماع تنفس لأرباب الأحوال عن أحوالهم واستحضار الأسرار لذوى الأشغال واستجمام من تعب الوقت وأرباب الكشوف والمشاهدات استغنوا عنها بالأسباب الحاملة لهم لتنزه أسرارهم فى ميدان الكشوف فالسماع إذا قرع الأسماع أثار كوامن أسرارها فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد ومن بين متمكن بقوة الحال.

قال أبومحمد رويم: «إن القوم سمعوا الذكر الأول حين خاطبهم الحق بقوله (ألست بربكم) فكمن ذلك فى أسرارهم كما كمن ذلك فى عقولهم فلما سمعوا كوامن أسرارهم أى سمعوا الذكر ظهرت كوامن أسرارهم فانزعجوا كما ظهرت كوامن عقولهم عند إخبار الحق لهم عند ذلك فصدقوا».

والسماع: على ضربين فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة وهذا لا يسمع إلا بالتمييز وحضور قلب وطائفة سمعت النغمة بقوة الروح فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه وأعرض عن تدبير الجسم فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة.

والسماع: حال وهو تنبيه لكل واحد عن مقصود خاص بحسب نصيبه فسماع العوام عن امتثال الأوامر وسماع الخاص شهود الحق من كل مسموع لعدم سماعهم إلا بالحق وفي الحق والحق ومن الحق فالسماع بالحق سماع من لم يبق فيه شيء من النفس والسماع في الحق سماع من يشاهد جمعيته تعالى بكل كمال والسماع للحق يشهد المسموعات المعرضة القول مقبولاً للحق لا بغيره والسماع من الحق من يأخذ الخطاب من الله تعالى أخذاً مقبولاً كما هو دأب أهل الحقيقة وسماع الأخص سماع كلام الله تعالى عن كل كائن وهو السماع الكامل.

وقيل السماع من الخلق جفاء والسماع من الحق قرب وأنس ومن لم يسمع نداء الله كيف يجيب داعيه فقد جهل قدر الله تعالى وعن مشروعية السماع: فقد روى عن ابن عمر آثار في إباحة السماع كذلك عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وكذلك عن عمر – رضي الله عنهما جميعاً – في الحداء وغيره ومن المشهور الظاهر أن النبي ﷺ دخل بيت عائشة رضي الله عنها وفيه جاريتان تغنيان فلم ينهاهما. وعن عائشة رضي الله عنها: «أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – دخل عليها وعندها قنيتان (مغنيتان) بما تقازفت به الأنصار يوم بعاث فقال أبوبكر مزمار الشيطان فقال النبي ﷺ: دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وعيدنا هذا اليوم» وعن جابر عن عائشة رضي الله عنها: «أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار فجاء النبي ﷺ فقال: أهديتم الفتاة؟ فقالت: نعم، قال: فأرسلت من يغني؟ قالت: لا فقال النبي ﷺ إن الأنصار فيهم غزل فلو أرسلتم من يقول:

أتيناكم أتيناكم.. فحيونا نحيكم

وقد أنشد كعب بن زهير قصيدته المعروفة «بانت سعاد» مدحاً في رسول الله ﷺ وفي مسجده وهو يستمع إليه وجمع من الصحابة والتي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يلف مكبول

فلما أن قال:

إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

ألقى إليه رسول الله ﷺ عباءته تكريماً له.

١٠- الغيبة والحضور

الغيبة هى غيبة القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد تذكر ثواب أو تفكر عقاب.

والغيبة تكون للعبادة بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة ومقتضيات الخوف والرجاء وهى من نواتج الذكر المستديم فى كل وقت فيصل صاحبه إلى الغيبة والحضور والغيبة عما دون الحق حتى يغيب عن نفسه إلى درجة لا ينظر نفسه فى حالة غيبة نفسه والحضور مع الحق فإن الغيبة عن النفس حضور مع الحق.

وقيل إن طالب الوصول لا تجده إلا ذاكراً أو متفكراً أو تالياً أو مصلياً أو مذكراً أو مستمعاً أوقاته جميعاً معمورة وحركاته وسكناته بالإخلاص ملحوظة إن تكلم فبذكر الله أو بما يقربه إلى الله وإن صمت فعن الغيبة بفكره أو بسره مع الله.

فالغيبة فى الله هو تجوال الروح فى عظمة الله أو فيما يقرب إلى الله وإن تحرك فبالله وإلى الله وإن سكن فمع الله مستأنساً بالله مشغولاً به غائباً عن نفسه ليس له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار إنسه بالله ومجالسته مع الله التقوى زاده والقناعة رفاده ومن بحر العرفان استمداده قد استغنى بالله عما سواه ورفض وراء ظهره دنياه وهواه قد اتخذ الله صاحباً وترك الناس جانباً وفى الصمت عن غير الله حكم وأسرار لا يذوقها إلا من استعمله الله وتخلق بأخلاق الله والعمل الصالح هو الذى يصحبه الإخلاص فى أوله والاتقان فى وسطه والغيبة عنه فى آخره فهو يؤدى بصاحبه إلى فعل الأصفياء بموافقته للسنة وسلامته من البدعة وتحققه فيه بالإخلاص وأهل الغيبة إذا شربوا طاشوا وأهل الحضور إذا شربوا عاشوا وفى طيشهم غابوا عن حظوظ أنفسهم فلا يروها وهى معهم موجودة فيهم لكنهم غابوا عنها بشهودهم للحق.

وفى الغيبة وحشة الحجاب وفى الحضور راحة الكشف ولا يكون الكشف فى جميع الأحوال مثل الحجاب، وتأتى الغيبة من الذكر أو الفكر وقد تطول بصاحبها حتى يتلاشى عما حوله فلا يبقى إلا الحق جل شأنه.

١١- الجذب

الجذب هو أخذة من أخذات الحق أو جذبة من جذباته وقد تكون فى بداية السير أو أثنائه أو فى نهاية السير إلى الله تعالى وجاء هذا من باب القدرة (كن فيكون).

قال رسول الله ﷺ: «جذبة من جذبات الرحمن تغنى عن عمل الثقلان»، وهو من فاجآته العناية الإلهية الأزلية فيتغير حاله فجأة وانقاد إلى طريق مولاه فتغير حاله.

وأهل الجذب لهم تلوين مع الله ولهم أحوال سنية تظهر عليهم من باب الفيض الإلهى وهم دائماً فى تحول وليس لهم مستقر أنظر الكتاب الأول «الباقة العطرة فى التصوف» وقد أفضنا فيه عن الجذب وأحواله فى الباب العاشر (السالك والمجذوب).

الفهـرس

الجزء الثانى

ب - الأصول

ج- الأخلاق

د- الحقائق

هـ - الأحوال